[redacted] الدار
s, Inc.

سامر النّجّار

وما زال النرد يدور



رواية

سامر النّجّار

وما زال النرد يدور

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2020 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-01-3131-6

توزيــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

صورة الغلاف: **راما الدقاق**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

تنويه

جميع شخصيّات هذه الرواية هي نتاج خيال الكاتب المحض ولا وجود لها في الحقيقة، إلّا أنّها شخصيّاتٌ واقعيّةٌ بالقدر ذاته. أي تشابهٍ بين إحدى شخصيّات الرواية وشخصيّةٍ حقيقيّةٍ هو صدفةٌ بحتة.

الكاتب..

إهداء

إلى شجرة الإيكيدنيا التي ذبلت هناك،
في حديقة منزلنا في حمص
والتي كنت أنتظرها أن تزهر كل صيفٍ بفارغ الصبر..
إلى أمنيتنا اليتيمة والخالدة:
الحرّيّة
وجميع ثوارها الذين لا أعرف أسماءهم
أهدي عملي هذا وأقول لهم:
لا يمكن أن تجتمع الثورة واليأس في كيانٍ واحد...

القسم الأول

من مكائد الطفولة أنك لا تفهم بالضرورة ما تعاني منه، وحين تبلغ سنّ الرشد يفوت الأوان لمداواة جراحك.

كارلوس ثافون

1

أنظر إلى ساعتي، لم تتجاوز التاسعة صباحًا بعد. في مثل هذا الوقت تعج محطة الميترو في فيينا بالناس الذين إذا ما دقّقت في وجوههم فلن ترى سوى القلق يرتسم بأشكالٍ متشابهةٍ فيها، ينظرون إلى ساعاتهم طوال الوقت ويتأمّلون الأفق المكتنز بالظلام منتظرين أن يلمع نور العربة التي ستحمل كلًّا منهم إلى وجهته في آخر النفق، بينما كان الأمر بالنسبة إليّ سيّان، فلا وجهة محدّدة لي اليوم.

دخل الميترو المحطة وراح الجميع يحتشد حول الأبواب بينما يمطّون رؤوسهم إلى داخله ويترصّدون المقاعد الشاغرة لينقضّوا عليها في الحال، قبل أن ينظروا إلى بعضهم البعض ويلتصقوا بالباب قدر الإمكان. أمّا أنا، فأودّ الوقوف متشبّثًا بأحد الأعمدة على أن ينظر إليّ أحدهم بنظرة احتقارٍ وكأنّني سرقت مقعده عنوةً. إلّا أنّني في حقيقة الأمر أفضّل الجلوس بالطبع. لن أجلس هذه المرّة أيضًا، كون تنافسي مع رجلٍ عجوزٍ على المقعد الوحيد المتبقّي غير منطقيٍّ البتة، بالإضافة إلى أن كل الرجال كبار السن يذكرونني بجدّي، وهذا الرجل بالذات يشبهه إلى حدٍّ ما. جدي الذي كان دائمًا يكرّرُ لي حكايةً واحدة عن رجل غنيّ يدعى "ذو اللحية الزرقاء"، عاش في سالف الأزمان. كان ذلك الرجل دميم الوجه سيّئ الخلق، قاسي القلب، تزوج عدّة مراتٍ

متتاليات، إلّا أن مصير نسائه كان دومًا مجهولًا. قرّر الرجل ذاك الزواجَ مجدّدًا، فانتشر الخبر الذي قذف الرعب في قلوب فتيات المدينة بسرعة البرق. تزوّج الرجل أخيرًا بفتاةٍ بكرٍ من فتيات المدينة، وجاء بها إلى قصره بعد أن عاهدته بالولاء والسمع والطاعة. في أحد الأيام أراد ذو اللحية الزرقاء السفر، فأعطى زوجته مفاتيح غُرف القصر كلّها وحذّرها من دخول حجرةٍ صغيرةٍ موجودة في القبو، فوافقت. إلّا أن فضولها قد دفعها لفتح الغرفة فوجدت بداخلها جثث زوجات الرجل السابقات اللواتي قد قتلهنّ. سقطت المفاتيح من يد الفتاة عند رؤيتها ذلك المشهد المروّع، فتلوّثت المفاتيح بالدماء. عاد الرجل فجأةً من سفره بينما كانت الفتاة بانتظار قدوم إخوتها لزيارتها، واكتشف عن طريق الدماء العالقة على المفاتيح أن زوجته قد دخلت الغرفة وكشفت سرّه فعزم على قتلها لكيلا يُفتضح أمره في المدينة. توسّلت الزوجة إلى زوجها أن يمنحها دقائق قليلةٍ قبل قتلها، لتصلّي وتستغفر الله، وقلبها يدعو بوصول إخوتها قبل فوات الأوان. مضت الدقائق القليلة تلك، وعندما رفع الرجل سكّينه ليقتل زوجته الشابّة، وصل إخوتها إلى القصر واستلّوا سيوفهم لدى رؤيتهم لها تحت سكين زوجها المجرم فقتلوه وخلّصوها.

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما حكى لي جدّي المريض هذه الحكاية لآخر مرة على سرير احتضاره. كان يروي لي نهاية القصة مبتسمًا، بينما أرفع حاجبَيّ بدهشة. امتعض جدّي من ردّ فعلي وسألني عن رأيي بالقصة الشعبيّة الفرنسيّة، فاستنكرت نهايتها وقلت له إنّها تبدو لي مضحكةً جدًّا، بل ساذجة. لم يكن عدم إعجابي بنهاية القصة نابعًا

إلّا من عدم قناعتي بوجود نهاياتٍ كتلك في الواقع. فأخبرتُ جدّي بأنّني لو كنت كاتب القصة، لدوّنت ما كان ليحصل حقًّا فنظر إليّ متسائلًا، فقلت له: نعم. لو كانت القصة حقيقية فلن يصل أخوة الفتاة قبل أن تُرمى المسكينة إلى جانب سابقاتها من النساء جثةً هامدةً في قبو القصر. وربما سيقتلُ الرجل إخوتها أيضًا! فضحكَ.

مرّت الآن سنواتٌ طويلةٌ على ذلك اليوم، ولكن نبرة صوت جدّي لا تزال ترنُّ في أذني وهو يقول: "لن تصبح كاتبًا أبدًا يا بني، ذوقك لا يناسب الذوق العام".

استمرّت حياتي في سوريّة لما يقارب العشرين عامًا، أقدم ما أتذكّره منها أنّني كنت ذا أربع سنواتٍ يرزح تحت كومة من الحديد الملتهب في السيّارة المقلوبة التي كانت متجهةً بنا من دمشق إلى اللاذقية. خلال تلك السنوات كان جدّي هو أكثر من تأثّرت به، فأنا حتّى يومي هذا أصحو أحيانًا وأبدأ بالبحث عنه. لقد كان رجلًا شهمًا ذا سمعة طيّبة. كان يتجوّل في الحي بطقمه رمادي اللون المؤلَّف من قميصٍ بكمٍّ قصيرٍ وبنطالٍ لا يختلفان باللون أبدًا مع قبّعةٍ صوفيةٍ رماديّةٍ أيضًا. كان ذلك اللباس يعتبر لباسًا دارجًا في أزمانٍ خلت ولا أتذكر أنّني رأيت أحدًا يرتديه بعد وفاة آخر أصدقاء جدّي، فقد كان محبّبًا لكبار السن فقط. ذلك كان زيّه الذي ارتداه طوال عشرات السنين في عمله كموظفٍ متواضع في مؤسسة المياه. شعره الأبيض وشارباه الكبيران كانا يعطيانه مهابةً سلبها منه ربما قصر القامة الشديد. أعتقد أن اللون الرمادي لم يكن لونه المفضّل وحسب، بل كان يعبّر أيضًا عن شخصيته وحياته

بطريقةٍ أو بأخرى، حيث لطالما كان غامضًا وغير واضح المواقف.

كان أبو مصطفى - صديق جدّي المقرّب - يبادره بالكلام في السياسة بصوتٍ منخفضٍ أثناء تواجدهما في مقهى النوفرة للعب الطاولة، ولكن جدّي كان يقاطعه قائلًا: "إلعب يا أبو صطيف، شو بدنا بهذا الكلام اللي ما منّه فائدة".

كنت ملاصقًا لجدّي دومًا أينما ذهب، وقد كان يقضي معظم يومه في الخارج مع أصدقائه أو في التجوّل في السوق مبتعدًا عن شقّة عمّي التي يكرهها. سحرني وصفه لمنزله السابق حيث كانت تسكن العائلة، والذي ورثه عن والده، مرّاتٍ ومرّات. فقد ترعرع أبو هشام في منزلٍ شاميٍّ عتيق، في بيتٍ كبيرٍ مؤلّفٍ من طابقين، يعج بالغرف ذات النوافذ الضخمة والتي تسمح لأشعة شمس الفجر بالدخول إلى الحجرات بشكلٍ كامل، يتوسّطه فناءٌ ببركة ماءٍ تُنقع في مائها البارد فواكه الصيف، بالإضافة إلى أشجار الليمون التي تزنّر الردهة وأغصان الياسمين والعنب التي تغطي أجزاءً منها. لهذا كان من الطبيعي أن وجوده في شقّة عمي هشام يسبِّب له الاختناق. كان يسكن غرفةً صغيرةً في ذلك المنزل، بينما أسكن أنا غرفةً أخرى. وقد كان المنزل هادئًا دومًا، فبثينة كانت تنزعج حتّى من صوت التلفاز إن كان مرتفعًا قليلًا، بينما كان جدّي يتحدّث بصوتٍ مرتفعٍ نسبيًّا.

لم أكن أملك خلال طفولتي أي أصدقاء، باستثناء ابنة عمي دارين. ولكن بثينة، زوجة عمّي، كانت دائمًا ما تحول بيننا عندما كنّا صغارًا، بل تمنعنا أحيانًا من اللعب معًا بتهديدها لنا بالعقاب. وجود عمّي أو جدّي

في المنزل كان يعطينا بعض الأمان للعب معًا دون أن تصرخ بثينة في وجهينا وتفزعنا ثم تقوم بطرد كل منّا إلى غرفته.

وبعد وفاة والدَيّ وجدّتي لم يتبقَّ لدى جدّي الكثير ليخسره، فحاول الحفاظ على رابطه العاطفي والجغرافي بعمّي هشام وثيقًا. هذا بالذات كان السبب الذي حدا به للرضوخ لضغوطات عمّي، الذي رضخ هو الآخر لضغوطات زوجته، لبيع منزل العائلة الكبير، ليفتتح عمّي مشروعًا يبقيه قرب عائلته، حيث كان يعمل لوقتٍ طويلٍ سابقًا خارج البلاد.

لم يكن ذلك سوى محاولاتٍ من بثينة للحصول على أكبر قدرٍ من ممتلكات جدّي قبل وفاته لمنع حصولي على شيءٍ من الإرث، وقد تلقّى جدّي وعودًا من عمّي ألّا يودعه دار المسنين ويرعاني حتّى تخرّجي من الجامعة، الأمر الذي لم يحصل.

2

كان صباحًا صيفيًا حارًّا من صباحات دمشق المألوفة. نهضتُ من سريري عند السابعة وتوجّهت كالعادة إلى غرفة جدّي الذي كان المرض قد نال منه تمامًا، فإذا بي أسمع صوتًا في غرفة الضيوف التي تتوسّط الشقّة، بدّلت وجهتي إلى هناك لأرى عمّي هشام منفجرًا بالبكاء وهو يغطي عينَيه بكلتا يديه، وصديقَي جدّي "أبو مصطفى" و"أبو الياس" جالسين قبالة بعضهما جلستين متطابقتين تمامًا بوجهين خاليين من المشاعر. كلٌّ منهما يسند خدّه بيده، وذراعه على طرف الأريكة شاردًا بصمت، بشكلٍ يشبه "الطبيب غارشيه"(*) إلى حدٍّ بعيد.

أبعدَ عمّي يديه عن وجهه وفتح ذراعيه عندما رآني واقفًا مشدوهًا عند الباب، فمشيت إليه بتردّدٍ وبوجهٍ شاحبٍ وارتميت في حضنه وقد أدركت كلّ شيء.

كنت مراهقًا بسبعة عشر عامًا فقط وقد راودني حينها خاطرٌ بأن عمّي يعانقني للمرّة الأولى، فلم أكن معتادًا على رائحته، رغم أنّني كبرت في منزله. راح عمّي يرتجف وينتحب لدى معانقتي، بينما عجزت أنا - بشكلٍ يثير التعجّب - عن ذرف دمعةٍ واحدة.

(*) لوحة للفنان الهولندي فان جوخ تصوّر طبيبه الدكتور غارشيه.

كانت جثّة جدّي لا تزال مسجّاةً على السرير وقد غُطِّي وجهه، وقبعته الرمادية كانت بقربه فوق الكومدينة المجاورة. استرقتُ النظر إلى الداخل دون أن أجرؤ على الاقتراب، فزادت الحرقة التي كنت أشعر بها في عينيّ. مؤلمٌ أن تشاهد الشخص الوحيد الذي تثق به في هذا العالم وقد تحوّل إلى جثّةٍ يجب التخلّص منها، أن تغيب تلك الابتسامة التي لطالما منحتك الدفء، أن يغادرك الحب غير المشروط، وتغتال يد القدرِ مصدر الأمان المجاني الذي كنت تنعم به وتظن أنّه لن ينضب يومًا.

جاءت سيارة الإسعاف لتحمل الجثّة إلى مكانٍ لا أعرفه بينما وقفت أنا عند باب غرفتي، أراقب بصمتٍ وخوفٍ كل ما يحدث. ابنتا عمّي دارين وياسمين كانتا في غرفة المعيشة تندبان، بينما تجلس بثينة بقربهما، لا ترتسم على وجهها ملامح معيّنة، كانت تبدو بين المغتمّة والمنتشية. دخلتُ غرفة الجلوس وجلست على الأريكة المواجهة للفتاتين اللتين عانقتا بعضهما ربما للمرّة الأولى والأخيرة. جلستُ هناك، عاجزًا عن البكاء. هل حقًّا خرج جدّي من المنزل دون عودة؟ لم أحتمل المكوث في البيت، فسألت بثينة إلى أين قد أخذوا جدّي فأجابتني بتعجرفٍ: "ع المستشفى". خرجتُ من المنزل واستوقفت سيارة أجرة وقلت له بالحرف الواحد: "خذني ع المستشفى!". تعجّب السائق وأدار سيارته وتوجّه إلى أقرب مشفىً، وهناك كان عمّي لحسن الحظ.

كانت الشمس حارقةً بينما كنّا نتجمّع حول الحفرة التي سيودع جدّي داخلها. أمام القبر وقف شيخٌ يتلو آياتٍ قرآنيةٍ بينما كان عمّي هشام باكيًا، والعرق يتصبّب على جبينه، مع بعض الأصدقاء وهو ينزل

الجثّة إلى داخل الحفرة الضيّقة. كنت أراقب ذلك الطقس الكئيب باهتمامٍ بالغٍ دون أن أستطيع ذرف دمعةٍ واحدة. لقد حاولت البكاء عبر عصر جفوني بقوّة، دون جدوى. أردت البكاء بشدّةٍ للتعبير عمّا كان يعتمل في قلبي من حزنٍ وأسى، وخوفٍ من قادم الأيام. قلت في نفسي حينها: "لأبكي جدي دفعةً واحدة، فليخرج كل الحزن دفعةً واحدة". ولكنّني عجزت. يومها اعتراني الغم لأن دموعي لم تسل. بدأ الرجال يرمون التراب فوق الجثّة الملفوفة بالقماش الأبيض من القدمَين حتّى الرأس، بينما أدير ظهري متأمّلًا الأضرحة حولي. مشيتُ مبتعدًا عن الناس وعدتُ وحيدًا إلى المنزل، بقلبٍ وذهنٍ فارغَين تمامًا.

* * *

كان عليّ بعد فراق جدّي التأقلُم على نمط حياةٍ جديدٍ كلّيًا، فبثينة لم تعد تخفي كرهها لي في صدرها كما كانت تفعل سابقًا، بل صارت تترجمه إلى أفعالٍ وتكيد لي المكائد، ما جعلَ حياتي في بيتها بؤسًا خالصًا.

لم أجد بعد وفاة جدّي أي إنسانٍ يمكنني الوثوق به، سوى دارين، ابنة عمّي التي تكبرني ببضعة أشهر. لقد كانت رغم صغر سنّها متّزنة ومتعقّلة ومشتعلةً بحب الحياة، كما كانت متمرّدةً أيضًا، وقد أدخلها حبّها لي في دوامةٍ من الخلافات مع أمّها وأختها الصغرى ياسمين.

ياسمين كانت – على النقيض من أختها دارين – تكرهني شخصيًّا وتحارب وجودي بشراسةٍ. كانت تصغرني بسنتَين وتصغر أختها دارين

بثلاثة سنوات، ولطالما وشت بنا لأمّها منذ بدأت تتعلم التكلم. ولا أبالغ عندما أقول أنّها كانت صورةً مصغّرةً عن أمّها، فهي تشبهها إلى حدٍّ بعيد، شكلًا ومضمونًا، حتّى أنّني كنتُ أظن أن بثينة قد أنجبتها وحدها، دون تدخّلٍ من عمّي، فحملت الفتاة صفات أمّها فقط، بينما كنت أشك أن دارين ابنة بثينة البيولوجيّة أساسًا.

لقد حاولتُ كسب ودّ ياسمين بكل الطُّرق الممكنة تلافيًا للمشكلات التي كانت تلحق بي بسببها، والتي أرهقتني في فترةٍ من الفترات تمامًا. بينما كانت دارين شخصًا دافع عنّي حتى اللَّحظة الأخيرة وحاولت ألّا تحطم من خلال ذلك علاقتها بأسرتها، فكانت تحاول إخفاء حبّها لي وتعاطفها معي قدر المستطاع، إلا أن ذلك كان بوجود ياسمين مستحيلًا، فتشرذمت العائلة.

3

أول إجراءٍ قامت به بثينة بعد وفاة جدّي بأسبوعين فقط، هو إزالتها لصورته عندما كان جنديًّا خلال حرب 1967 من غرفة الضيوف. كما أزالت صورته التي تجمعه بجدّتي من غرفة الجلوس. كانا شابّين في الصورة، جدّتي تبدو أكثر طولًا وضخامةً من جدّي، وتبتسم مغتبطةً وتطلّ في قمّة جمالها وألقها، بينما جدّي يظهر ناظرًا إلى آلة التصوير نظرته المعهودة التي لا تظهر أي مشاعر. لم يكن يبدو أثناء صمته لا مسرورًا ولا حزينًا، لا غاضبًا ولا رائقًا. كان ينظر بعينَيه الصغيرتَين وبفمه المزموم دومًا كأنّه لا ينظر إلى شيء. كنت ألحظ ذلك عليه عندما يشاهد نشرة الأخبار التي كانت تبثّ أخبارًا مفزعةً من العالم وأسمع بها كلماتٍ لا أفهمها لكنّها حُفرت في ذهني: "قضية الشرق الأوسط"، "حل الدولتَين"، "السلام العادل"، "أسلحة الدمار الشامل"، "حرب الكونغو"، "الأميرة ديانا"، "أحداث الحادي عشر من سبتمبر"، "غزو العراق..".

كانت بثينة قد باعت أثاث غرفة جدّي لأحد السائقين المتجولين الذين يجوبون الشوارع بحثًا عن الأثاث المستعمل مقابل ثمنٍ زهيد. عندما وصلتُ إلى المنزل كانت الشاحنة تغادر الحي أمام ناظريّ. قرعتُ جرس الشقّة ورحت أتأمل الزخارف الخشبية المنحوتة على الباب. بدأت أتتبع الأجزاء المقشّرة عليه وأحاول حكّها بأظفري بينما أكز على أسناني، قبل أن

تفتح لي ياسمين ثم تركض إلى الداخل. كانت الأم تخرج أكياسًا بلاستيكيّة قد عبّأت فيها ما تبقّى من مقتنيات جدّي وفور رؤيتها لي أمرتني قائلةً: "تعالَ يا ولد وخود كيس الزبالة ع الحاوية". نظرتُ إلى الكيس ثم إليها، فصرخت بي: "أطرش؟ تعال يا ابن الكلب، تحرّك!"، فتقدّمتُ وحملتُ الكيس باكيًا نحو الخارج. أثار بكائي تعجّبي شخصيًّا، كوني لم أبكِ لوفاة أقرب الناس إلى قلبي. لقد كان ذلك الكيس يحوي ماضي "أبو هشام" وسرّه العظيم وحزنه الأكبر الذي كاد النسيان يطوي صفحته لولا أن بثينة لم ترسلني شخصيًّا للتخلّص من الكيس، فعلَتْ ذلك عمدًا لقهري وإلحاق الأذى بقلبي. فتحتُ الكيس بالقرب من حاوية القمامة بينما الأسى يعصف بروحي ودموعي تنهمر على خدَّي الغضَّين. كان في داخله طقم جدي الرمادي وقبّعته الصوفيّة، كما كان الكيس يحوي ثلاث رواياتٍ تبدو قديمةً للغاية: رواية الأم لماكسيم غوركي، العقب الحديديّة لجاك لندن ومزرعة الحيوان لجورج أورويل. كان جدّي قد أخبرني ذات يومٍ أنه امتلك في منزله القديم مكتبةً ضخمةً ضمّت مئات المؤلّفات والروايات، وكان يصله الكثير من الكتب النادرة من خارج البلاد، إلّا أنّه تبرّع بها عند بيع المنزل لأحد متاجر بيع الكتب في دمشق القديمة. كان في الكيس أيضًا أشرطة كاسيت لعبد الحليم حافظ وفيروز والشيخ إمام بالإضافة إلى أدوية جدّي وجهاز قياس السكّر. أعدتُ الكتب، بعد أن تصفحتها للتأكد من أن جدّي لم يخفِ شيئًا بين صفحاتها، والأشرطة إلى الكيس وتابعت النبش فوجدت كرّاستَين باليتَين. الأولى كانت تبدو قديمةً جدًّا وفيها دوّن أبو هشام أحداثًا عايشها حتّى عام 1977، ربما أكثرها إثارةً بالنسبة إليّ كان يومياته المعدودة

في حرب النكسة. أما الثانية فكان قد كتب على صفحتها الأولى اقتباسًا لبورخيس من أربع كلمات: "للزمن الانتصارات، وللإنسان الهزائم" وتحته تاريخ السادس والعشرين من تموز لعام 1981. خبّأتُ الكرّاستين من فوري تحت قميصي مع القبّعة الصوفيّة الرثّة، وأنا أتلفّت حولي بفزع. وددتُ أخذ كل شيءٍ معي، ولكن إن لاحظت بثينة عودتي بالحاجيات مجدّدًا كانت ستقلب الدنيا فوق رأسي بكل تأكيد. تخلّيت إذًا عن معظم حاجيات جدّي لتجنّب المشكلات.

قام جدّي إذًا بكتابة عدّة نصوصٍ قصيرةٍ بعد تلك الحادثة التي غيّرت حياته بالذات. ازداد حبّي له، بل صرت فخورًا به بعد كل ما قرأت، وبعد تعرّفي إلى حياته السابقة التي عاشها مناضلًا حي الضمير. لقد عاد مجدّدًا وكتب ما أراد قوله ثم صمت حتّى يوم وفاته، حين تحرّرت روحه وسبحت أخيرًا في الفضاء الفسيح.

رجعتُ حاملًا القبعة وكرّاستَي المذكرات تحت ثيابي الداخلية، فتحتْ بثينة لي الباب ورمقتني بنظرة اشمئزازٍ قائلةً: "شرّفت أخيرًا؟ أنا قلتلك ترمي الزبالة، وما بعتّك رحلة، وين كنت طول الوقت؟ يظهر إني لازم إرجع ربيك من أول وجديد". في هذه اللحظة خرج عمي من الحمّام حاملًا منشفته ونظر إلينا باستغراب بينما ينشّف أذنيه، فركضت إلى غرفتي وأقفلت خلفي الباب.

لم تكن زوجة عمّي تجهل قيمة المقتنيات التي باعتها بثمنٍ بخس، لكنّها اعتبرت فعلتها تلك انتقامًا من جدّي بعد وفاته، ببيع الحاجيات التي احتفظ بها حتّى عندما تخلّى عن كل شيء تقريبًا. وبعد انتقامها

الرخيص ذاك بدأ فصلٌ جديدٌ من الانتقام عن طريق تحويل حياتي أنا إلى جحيم.

فتحتُ دفاتر جدي وبدأتُ بقراءتها، ولم أفهم في كثيرٍ من المواضع ما أراد جدّي قوله تمامًا. لقد تمَّ اعتقال الرجل في ثمانينيات القرن المنصرم. قد يخّيل للمرء أنه قد مكث في السجن لسنوات، أو لأشهرٍ على أقل تقدير لتتغيّر حياته بهذا الشكل الدرامي. في الحقيقة أنه لم يمكث في المعتقل سوى تسعة أيام. وقد كانت تلك الأيام التسعة كفيلةً بجعله إنسانًا آخر تمامًا. يقول جدي في مذكراته إنه لم يتلقَّ قبل لحظة سجنه صفعةً على وجهه ولا لكمةً على بطنه، لطالما كان مسالمًا يتجنّب المشكلات.

كان شيوعيًّا تقليديًّا، ما دفعه في بادئ الأمر لإبداء نوعٍ من التعاطف مع البعث، رغم التحفّظات التي عرضها من خلال تلك الصفحات والتي لم يكن آخرها الروح الإقصائيّة المتجذّرة في فكر الحزب - ولا سيما أنّ جدّي لم يكن يميل إلى العروبيّة - وعلاقة الدين بالدولة لدى البعث. وقد نوّه مرارًا بأن الحزب قد لا يكون فاسدًا بشكلٍ جوهريٍ بالضرورة، إلّا أنّه استُغل واتّخذ مطيّةً كوسيلةٍ لشرعنة وتسييس السلوك القَبَليّ الخاص بالعصبة الحاكمة، والذي ساد بشكلٍ خاصٍ بعد اعتلاء الأسد الأب لسدّة الحكم في سوريّة.

لم تكن مآخذ جدّي على البعث في البداية سوى مآخذ أيديولوجيّةٍ بحتة، تتعلّق بشكلٍ أساسيٍّ برؤيته الشخصيّة للعالم ولنظام الحكم التي لم يكن يدّعي حتميّة صحّتها، وقد تصالح مع مآخذه تلك وتنازل عنها

في سبيل رخاء البلاد المزعوم، فهو كمثقّفٍ يساريٍّ مطّلعٍ كان يعلم أن اشتراكية البعث مرحليّةٌ وفرعيّة، وليست بناءً راسخًا في أدبيّات الحزب رغم وجودها في شعاره، فالحزب كان يقدّم القوميّة العربيّة على كل شيء، بينما كان جدّي يرى أن العروبيّة ليست إلّا مشكلةً متأصّلة ورؤيةً مغلوطةً وخاصةً بعد تجارب الوحدة الفاشلة، حسب وصفه.

لقد دوّن في كرّاسته الأولى، وهي الأكبر، رؤيته السياسيّة. كتب عن الأمل والخيبة، عن تطلّعاته المستقبليّة وآرائه الفلسفيّة. والواضح أنّه كان يكتب بكل أريحيّةٍ ودونما خوفٍ ولا تردّد. ولكن كان ليفوتني الكثير لو لم أقرأ ما كتب في كرّاسته الثانية. حيث كتب عن مشاعره بعد خروجه من المعتقل الذي قضى فيه أقل من عشرة أيام. إلّا أنّها كانت أيامه السوداء التي اختبر فيها الظلم والبطش بشكلٍ شخصيّ. قد يخيّل للمرء بأنّ جدّي قد اعتُقل لنشاطٍ سياسيّ مناهضٍ للسلطة، وهذا خاطئ. ذنبه كان انتقادًا بسيطًا وكلمةً لم يحسب لها حسابًا قبل النطق بها، فوشى به احد زملاء العمل "الوطنيَين .

تلقّى جدّي في سجنه الكثير من أنواع التعذيب التي كان بعضها عبثيًّا لا يُراد منه سوى التشفّي والإرهاب، وإرضاء الجلّاد لنزعته الساديّة. التقى في السجن بكثيرٍ من الأشخاص، العديد من رفقائه في الفكر ومن يختلفون معه فعلم أن الظلم لن يستثني أحدًا من أبناء مملكة الموت تلك.

خرج من سجنه بعد اليوم الثامن لاعتقاله، يوم الاثنين الموافق للعشرين من تموز عام 1981، بجناحَين مكسورَين، وبقلبٍ محطّم:

"خرجت لأرى الشمس من جديد. شمس البلاد الحزينة. الشمس حزينة. والبلاد حزينة. وأنا حزين. كم أنت تعيس يا وطني، وكم أنا تعيس".

كانت هذه أولى الكلمات التي كتبها في كرّاسته الثانية بعد إطلاق سراحه بستة أيام.

4

استيقظت دارين ذات صباحٍ صيفي وبدأت بالبحث عني برعبٍ فلم تجدني، فبدّلت الفتاة ملابسها وغادرت المنزل، غير آبهةٍ بياسمين التي حذرتها من الخروج وهدّدتها بإخبار أمّها عن خروجها في غيابها دون إذن.

لم تُتعب دارين نفسها كثيرًا قبل أن تجدني جالسًا على مقعدٍ خشبيٍّ في الحديقة المجاورة غارقًا في القراءة. جلستْ بجانبي ولم تنبس ببنت شفة، حتى أغلقتُ الكتاب ونظرت إليها بعد دقيقتَين.

- شفت كابوس بشع، فقلقت عليك - قالت لي بوجهٍ متجهّم.
- شو شفتِ؟
- مو مهم. أنت بخير؟ - نظرت إليّ.
- بخير - أجبتها باقتضاب.
- أكلت اليوم روحي؟
- روحي! - ردّدتُ كلمتها المحبّبة تلك ثم استأنفت: لسا. وأنتِ؟
- مناكل سوا إذا بتحب - قالت لي مبتسمة.
- دارين - ناديتها بحزنٍ بعد صمتٍ مطوّلٍ دون أن أرفع عينَي عن غلاف الرواية: أنتِ بتعرفي أنّه أنا ما عندي بهاد العالم حدا غيرك، صح؟!

- بعرف. وأنا رح أبقى واقفة معك لو مهما صار، بوعدك! – قالت بينما تمسك يدي التي تمسك الرواية، بقوّةٍ وتشدّ عليها.
- عم خاف كتير أخسرك! بشكل مرعب يا دارين!
- لا تخاف! أنا معك.. يا روحي!

بقينا على حالنا ذاك لنصف ساعةٍ تقريبًا لم تترك دارين يدي خلالها لثانيةٍ واحدةٍ ولم تنفكّ تنظر حولها بقلق، قبل أن تتمكّن من إقناعي بالعودة إلى المنزل وتناول طعام الفطور. كانت بثينة في هذا الوقت قد عادَت إلى المنزل واتصلت بصديقات دارين للسؤال عنها. لا أعتقد أنها توقّعت وجودها معي. رأتنا عائدين معًا من الشرفة فاشتعل جنونها كأن ذرّة العقل التي كانت متبقّيةً في رأسها قد نسفتها الرياح. صرخت في وجهَينا وكأنّها قد نست أن دارين هي ابنة عمي وأننا قد كبرنا معًا في المنزل ذاته. ثارت ثائرتها كالممسوسة ولم تترك وصفًا مسيئًا إلّا ورمتني به، ما أثّر فيّ كثيرًا. كنت أقفُ أمامها كالأرنب متلقّيًا سيل الشتائم الذي انهالَ على رأسي.

منذ ذلك اليوم صارت بثينة تحرص على عدم وجود أي تواصل بيني وبين ابنتها الكبرى. حتّى عندما كنّا نجلس على طاولة الطعام كانت بثينة تراقب نظراتنا وتعدّ أنفاسنا وترمقني بين الحين والآخر بطرف عينها وتكزّ على أسنانها، كما أنّها كانت تحرص على وجودي في غرفتي بشكلٍ دائمٍ وعلى إبقاء دارين تحت أنظارها وتحول دون مغادرتنا للمنزل في الوقت ذاته. طبعًا كان دعم ياسمين لأمّها في مساعيها عنصرًا حاسمًا بنجاحها إلى حدٍّ كبير.

ما معنى أن تمنعني زوجة عمي من رؤية ابنتها أو الحديث إليها؟ لم يكن في حسباني أبدًا أن بثينة تحاول منع تقاربٍ عاطفيٍّ بيني وبين ابنتها. للوهلة الأولى بدا لي ذلك تافهًا، فدارين ابنة عمي لا أكثر. كنت أتمناها دومًا لو كانت أختي، أختي الحقيقية من أمّي وأبي، بل كنت أعتقد أحيانًا أنّها كذلك في الواقع، إلّا أن الجميع يخفون ذلك عنا. حتى أنّني فكّرت مرة أن بثينة لا تريد تقاربنا لكيلا يحبّ الأخ أخته التي لا تعرف حقيقة نفسها وتقع الفاحشة.

كان لسلوك بثينة تأثيرٌ عكسيٌّ تمامًا. لطالما كانت دارين تراني كأخٍ لها على اعتبارها لا تملك أخًا ذكرًا، ولكنّها بعد إبعادها عنّي قسرًا كثرت تساؤلاتها عن تصرفات أمّها وبدأت تراني بطريقةٍ أخرى. لقد فتحت بثينة الباب بيديها أمام مشاعر ابنتها وأتاحت لها الانفجار عندما زجرتها قائلةً إنها صارت بالغة، وأن أي تواصلٍ لها معي يعتبر غير جائزٍ شرعًا، رغم أن بثينة لم تكن متديّنةً البتّة.

5

سمعتُ طرق دارين الذي أعرفه جيدًا على باب غرفتي، فقفزتُ بحذرٍ وفتحتُ الباب. نظرتْ الفتاة إليّ بعينَين دامعتَين، أمسكَت يدي وضغطت ورقةً صغيرةً فيها، تصنّعت ابتسامةً مقتضبةً وركضت إلى غرفتها مسرعة. التفتُّ حولي خوفًا من أن تكون بثينة أو ياسمين في الجوار، يبدو أن دارين اختارت وقتًا مناسبًا. لم أفهم شيئًا ممّا جرى، فرحت أقلّب الورقة قبل أن أنتبه إلى أنني مكشوف، لهذا دخلت إلى غرفتي لأختفي فيها من جديد. جلستُ على حافة سريري أتأمل الرسالة المطويّة كثيرًا والتي كانت تعبق برائحة عطرٍ نسائيٍّ فوّاحة. ترددت كثيرًا قبل أن أفتح الرسالة بيدٍ مرتجفة وأقرأ ما كتبته دارين بخط يدها الذي يبدو أنها اعتنت به كثيرًا:

"استيقظت اليوم من النوم إثر ألم حادّ في معدتي، لم تجدِ معه أو تخفف من شدّته الأقراص المسكنة والمشروبات الدافئة. لا أعرف ماذا أفعل؟ إلى من أّتجه؟ هل أصابك ذلك الشعور من قبل؟ أن تشعر أن العالم أغلق أبوابه في وجهك مرة واحدة؟ هذا بالضبط ما شعرت به، لذا جلست على حافة سريري وشرعت أبكي، لكنني استحضرت عذوبة وجهك ففكرت أن أكتب لك هذه الرسالة..

هذه الأيام قد لا تكون الأصعب عليّ في حياتي، لكنها من أسوأ الفترات من حيث الضغط والتشديد، أشعر أن كل شيء في هذا المنزل

وُجد ليزيد الضغط عليّ وليستنزف ما تبقى من قلبي، لأول مرة أشعر أن الموضوع كبيرٌ وأن الحياة أصبحت صعبة جدًّا وأنني عاجزة عن فعل شيء أريده بحرية أو أحقق رغبةً تتعلق بك. أنا حقًّا لا أتمنى لأحد أن يتعرض في حياته لحرمانٍ يشبه حرماني منك، إنه مريع!

لن أشكو كثيرًا، لكن هل أخبرتُك أنك عزيزٌ على قلبي، أنك وجع يسكن جوفي، أنني أحب تعابير وجهك، وتقطيب حاجبيك، وضحكتك التّي لا أراها، وأن عينيّ لا تشعّان فرحًا إلا عند نطق اسمك؟ قد لا تلاحظ المرات التي أنظر فيها إلى الباب بشكلٍ مستمر منتظرة ظهورك فجأة، وكأننا على موعد ما..

تحبني؟ لا تحبني؟ أنام كل ليلة على تساؤلاتي، وأغمض عيني دون أن أعرف الإجابة، أو ربما أنني أعرفها. بقيَ أن تعلم أنني أحبك وأرغب بالاعتراف بهذا بين ذراعيك في ليلة هادئة أكون فيها لمرة وحيدة منذ مدة طويلة؛ لستُ خائفة، وتكفيني الآن قبلة واحدة لأنام ساعات طويلة، حيث القمر يعدني ألا تحذفها الرقابة في لقائنا القادم.

دارين".

أعدت طيّ الورقة كما كانت وقد لفّني حزنٌ عميقٌ فتناولت قبّعة جدّي من تحت الوسادة ورحت أتنفّسُ رائحتها بعمق. أعدتُ بعد ذلك قراءة رسالة دارين مرّتين واختفت خلال ذلك صورة جدّي من رأسي ورائحة قبعته من أنفي لتحل محلهما صورة دارين ورائحة رسالتها. لقد كانت دارين دومًا مثالًا للجمال في عائلة أمّها، ما جعلها موضع غيرةِ معظم الفتيات اللاتي في مثل سنّها. أما أنا فلا أبالغ إن قلت أن دارين

بشعرها البني الفاتح وخدّيها الورديين أجمل إنسان رأته عيناي على الإطلاق. إلا أن عينيها كانتا العلامة الفارقة في جمالها بنظري والسمة الأكثر رفعةً وتميزًا فيها. عيناها العسليتان والواسعتان كانتا ساحرتين بشكلٍ غريب، يزيدهما جمالًا الرموش الطويلة جدًّا. أما أنفها فقد كان مستقيمًا متوسط الحجم، أشبه بأنف يوناني، يقبع في منتصف وجهها، في أكثر مكانٍ يناسبه في العالم، ويعطي وجهها المستدير جمالًا مضاعفًا. كما كانت تتمتع بطولٍ فارعٍ وجسدٍ مكتنزٍ قلّما امتلكتهما فتاة من قريناتها. كانت دائمًا ما تفرد شعرها الطويل وتفرّقه إلى قسمين صانعةً بذلك شقًّا في منتصف رأسها. تترك شعرها ينساب على كتفيها كشلالَين فاتنين يسقطان فوق بحيرةٍ تحيطها مروج من أشجار السرو وأزهار الليلك. لقد تكوّنت في رأسي مقاييس الجمال حسب جمال دارين، بإرادتي أو دونها. كأن صورتها قد طُبعت في مخيّلتي – منذ كنتُ أسكنُ عالم المُثُل قبل سقوطي إلى عالم البشر – كأجمل إنسانٍ خلقه الله.

شعرتُ حينها برغبةٍ كبيرةٍ بعناق دارين مع أن مشاعري تجاهها كانت مختلطة جدًّا. شعرت برغبة بعناقها فقط، ثم ما لبثت أن داهمتني رغبة كبيرة بمغادرة منزل عمي. دارين! أردتُ ليلتها أن أقول لها إنّني لسببٍ ما أجهله أرغب أن تأتي إلى غرفتي وتنام بجانبي. بدت لي تلك الفكرة جذّابةً إلى حدٍّ لا يوصف! نظرت حولي وأحسست بكرهي للمكان، فما كان مني إلا أن عانقت قبّعة جدّي، شعرتُ بشوقي الحارق إليه، تمنّيت لو كان حيًا، ولكنّني عجزت مجدّدًا عن البكاء، رغم أنني أردته بقوة، وغفوت.

لم أتجاوز حينها السابعة عشرة بينما كانت دارين في الثامنة عشرة من عمرها، إلا أنها كانت امرأةً بكل معنى الكلمة، شكلًا ومضمونًا، كانت ناضجةً وواعية، بينما أنا، كنت لا أزال طفلًا دون طفولة.

6

مرت أسابيع ولم تتلقَّ دارين منّي أي ردٍّ أو تعليقٍ على رسالتها، ولكنّها رغم ذلك كانت لا تبدو منزعجة، فهي تبادرني بابتسامتها الجميلة عندما تراني صدفة.

كنت في تلك الفترة قد صرت أضحوكة في المدرسة، كون الجميع باتوا يعرفون قصة حذائي المهترئ الذي صار أشهر من حذاء الطنبوري، وكان بعض الصبية من أبناء العائلات الأرستقراطية يتنمّرون عليّ بوصفي بـ "صاحب الحذاء الجائع". كنت ربما لأسأل عمّي إعطائي ثمن حذاءٍ جديدٍ ولكنني كنت بالكاد أراه، فقد كان منشغلًا بالعمل.

في أحد الأيام، بعد انتهاء الدوام المدرسي، كانت سارة صديقة دارين تنتظرني في الطريق، حاملةً معها أحد الدفاتر المدرسيّة الذي طلبته منها بالإضافة إلى مبلغ خمسمئة ليرة أرسلتها دارين لي لأشتري حذاءً جديدًا. استغربت كثيرًا كون المبلغ يعتبر كبيرًا مقارنةً بمصروف دارين وقد أجهدت نفسها في جمعه بلا شك. أخذتُ النقود وأكّدت لسارة أن عليها أن تخبر دارين بأنني سأقبل المبلغ على أساس أنه دين سأردّه إليها في أقرب فرصةٍ، وتوجّهت من فوري إلى متجر العم الياس لشراء حذاءٍ جديد.

كان العم الياس - وهو الابن الأكبر لـ "أبو الياس" صديق جدّي - رجلًا كريمًا، وادعًا ومثقفًا ولا أدري ما الذي دفعه لافتتاح متجر أحذيةٍ

بالتحديد. صحيح أنّه لم يكمل دراسة الهندسة الميكانيكية حتى النهاية ولكنه كان بارعًا جدًّا في هذا المجال وكان بإمكانه العمل حيث شاء، ولكنه كما يقول يكره الميكانيك، ولا أعلم تمامًا ما الذي دفعه إلى ترك دراسته التي كانت موفّقةً جدًّا في الاتحاد السوفيتي سابقًا والعودة بشكلٍ مفاجئٍ إلى سوريّة. كان العم الياس متوسّط الطول وذا كرشٍ صغير، كما كان يبدو لطيفًا جدًّا ومحبّبًا بوجهه الدائري الحليق وشعره الأسود المصبوغ الممشط من اليمين إلى اليسار. كان المتجر يعبق برائحة الجلد بشكلٍ يثير الغثيان وكانت الأحذية مرتّبةً حسب الجنس أو العمر. على اليمين كانت أحذية الرجال، وعلى اليسار أحذية الأطفال، بينما تمتّد في وسط المتجر جزيرةٌ وُضعت عليها الأحذية النسائيّة بشكلٍ مرتّبٍ بعناية.

كما توقّعت، لم يقبل العم الياس تقاضي ثمن الحذاء الذي كان يبلغ مئتي ليرة، بل ودعاني لشرب الشاي معه ثم عرض عليّ أن أزوره دومًا بعد انتهائي من الدوام المدرسي للدراسة والقراءة في مكتب متجره بهدوء بعد أن سألني عن حالي وحال عمّي هشام، كما سمح لي بطلب الكتب التي أريدها من مكتبته الخاصة وهو سيحضرها لي من المنزل. لقد أصابتني ريبةٌ كبيرةٌ من عرضه ذاك، وسألتُ نفسي عشرات المرات حينها عن السبب الذي يدفعه إلى تقديم عرضٍ كهذا لي!

- شكرًا عمّو على هذا العرض.
- أنا بدّي تعرف إنّي موجود بأي وقت! أنت ابن الغالي!
- أنت، بتعرف بابا منيح؟

- أبوك كان صاحبي وأخي!

غمرت قلبي طمأنينةٌ عجيبةٌ ربّما لم أشعر بها قط اتجاه إنسانٍ آخرٍ بعد جدّي. كان هذا العرض فرصة نجاةٍ لا تعوّض بالنسبة إليّ، فأنا بهذا أستطيع قضاء أكبر وقتٍ ممكنٍ خارج منزل عمي الذي كان هو الآخر صديقًا قديمًا للعم الياس، وكنت واثقًا من أنّه لن يمانع بقائي عنده في المتجر. قبلت عرضه وصرتُ أتردد على متجره بكثرة. كنت أتعامل بحذرٍ معه في البداية وأحرص على عدم استخدام حمّام المتجر أبدًا، وهكذا كنتُ أركض إلى الحمّام كل يومٍ عند عودتي إلى منزل عمّي.

توطّدت ثقتي مع الوقت بالعم الياس، بل صرتُ أحبّه وأحترمه للغاية. رحت أجلس في مكتبه بالساعات، منغمسًا في القراءة. كان وجودي هناك كوجود الطاولة والأريكة والسجادة. لا يصدر مني صوتٌ ولا حركة. كان المكتبُ يطل على الطريق، بواجهةٍ زجاجيةٍ كبيرةٍ وعازلةٍ للصوت، على اعتبار أن العم الياس يحبّذ القراءة والنوم أحيانًا بعد الظهر في المكتب، حيث الزبائن في ذلك الوقت نادرون. غالبًا ما كنتُ أغادر المتجر في هذا الوقت كي لا أزعجه ولكنه كان يصر أنه لا ينزعج من وجودي، وقد كان إلحاحه في البداية يثير مخاوفي بشكلٍ كبيرٍ طبعًا.

لم أكد أصرف الخمسمئة ليرة حتى أرسلت لي دارين بعد أيامٍ ثلاثمائة ليرة جديدة، فعرفت أن دارين على الأغلب تسرقُ النقود من المنزل، وأثار استيائي هذا الأمر.

مضت أيامٌ طويلة وأنا أرى دارين في المناسبات وبحضور العائلة. لم يتسنَّ لي الحديث إليها مرةً واحدة. لم أبذل أي جهدٍ في سبيل ذلك،

وهـي أيضًـا كـذلك. كنـت أعلـم أنهـا تنتظـر بـدورها ردّي علـى الرسـالة، شـفهيًا أو كتابيًـا. لقـد كانـت عيناهـا تخبرانني بـذلك كلّمـا التقتـا بعينـيّ، فأشيح بنظري عنها خجلًا منها ومن نفسي. لقد أردت في الحقيقة الردّ على رسالتها ولكنني لم أعرف ماذا عليّ أن أكتب. عجزت تمامًا عن تحريـك القلـم علـى الورقـة وخلـق الكلمـات وربّمـا مـردّ هـذا لتجنّبـي الكتابـة لسـنوات، أو لارتبـاك مشـاعري تجـاه داريـن، حيـث كنـتُ أقمـعُ مشاعر الحب والشهوة تجاهها بكل ما أوتيتُ من قوّة، كونها ابنة عمّي ولا يمكن لي تصوّر أي علاقةٍ عاطفيّةٍ تربطني بها.

كان سبب انقطاعي عـن الكتابـة هـو الخـوف مـن كـل مـا يتعلّـق بهـا والذي رافقني لسنوات. مـن المعـروف اليـوم أن الكتابـة في المجتمعـات "الطبيعيّـة" تعتـبر وسـيلةً للتعبيـر عـن المخـاوف والـتخلّص منهـا، بـل تستعمل كعلاجٍ أحيانًـا. أمـا في حالـة مجتمعنـا المتخلّـف، فالكتابـة بحـدّ ذاتها شيء يدعو للخوف ويستوجب العلاج والتدخّل. وهذا ما قيل لـي، إن عليّ التوقف عن الكتابة، بهذه البساطة.

أحببت الكتابة منـذ كنـت يافعًـا. كتبـت ذات مـرّةٍ قصـةً قصيرةً بعـد قـراءتي لمجموعـة غسـان كنفـاني "أرض البرتقـال الحـزين" وإعجـابي بالقصة القصـيرة كلـونٍ فنـي، وبأسـلوب كنفـاني بشـكلٍ خـاص، فصـرت أحاول تقليده.

كنت حينها في الصف الثامن الإعدادي. توجّهـت بقصّـتي القصـيرة تلك بفخرٍ إلى مدرّس اللغـة الإنكليزيـة، وقـد اخترتـه كـوني كنـت أشـعر بحبّه لي ولأنّه كان يعامل التلاميـذ بلطـف. الأسـتاذ جمـال كـان شـابًّا في

مقتبل العمر، لطيفٌ ومرح، ولهذا أحبَّهُ معظم الأولاد الذين يتم قمعهم من أغلب المدرّسين الآخرين، بالإضافة إلى أنّه كان مدرّسنا في الصف السابع أيضًا، أي أنّه وطّد علاقةً جيّدةً معنا كتلاميذ. أعطيت نصّي الصغير ذاك للمدرّس الشاب الذي قَبل طلبي بصدرٍ رحب ووعدني بقراءته في أسرع وقتٍ ممكن.

انتظرت بفارغ الصبر لأعرف رأي المدرّس بقصّتي. كنت شبه متأكدٍ أنّها ستنال إعجابه، فهي تتحدّث عن شبّانٍ أرادو التطوع لإيصال مساعداتٍ لسكّان قطاع غزّة المحاصر، وكان حينها الحديث عن قطاع غزّة أمرًا شائعًا والتعاطف العفوي مع السكّان يستقطب الكبير والصغير.

استدعاني الأستاذ بعد عدة أيامٍ إلى خارج الصف قبل بدء الدرس. وقفت أمامه بقلبٍ ممتلئ بالأمل وعينين خجلتين. كنت قد هيَّأت نفسي لتلقي ثناء الأستاذ ولسماع ملاحظاته لتحسين القصة. مدّ الأستاذ الأوراق إليّ قائلًا: "أنت كاتب جيد جدًّا ولكنك على ما يبدو ما بتعرف خطورة هي الأمور. يفضّل ما تكتب أشياء متل هي وإن كتبت فأول حدا لازم يقراه هنّن أهلك، حتى لا تتسبّب لأبوك بمشاكل". ربّت الأستاذ على كتفي واستطرد: "وهلأ، ع الدرس"، ودخل غرفة الصف تاركًا إياي متسمّرًا في مكاني. شعرت بدوارٍ غريب وبجفافٍ في فمي. نعم، لقد كدت أتسبّب لوالدَيّ بالمتاعب! تمنيتُ لو كانا حيّين ليتحمّلا المشكلات بسببي، أيًّا كانت. لأجد على الأقل من أعانقه مساءً وأحكي له كل القصص التي في رأسي، وكل الحكايات التي اخترعتها على وسادة وحدتي. تمنّيت لو أن الرحيل لم يسبق نضجي لأتذكّر على الأقل

ابتساماتهما. لو أن يد الموت لم تسارع لخطفهما وتركي مشتّتًا هائمًا على وجهي، أوجّه أشرعتي صوب برّ أمانٍ فلا أصل إلى أي ساحل. ها قد زاد خوفي من العالم درجة. زاد خوفي من الناس ومن كشف نفسي وأفكاري لهم. لربما أراد ذلك الأستاذ حمايتي من أذىً قد يلحق بي وبأسرتي المفترضة، ولكنّه خلال ذلك، غرسَ خنجر رعبٍ جديد في صدر مسعاي للتعبير عن ذاتي وقطع حبلًا آخر من الحبال البالية التي تربطني بمجتمعي. لحسن الحظ أن قصتي قد حطّت رحالها بين يديّ الأستاذ الطيّب هذا وليس بين يديّ أحد المدرّسين المتملّقين أتباع السلطة، وهم كثر.

بعد عدة أيامٍ تردّدت فيها على متجر العم الياس، عرض عليّ الأخير العمل لديه في المتجر بعد دوامي الصباحي في المدرسة، وبهذا يكون بإمكانه الذهاب إلى المنزل في فترة بعد الظهر دون أن يغلق المتجر. قبلت عرضه بسرور، هكذا أستطيع إعادة ما أعطتني إياه دارين في الفترة الماضية ولن أحتاج المساعدة بعدها. كما أن ثقتي بالرجل كانت قد بلغت حدًّا طيّبًا.

كانت طريقة تعاطي العم الياس مع الزبونات السيّدات مثيرةً للشفقة. كان من الواضح كم هو ضعيفٌ أمامهن، حيث كان بإمكان أي امرأةٍ أخذ الحذاء الذي تحب بالسعر الذي تريد بعد قليلٍ من المفاصلة، وكان يوافق هو على مضضٍ حتّى وإن كان البيع بخسارة.

لم يكن العم الياس متطلبًا كثيرًا في المتجر، كل ما كان عليّ فعله في البداية هو تنبيهه لقدوم زبونٍ أو زبونةٍ ما. ثم بدأ بتعليمي "أصول التجارة" على حدّ وصفه، وقال لي بغرور بينما يمسح شعره بيده من

اليمين إلى اليسار بزهو: "اسمع يا ابني، النسوان هون بحبّوا المفاصلة، لكن نحن بالنهاية ما منبيع إلا بالسعر اللّي بيناسبنا، حتى ولو طلعت الزبونة بدون ما تشتري". نظرت إليه بتردّدٍ وعيناي تقولان: "ولكن معظم الزبونات يشترين بالسعر الذي يردنه، لا الذي تريده أنت!"، فراحَ يعدّل ياقة قميصه وقام بتغيير الموضوع.

رحّب عمي هشام بعملي في متجر الأحذية، وكان يأتي في البداية على فتراتٍ متباعدة لزيارتي هناك - رغم أنّنا كنّا نسكن المنزل ذاته -. كنت آتي من المدرسة مباشرةً إلى المتجر، أبدّل ملابسي هناك، حيث وضعت بعض الثياب في المستودع، ثم أبدأ بالقراءة والدراسة، فالسوق يكون في فترة بعد الظهيرة شبه فارغٍ من الزبائن.

تقاضيت في بادئ الأمر من العم الياس ألف ليرةٍ أسبوعيًا. كان هذا الطبع كرمًا كبيرًا منه ما دفعني للعمل باجتهادٍ أكبر. لم أرد أن أشعر أن راتبي هذا عبارة عن صدقةٍ لطفلٍ يتيم، بل أردت أن أشعر أنّه ثمرة تعبي وجهدي. كان العم الياس بالإضافة إلى ذلك يأتي لي بالطعام كل يومٍ من منزله ويتناوله معي أحيانًا، لكن طبعه في ما يخص الطعام كان يزعجني. كان يأتي لي بكميةٍ كبيرةٍ من الطعام ولا يسمح لي بترك شيءٍ منها، وإذا ما قلت له أنّني شبعت كان يقول لي: "لازم تكمّل أكلك وما تترك شيء، رح ساعدك، يالله" ويأكل لقمةً واحدةً ويفتح حديثًا ما معي لإلهائي ويرجع إلى الوراء.

صار العم الياس تدريجيًا يعتمد عليّ في كل ما يخص المتجر. كنت أشعر أنّه كان يتهرّب من الزبونات بقذفهن عليّ، بينما هنّ يردن منه

هو أن يبيعهنّ. أمّا أنا بدوري فقد كنت حازمًا معهن وتعاملت دومًا على أساس أن البضائع أمانةٌ لدي وأن لا حقّ لي في البيع إلّا بالسعر المسجّل. صحيحٌ أن الكثير من الزبونات كنّ يغادرن المتجر دون شراء، ولكن أرباح المتجر قد زادت بشكلٍ ملحوظ. وهكذا بات العم الياس يقضي معظم وقته في مكتبه يقرأ أو يتفرج عليّ من بعيدٍ بينما أبيع.

بعد عدّة أشهرٍ على بدء عملي في المتجر بدأت دارين دراستها الجامعية وبهذا تحرّرت بشكلٍ كبيرٍ من سطوة أمّها ومن رقابة ياسمين. لقد حقّقت حلمها بالالتحاق بكلية الطب البشري في جامعة دمشق وصارت منذ ذلك الحين تتردّد إلى المتجر بشكل دائمٍ لرؤيتي، إلا أن أحاديثنا كانت تقتصر على العموميات رغم تلميحها الدائم لي بمشاعرها تجاهي. وطبعًا، لم تخفَ حقيقة مشاعر دارين على العم الياس، فقال لي ذات مرة: "إذا حدا حبّك، فأنت عندك نعمة غيرك بيتمناها. انتبه على دارين منيح".

7

مع اقتراب امتحانات الشهادة الثانوية أخبرت العم الياس برغبتي في ترك العمل - الأمر الذي لم يكن سهلًا عليّ أبدًا - لتكثيف دراستي واستثمار وقتي في التحضير للامتحانات بشكلٍ أفضل. لم يستطع العم الياس إخفاء حزنه لسماعه ذلك، ولكنّه ابتسم وتمنّى لي التوفيق، كما دعاني إلى زيارته في أي وقت وأخبرني بأنه يرحّب بعودتي إلى العمل بعد الامتحانات أو متى أردت ذلك: "الحياة بهذا البلد مو سهلة. انتبه لنفسك منيح وأنا رح كون معك بكل وقت بتحتاجني فيه" قال لي باغتمامٍ شديد. لقد كنت في الحقيقة قد وفّرت مبلغًا ممتازًا من المال من خلال عملي لدى العم الياس، فراتبي كان جيدًا بالإضافة إلى حصولي على مبالغ أكبر قبل الأعياد الرسميّة والدينيّة حيث كنت أعمل ساعاتٍ إضافيّةٍ ولم أكن أعلم أين أصرف تلك النقود.

لكي أتجنّب الدراسة في المنزل، قمتُ بالتسجيل في معهدٍ خاصٍ للتحضير للاختبارات الأهم والأصعب في حياة كل تلميذٍ سوري. كنت أقضي كل يومي هناك في الدراسة. كان ذلك المعهد مكانًا رائعًا بمعنى الكلمة، فهو بالمقارنة بمدرستي نظيفٌ ومرتبٌ للغاية، والأهم من ذلك أنه كان دافئًا جدًّا، وهنا أعني الدفء الحقيقي، على اعتبار أنّنا كنّا مضطرّين لمقاساة برد الشتاء في المدرسة.

أوّل ما تعلّمته في ذلك المعهد كان التدخين. كنت أشاهد التلاميذ في الاستراحات يخرجون إلى الشارع ليدخّنوا مختبئين عن أعين المدرّسين وموظفي المعهد في الشوارع الفرعيّة المجاورة أو خلف السيارات. وهكذا صرتُ أشتري علبة السجائر وأخبّئها طوال الوقت تحت ثيابي، كما كنتُ أقوم بذلك بطريقةٍ مثيرةٍ للضحك، فقد كنتُ أحاول جاهدًا أن أبدو كالعم الياس عندما يدخّن، ولكنّني ربما لم أكن أعلم كم أشبه عمّي هشام. كانت تلك شهادة دارين في وقتٍ لاحق.

معظم التلاميذ في المعهد كانوا من أبناء عائلاتٍ دمشقيّةٍ أرستقراطيّة. رغم عدم رغبتي بالاندماج بأولئك التلاميذ المتعجرفين إلا أنّني كنت أشعر بالراحة في ذلك المعهد. على الأقل لم أكن هناك مضطرًّا أن أخشى عصا مدرّس مادة التربية العسكريّة الذي يتربّص بنا في المدرسة. تلك المادة كان قد تم إلغاؤها في الحقيقة قبل سنوات وكان مدرّسوها السابقون لا يفعلون أي شيءٍ سوى إرهاب التلاميذ وضربهم بأسلوبٍ يشبه الانتقام، وكأن الأولاد هم من سلبوهم عملهم ومكانتهم الاجتماعيّة البائدة. رغم إلغاء النظام العسكري في المدارس الرسميّة "شكليًّا"، إلا أنه لم يتم تسريح هؤلاء المدرّسين، أشباه الضبّاط، والسبب في ذلك أنّهم كانوا جميعًا بعثيّين قدامى قد تمَّ تعيينهم أساسًا بالواسطة أو الرشوة. لربما سلبهم النظام "المدني" الجديد المزعوم شغلهم ولكنّه لم يسلبهم رواتبهم، فهم أشباه عاطلين عن العمل يتقاضون معاشاتهم مقابل لا شيء، كما لم يسلبهم النظام الجديد بطشهم وعصاهم، بل صقلها، فصار ضرب التلاميذ وظيفةَ هؤلاء

المدرّسين ووسيلةً لتسلية أنفسهم وإفراغ غضبهم.

أثناء حضوري ذات يومٍ أحد دروس اللغة العربية في المعهد، تلقّيت اتصالًا من دارين فخرجت للردّ عليها، فهي لم تكن تتصل بي حينها بكثرة، كونها تعرفُ مدى انشغالي بالدراسة:

- مرحبا آدم.. كيفك؟ عم تدرس منيح؟
- كل شي تمام، كيفك أنتِ؟
- أنا بخير، اشتقتلّك كتير.
- أنا كمان مشتقلك..

صمتت دارين لبرهة بعد ردّي البارد، ثم تابعت:

- شكرًا عفكرة! بدي أسألك، بتعرف ليش محل عمو الياس مسكّر؟ هو مريض؟
- ما بعرف. المحل مسكّر؟
- إي. رحت قبل كم يوم ع السوق فلقيت المحل مسكّر، واليوم كمان.
- طيّب. رح أتصل فيه واتطمن عنه.

أصابني للحظةٍ رعبٌ كبير وقلقت على الرجل، كما شعرت بتأنيب الضمير، فأنا لم أزره منذ أسبوعَين. "كيف تنسى العم الياس يا هذا؟ ألا تملك ضميرًا؟" قلت في نفسي، "هل يكون قد أصابه مكروهٌ ما؟ أيعقل أن يتركني هو الآخر؟ لا! أرجوك يا الله.. لا تدع الياس يتركني، أرجوك يا رب". كنت أبكي خلال سيري وأشعر بقشعريرةٍ تسري في كل مسامات جسدي. ربما كانت تلك هي المرّة الأولى التي أطلب فيها من

الله شيئًا، رغم جهلي التام به. ربما كان خوفي غير مبرّرٍ، ولكنّ الرعب من خسارة من أحب، لا يفارقني حتّى اليوم، وقد صار مع الأيام أكثر شرعيّة، بعد أن خسرت كثيرًا.

فضّلت الذهاب إلى منزله على الاتصال به. كان العم الياس شخصًا وحيدًا نسبيًا، فهو لم يتزوج، ويقال إنّه أحب فتاةً خلال دراسته في الاتحاد السوفيتي وأراد الارتباط بها، ولكنّه لم يفعل لأسبابٍ لا أعرفها ولا أظن أنّه أخبر الكثيرين عنها. كان يتحوّل فجأةً إلى شخصٍ غير ثرثارٍ ويمتقع وجهه عند ذكر فترة شبابه في سان بطرسبرغ. يعيش وأخته التي تكبره بالعمر، الخالة ميساء، والعم أبو الياس - صاحب جدّي - الذي بات منذ زمنٍ قصيرٍ عاجزًا عن الحركة تمامًا، في شقةٍ صغيرةٍ وسط حيٍّ دمشقيٍّ شعبيٍّ.

قرعت الباب، ففتحه العم الياس وسمح لي بالدخول وقد ابتسم ابتسامةً عكست سروره لدى رؤيتي. كان يرتدي بيجامةً كحليّة اللون، شعره غير مهذّبٍ ولحيته ظاهرة، كما أن الشيب بات واضحًا في رأسه ما يشي بأنّه لم يصبغ شعره منذ مدّة. جلست على الأريكة في غرفة الجلوس بينما هو ذهب لتحضير القهوة.

كانت غرفة الجلوس تلك كلاسيكيّةً ورتيبةً بشكلٍ يثير الضجر. أريكتان كبيرتان لونهما خمري، على الأريكة المجاورة لي كانت رواية آنا كارنينا لتولستوي. كما كان فوق صُوانٍ خشبيٍ قديم تلفازٌ أشك أن أحدًا قد شغّله منذ سنوات، مغطىً بقطعة قماشٍ حمراء. تتوسّط الغرفة طاولةٌ صغيرةٌ تمَّ كسوها هي الأخرى بملاءةٍ حمراء تتدلّى إلى الأسفل

وتكـاد تلامـس الأرض المفروشـة بسـجادةٍ عجميّـةٍ مزخرفـةٍ بـالأحمر والأسـود والأبـيض. علـى الحـائط فـوق الأريكـة الثانيـة صـورةٌ لمـريم العذراء، وصورةٌ للعم "أبـو اليـاس" تتوسـط الحـائط المقابـل لـي، تمامًـا فوق التلفاز. النوافـذ خشـبيّة بيضـاء تبـدو قديمـةً جـدًّا والجـدران مغطّـاةٌ بورق جدرانٍ تقليديٍّ مزركش.

ملأت رائحة البُنّ والهال المنزلَ قبل أن يجيء العم الياس بـالقهوة واضـعًا إيّاهـا أمـامي علـى الطاولـة، حمـل الروايـة ورماهـا أمـامي أيضًـا وسألني بينما يجلس بهدوء:

- قرأت رواية تولستوي؟
- إي، قريتها السنة الماضية بالمحل، نسيت؟
- إي، أنت قرأت كتير. عجبتك الرواية؟
- الكل بيقول عنها أنها رواية رائعة، بس أنا بصراحة ما حبيتها.
- حقّك. بس برأيي الشخصي هي الرواية رائعة عنجد.

نظرتُ إلى الرواية ثم إلى العم اليـاس الـذي لـم يكـن يبـدو مرتاحًـا أبدًا وقلت له:

- ما قدرت أفهـم آنا وما قدرت أحكم عليها، وما فهمـت موقـف زوجها.

ابتسم العم الياس ومدّ إليّ فنجان القهوة قائلًا:

- شـو جابـك؟ امتحاناتـك بعـد كـم يـوم ولازم هـلأ تستغل كـل دقيقة من وقتك. بـدّي شـوفك محـامي نـاجح، ومـين بيعـرف، يمكن شوفك شي يوم قاضي.

- بالحقيقة أنا بدّي اسألك نفس السؤال يا عمي، شو عم تعمل أنت هون؟

ضحك العم الياس بصوت مرتفع بينما كان يغمض عينَيه بقوة:

- هذا بيتي حبيبي، عم تسألني شو عم أعمل ببيتي؟

ابتسمت بدوري وتابعت:

- قصدي ليش مانك بالشغل؟ وليش المحل مسكّر من كم يوم؟
- إي. أنا تعبان شوي ومريض.

كنت أعرف تمام المعرفة أنه يكذب. ولكن ما باله؟ هل اعتاد وجودي في المتجر؟ لربما كان معتمدًا عليّ لدرجةٍ لم يستطع معها مواصلة العمل بعد تركي له. راح ضميري يؤنبني. ولماذا كانت رواية آنا كارنينا على الأريكة رغم أنّه كان قد قرأها وحكى لي عنها في السابق؟ كلّها أسئلة كنت أود أن أطرحها عليه:

- ما رح ترجع تفتح المحل يا عم؟ - سألته.
- رح إرجع يا ابني، ولكن مو هلأ. أنا بحاجة شوية وقت مع حالي. ووالدي تعبان شوي وبحاجتنا نكون جنبو.
- إذا بدّك يا عمي أنا إرجع ع المحل وأدرس هنيك... - لم يدعني أكمل جملتي حتّى، فقاطعني قائلًا:
- أنت هلأ لازم تدرس منيح وبس. لا تقلق تجاه أي شي تاني. ما بدّك تسلم على جدّك؟ - ارتعد بدني لسماع الجملة، فاستطرد مبتسمًا بلطف:
- جدّك أبو الياس مشتقلك وبيفرح بشوفتك!

اتصلت بعد مغادرتي منزل العم الياس بدارين واتفقنا أن نلتقي في الجامعة قبل عودتها إلى المنزل.

التقينا. رحّبت بي ترحيبًا باردًا، ثم توجّهنا سوية إلى مقهىً قرب الجامعة.

- كيفه؟ هو بخير؟ - سألتني دارين كأنها تعرف شيئًا.
- بخير. ما قدرت أعرف اللي زاعجه للأسف. بس واضح إنّو مانه مرتاح.
- تركك للشغل عنده أثّر فيه أكيد. لا تتركه، هو بيحبّك كتير... - صمتت دارين ثم استأنفت بصوتٍ أقل حدّة: مو بس هو على فكرة!

قالت ذلك مبتسمةً بخجل بلهجةٍ لا تخلو من العتاب بينما تجول نظراتها في المحيط تحت تأثير الخجل، وتابعت:

- أنا بحترم قرارك بترك الشغل بهالفترة طبعًا وأنا شجّعتك على هذا الشي لأني شفتك اندمجت بالشغل كتير. خفت بصراحة تفكر تترك المدرسة وتتفرّغ للشغل بالمحل، هذا رح يكون جنون، بس أنت متل ما بعرفك دائمًا، عاقل وفهمان، والأهم، إنّك ما بتخيّب ظني فيك أبدًا.
- رح أزوره أكيد كل كم يوم - قلت لها.
- وأنت منيح يا روحي؟ أنا اشتقتلك كتير. المعهد منيح؟
- بخير. كل شي تمام. وأنتِ؟ كيف الجامعة؟
- منيحة كتير.

أجابتني وقد علت وجهها ملامح غريبة وكأن ردّي قد أحزنها، فاستطردت قائلة:

- لازم تنجح. أنت بتعرف هذا الشي منيح، صح؟ الفشل ما بيلبق لك ولا بيلبق بصورتك عندي أبدًا. أنت خلقت لتنجح. بجوز كلامي قاسي بوضع متل وضعك، بس حطّ هذا براسك وفكر فيه منيح. إنجح كرمالي!
- لا تخافي، رح يكون كل شي متل ما بتحبيه.

عدّلت دارين نظارتها وزمّت شفتيها بابتسامتها اللطيفة المعهودة بينما كانت تمد يدها إلى يدي وتضعها فوقها، فما كان منّي إلا أن طفقتُ أداعب رؤوس أصابعها ثم شددّت عليها بقوّة فزمّت دارين شفتيها أكثر، قبل أن تفلت منها ابتسامةٌ عريضةٌ لتظهر أسنانها لامعة. صغرت عيناها من الابتسامة، تانك العينان اللتان تسعان عالمًا كاملًا.

عرضت عليّ دارين العودة معها إلى المنزل فاعتذرت بحجّة أنّني أريد الذهاب إلى المعهد لأسأل الطلاب عمّا فاتني من دروسٍ في ذلك اليوم. اقترحت دارين مرافقتي إلّا أنني رفضت قائلًا:

- لأ، ما في داعي تتعبي حالك دارين. أنتِ ارجعي ع البيت.
- طيب، إذا كانت هي رغبتك فبرجع ع البيت لوحدي، لا تتأخر أنت على كل حال وبلّغ سلامي لأصدقائك، وصديقاتك بالمعهد كمان! - قالت بغضب، بينما ظهرت على وجهها ابتسامة استهزاءٍ واضحة. لم تكن تعرف دارين أنها قد جرحتني بكلماتها تلك، فأنا لا أملك أصدقاء ولا صديقات في

المعهد ولا أملك حتى من يمكنني سؤاله عمّا فاتني. أم أنها كانت تغار عليّ؟

لم أرد بكل الأحوال العودة مع دارين إلى منزل أو حتى مرافقتها في الطريق. كان شبح بثينة يلاحقني في كل لحظةٍ، وبالأخصّ عندما يكون الأمر متعلّقًا بدارين أو بتواصلي معها، كما أن الوقت قد غيّرَ ياسمين للأسوأ، فقد زاد كرهها لأختها وصارت الخلافات تطفو على السطح ولم تعد تبدو كمشجاراتٍ بين فتاتين مراهقتين وحسب. كنت أظن أن ياسمين ستتغيّر وتتقرّب من أختها، الأمر الذي لم يحصل.

كان ردّ دارين على تصرفات أختها التجاهل التام بشكلٍ دائم، وأعتقد أن تجاهلها هذا كان يزيد من حنق ياسمين وجنونها. الغيرة والأنانية كانتا تحكمان شخصيّة ياسمين وتصرفاتها.

8

مع اقتراب امتحانات الشهادة الثانوية بدأت قواي تنهار تمامًا. انزويت على الرصيف المقابل للمعهد وانفجرت بالبكاء كما لم أفعل من قبل. تناولت هاتفي من جيبي واخترت رقم دارين، ترددت عدة مرات قبل أن أعيد الهاتف إلى جيبي. خطر لي أن أذهب لزيارة العم الياس في متجره، فهو قد عاد لفتحه قبل عدة أسابيع، ولكنّني لم أكن أود رؤية أي إنسانٍ ولا التحدّث إلى أحد، سوى إلى جدّي "أبو هشام".

نهضت عن الرصيف ونفضت الغبار عن مؤخرتي ومسحت الدموع عن وجهي وتوجّهت إلى أحد متاجر الورود واشتريت ثلاثة ورودٍ بيضاء ثم قصدت المقبرة مارًّا من شوارع دمشق القديمة والتي تعرّفت إليها برفقة جدّي الذي عشق أزقة المدينة وأحجارها. كانت البيوت الدمشقيّة القديمة متلاصقةً لدرجةٍ يخال المرء معها أنّها متداخلة ببعضها البعض، ويمتد على جدرانها الخارجيّة العريش والياسمين والفل، ترتفع بارتفاع الجدران وتتشبّث بها كما لو كانت جزءًا لا ينفصل عنها، أو أن قصة حبٍّ أزليةٍ تجمعهما إلى الأبد.

لكل حيٍ من تلك الإحياء خصوصيّته، فلا يمكن مثلًا أن تشابه رائحة باب توما رائحة أي مكانٍ في العالم كلّه، فور وصولي إلى هناك بدأت أشمّ رائحة بردى، ورائحة البزورات المحمّصة. هناك تنتشر

المطاعم في كل مكان. معظم المطاعم كانت بيوتًا شاميّةً قديمةً تعود إلى عوائل دمشقيةٍ عريقةٍ في سالف الزمان، قبل أن يجرّدها رأس المال السلطوي والاجتماعي من روحها. أصوات الناس بدأت تعلو شيئًا فشيئًا وتختلط بأصوات النراجيل وصوت الماء المنهمر الذي تطلقه النوافير المعروفة في بيوت دمشق العتيقة، والذي يصدر لحنًا عذبًا قلّما يسمعه المرء إلّا في دمشق. لذلك الماء بالذات رائحةٌ مميزة، فهو يحمل معه أيضًا رائحة الأحجار التي تشكّل البركة. العُرُش تصل طرفَي الشارع أحدهما بالآخر صانعةً جسرًا أخضر كأنه يربط قلوب السكّان ببعضها. قلّما يجد المرء في دمشق القديمة شارعًا شعبيًا مكشوفًا للسماء، فإمّا أن تغطيه العُرُش وإمّا الأزهار، وإمّا يكون مسقوفًا بقناطر الوئام التي بنتها محبّة السكّان من خلال "إعارة أكتافهم" بعضهم بعض، حيث بُنيت تلك القناطر من خلال بناء غرفٍ إضافيةٍ بين البيوت المتقاربة ليسكنها عروسان جديدان. كان والد الشاب يتجّه إلى بيت جاره المقابل سائلًا إيّاه إعارته كتفه، أي بناء غرفةٍ بين المنزلين ليزوّج فيها ولده.

تحوّل كل ذلك الجمال حينها إلى وسيلةٍ لجذب السيّاح الأجانب. كنت أتأمل خلال رحلتي جدران البيوت الحجرية التي يحمل كل واحد منها ذكرى لعاشقين اثنين قد حفرا اسميهما قبل أن يتبادلا القبلات خلسةً، محتمين من الأعين تحت ظلام الليل. هكذا كانت معظم الجدران. لم تكن دفاتر المجانين كما كنّا نسمع من الجميع في فترة طفولتنا. بل كانت دفاتر العاشقين، دفاتر عاشقي دمشق وملجأهم لتدوين ذكرياتهم، قبل أن يمحي الزمن روعتها وبهاءها.

فور وصولي إلى مشارف القيمرية بدأت أشم رائحة الخبز الساخن التي تذكّرني بشكلٍ خاصٍ بطفولتي، وبدأ صوت فيروز يعلو شيئًا فشيئًا: "هوى ملء قصتك الدامعة، تمايل سكرى به.. دمشق كشمس الضحى الطالعة".

مع تقدّمي أكثر باتجاه الجامع الأموي بدأت تطغى أصوات رمي النرد والأحاديث المتشابكة، غير المفهومة، وصارت وجوه السيّاح تتكرر بكثرة. شرعتُ أتأمل وجوههم جميعًا وأجهد نفسي في محاولة تجنّب عدسات كاميراتهم ساعيًا للخروج من دوامة البشر تلك متشبّثًا بالأزهار الثلاث التي أحملها لجدّي.

كان قبر جدي نظيفًا تعتليه عروقٌ خضراء وأزهارٌ ملوّنة، استغربت في البداية لكنني لم أحِر جوابًا، كنت متأكدًا أنّها كانت دارين. كنت أعلم أن والديّ يرقدان بالقرب، لكنّني نسيت الموقع بالضبط، فوضعتُ زهرةً على قبر جدّي وعزمتُ البحث عن قبرَي أمّي وأبي لأهديهما الوردتين الأخريين.

تأملت شاهدة قبر جدي وأطلت النظر في تاريخ ولادته ووفاته. سبعة وسبعون عامًا عاشها الرجل الذي وُلد عام إعلان دستور الجمهورية السورية الأولى، أي في فترةٍ من التجاذبات والاختلاجات والنشاط السياسي والفكري والاجتماعي. كبر في ظلِّ الانتداب وعايش الفترة التي تلت الاستقلال وما تخلّلها من فوضى وانقلابات، شابًّا متقدًا بالحياة والأمل. كانت دمشق حينها تنام على حكومةٍ لتصحو على أخرى. ثم عاصر الوحدة مع مصر ثم آخر الانقلابات بعد عامَين على

الانفصال وانتهت حياته بعقودٍ طويلةٍ من الكبت والقهر. فترته المشؤمة تلك التي كان الإعلان عن بدايتها يوم تلقّى "أبو هشام" الدمشقي الطيّب الصفعة الأولى على وجهه لإعرابه عن عدم رضاه، تلك السلطة التي كان هو نفسه في يومٍ من الأيام أحد مريديها وأتباعها.

كان جدّي قد كتب في مذكراته: "لم تكن تلك الصفعات لوجهي، بل كانت صفعات على وجنتَي الوطن. لم أتلقَّها أنا وحدي، بل تلقتها كرامة كل إنسانٍ يعيش هنا. واللكمات لم تكن لجسدي، بل تلقاها هذا البلد الذي بات سجنًا كبيرًا في قلبه وأطرافه فكسرتها كسرًا لن تصلحه إلا الصحوة، الصحوة الحقيقية التي ستحيل هذا الخريف الطويل إلى ربيعٍ أبدي، صحوة لن يوقد نارها أمثالي، ممن صُفعوا فصمتوا! الثورة!". لقد وصف نفسه شخصيًا بالجبان والعاجز وقد كان مستسلمًا للواقع بشكلٍ رهيب.

شعرت عند وقوفي على قبر جدّي كم كنت أشبهه، كم كنت ضعيفًا ومنهكًا، لا أدري ما تخبئ الحياة لي. سألت نفسي، لماذا أتعب نفسي بالدراسة بينما لا أملك عائلةً ولا أصدقاء. بينما لا أعرف ما أريد أن أفعل بعد نجاحي الذي أسعى إليه. لقد كان جدّي يهتم لدراستي جدًّا ويشجّعني دومًا وبعد رحيله حاولت المحافظة على مستواي المدرسي كما كان، وفاءً لرغبته بإكمال دراستي. أردت أن أخبره أنني أحتاج إليه، أن دارين تحبّني وأحبّها رغم أنّني أعلم كم أن هذا الأمر خاطئ ومجنون. أردتُ الصراخ فوق قبره كم اشتقت إليه وأتوق ليقول لي ما عليّ فعله، لأبكي على صدره وأخبره بأنّني ما زلت صغيرًا لأواجه الدنيا وحدي، بأنني رغم كل القسوة والمتاعب لا أريد مغادرة منزل عمّي،

لأنني أخشى الحياة في الخارج ولا أعرف عنها شيئًا. بكيت وبكيت وبكيت. كان عليّ التفكير، لماذا توجّب على والدَيّ تركي باكرًا. تركاني طفلًا لا يقدر حتى على الاحتفاظ بصورة وجهيهما في ذاكرته الصغيرة. تركاني محتاجًا لعناقٍ يعطيني الأمان، لقبلةٍ تشعرني بالحب، للمسةٍ تشعرني بآدميتي!

قبّلت شاهدة القبر ورحت أدورُ في المقبرة باحثًا عن قبرَي أمّي وأبي. هنا يوجد الكثير منها، كلّها لأناسٍ قد فارقوا الحياة. كلهم قد ماتوا قطعًا، ولكن هل عاشوا جميعًا يا ترى؟ لا أدري! ربما.. هناك لا يوجد سوى القبور، تحيط بي من جميع الجهات! أسماءٌ كثيرة، تواريخ أيام الميلاد السعيدة وأيام الوفاة التعيسة. وبينها أيامٌ صنعت الحياة في هذا البلد البائس.

تساءلت في خُلدي: هل أنصفَت القبور من لم تنصفهم الحياة؟! هل ارتاح المتعبون؟! وانتصر المظلومون؟ ومُلئت كؤوس اليائسين بالأمل؟ وقلوب المهزومين بالانتصار؟ وأرواح الخائفين بالأمان؟

بدأت الشمس تتقهقر وتغرق خلف الأُفُق البعيد بينما أقف أتوسّط قبور آلاف البشر، بدأ الفزع يجدُ طريقه إلى قلبي، هنا قرّرت التوقّف عن البحث، والرحيل بالوردتَين.

كانت الساعة عند وصولي إلى بيت عمّي قد شارفت على التاسعة. عادةً أجيء الى المنزل في وقتٍ متأخّرٍ أكثر من هذا. ورغم أن زوجة عمي لا تراني حاليًا سوى في المناسبات، إلّا أنني لا أسلم من نظراتها وتعليقاتها بأنها لا تشعر وبناتها بالراحة في ظلّ وجود "رجلٍ" غريب معهم

في المنـزل. أنـا أعتقـد أن الحـقَّ معهـا في ذلـك، ولكنّنـي أبـذل قصـارى جهدي لقضاء أطول وقتٍ ممكنٍ خارج المنزل. وقفتُ أمام بـاب الشـقّة وترددتُ قبل قرع الجرس. أنا لم أملك يومًا حتى مفتاح المنـزل وطالمـا كان عليّ انتظار عمي أو زوجته في الخـارج عنـدما كنتُ آتي في وقـتٍ لا يكونان فيه متواجدَين في المنزل، ما كان يعطيني شعورًا بأنّني لست أكثـر من ضيفٍ غير مرحّبٍ به هناك.

فتحَت لي ياسمين الباب، رمتني بنظرةٍ سريعةٍ ثم أدارت ظهرها لي بوقاحة، ولكنني معتادٌ على تصرفاتها التي لا تـنمّ عـن أدبٍ ولا أخـلاق. دخلتُ سريعًا وتوجّهت إلى غرفتي. وضعتُ الزهرتَين البيضـاوين علـى طاولة مكتبي وبدّلت ملابسي وانسدحت على سريري. لـم أكـن أملـك أي رغبةٍ بأي شيء سوى النوم عميقًـا. مـع بدايـة غفـوتي سـمعت صـوت طرقٍ على باب الغرفة أفزعني. نهضتُ سريعًا وفتحت الباب لأرى عمّي هشام يبتسم لي ويسألني السماح له بالدخول.

- تفضّل عمّي - قلتُ وأنا أفسح له مجالًا للدخول.
- نمت ب هالسرعة حبيبي؟
- لا، بـس بـدّي نـام لأني تعبـان شـوي - قلـت وأنـا أسـحب لـه الكرسي من خلف الطاولة للجلوس.
- من وين لك هالوردات الحلوين؟ - سألني وهو يبتسم ابتسامةً ذات مغزى.
- لقيتها مرمية ع الرصيف ففكرت آخدها وحطها بشي كاسة مي كرمال ما تموت - قلت له مرتبكًا.

ضحك عمي بصوتٍ مرتفع، سحب الكرسي ناحيتهُ وجلس عليه وقال:

- طيّب طيّب، صدّقتك! وكيف تحضيراتك للامتحان؟! قالت لي دارين أنو امتحانك صار قريب كتير. صحيح؟

وددتُ لو أضع رأسي في حضنه وأبكي. شعرت حينها أنّني أحبّه.

- إي، امتحاني بعد كم يوم - أجبته باقتضاب وبلهجةٍ تقول له: لا تسأل سؤالًا آخر.

- بالتوفيق حبيبي! إذا احتجت أي شي خبّرني. أنت بتعرف أديش بحبّك، صحيح؟! بحبّك متل ما بحب بناتي!

قال لي ذلك بصوتٍ حنون لمستُ به صوت جدّي وطريقةَ كلامه، أحسست به للمرة الأولى يشبه جدي، بشعره الذي يشيب مع الوقت والتجاعيد التي تظهر بوضوحٍ على وجهه مع تقدُّم الأيام.

نظرت إلى عينَيه ووددتُ أن أقول له ما قرأته مرةً لغابرييل غارسيا ماركيز: "يعرف المرء أنه قد بدأ يشيخ عندما يبدأ بالتشابه مع أبيه".

أردت أن أقول له: "لقد أصبحت عجوزًا يا عمي، عجوزًا كبيرًا. ألا تريد أن تصبح رجلًا أخيرًا وتوقف تلك الساديّة عن إجحافها بحقّك وحقّي؟! ألستَ مسؤولًا عني وفي مقام والدي؟! أليس والدي شقيقك؟! أم كل ذلك كان كذبًا؟!". إلا أنني لزمت الصمت. اكتفيت بالصمت والنظر إلى عينيه بإسهاب. حتى همَّ بالانصراف وهو يقول: "بالتوفيق يا آدم، بالتوفيق. أنت قبضاي وما بينخاف عليك، ارفع راسنا".

بعد أن أغلق عمي باب غرفتي مغادرًا، انفجرت بالبكاء على

وسادتي ولكنني هذه المرة لم أكن مستاءً من أحدٍ بل من نفسي أنا وحسب! لماذا أتردد في قول ما في قلبي؟! لماذا أتردد في فعل ما أريد؟! لماذا لم أقل له إنني بحاجته؟! لماذا لم أخبره بأنني أشعر أن الخوف يأكل روحي؟!

رحت أردّد في صدري: "أنا أكره عمّي! عمّي لا يستحق محبّتي ولا احترامي! إنّه وغدٌ ليس إلا. يتظاهر بحبّه لي، بينما ينصاع لأوامر زوجته الجميلة. سأقطع يدي إن كان لم يأخذ إذنها قبل زيارة غرفتي، بل إنّها مؤامرةٌ يحيكانها ضدّي! أظن ذلك. تلك هي الحقيقة حتمًا. سحقًا له! سحقًا لك يا عمّي".

كانت تلك الأفكار تنساب إلى دماغي دون سيطرةٍ منّي، شعرت حقًّا برغبةٍ شديدةٍ بالبصق في وجه عمّي! ثم غفوتُ ببطءٍ وهدوء، بينما أشتم نفسي، وأشتم هشامًا.

9

استيقظت في صباح اليوم التالي متأخّرًا. بدلتُ ملابسي وخرجت مسرعًا من غرفتي. توجّهت إلى المطبخ لملء زجاجة الماء الخاصة بي لأجد ياسمين هناك:

- صباح الخير ياسمين!
- أهلين.
- أنتِ بخير؟ - سألتها بينما كان الماء ينساب من الصنبور في الزجاجة.
- أنا منيحة. آدم.. انتبه على حالك وتصرفاتك شوي ماشي؟ مفكّر إني ما شفت الورد اللي جبتو معك مبارح عالبيت؟ شو بدّن يقولوا الجيران إذا شافوك فايت على بيتنا ومعك ورد؟ طيّب، أنا ما خبّرت أمي بشي، بس لتعرف إنّي أحسن منك. بس انتبه على حالك، كرمالك مو كرمالي، اتفقنا؟

امتلأت الزجاجة بالماء الذي صار يسيل على يدي وأنا أصغي إلى كلامها، تمامًا كما امتلأ قلبي حقدًا وكرهًا لتلك الفتاة الحمقاء. كنتُ أريد أن أقول لها إن الزهرتين كان من المفترض أن أضعهما على قبر أمّي وأبي أيتها البلهاء. أمّي وأبي اللذين أجهل حتى مكان مرقدهما بسببكم جميعًا. أمّي وأبي اللذين لم تجمعني الحياة بهما، حتى صورة

واحدة لم تجمعني بهما. حتى ذكرى واحدة أو عناق. لقد عانقاني كثيرًا قبل وفاتهما بالطبع، ولكن ما الفائدة إن لم أكن أذكر من ذلك شيئًا؟ أردت الصراخ في وجهها، البصق في وجهها هي الأخرى، لكنّها ابنة عمي، لا أبدًا، لم يكن ذلك ما منعني، بل ما منعني كان أنّها أخت دارين! نعم، هي أخت دارين، ولكنّها في الوقت ذاته ابنة بثينة، أرى في عينَيها أمّها بكل شرّها وحقدها عليّ الذي لم أجد له مبررًا منطقيًا واحدًا. أما في عيني دارين فأنا لا أستطيع أن أرى سوى دارين بكل تفرّدها واستثنائيّة وجودها، دارين بكل الحب والرقّة، دارين ابنة بثينة الكبرى، التي تحبّني أكثر من العالم كله.

في طريقي إلى المعهد لم يدر في رأسي أي شيء سوى أنّني أرغب برؤية دارين وحدي. لقد كان بإمكاني الاتصال بها والخروج معها ببساطة، لكنّني لم أفعل يومها، لسببٍ ما لم أفعل.

10

امتحاني الأول كان امتحان مادّة الجغرافيا، المادّة التي أكرهها جدًّا، حتى أنّني عندما أحمل كتاب الجغرافيا في حقيبتي أشعر بها ثقيلة، ثقل الجبال والوديان والبحار والبلاد التي تملأ الكتاب.

لم أختر دخول الفرع الأدبي في المرحلة الثانوية لحبّي للمواد الأدبية، بل لكرهي للمواد العلميّة. عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي كان عليّ تعلم جدول الضرب. وكان لأستاذ الرياضيات حينها أسلوب في التعليم قد تفوّق به على مدرّسي العالم كله. كان يسأل أحد التلاميذ عن حاصل ضرب عددين وإن لم يعرف يضربه بالعصا على يديه بقدر الناتج الذي لم يعرفه التلميذ، وبهذا لا ينسى التلميذ في حياته الناتج أبدًا - حسب الأستاذ -. طبعًا، كيف سينساه وقد تألّم بسببه بل كادت تُكسر يده من أجل أن يحفظه؟! وأنا لكي أتجنب العصا - التي كان مجرد رؤيتها يثير هلعي - كنت أقضي ساعاتٍ طويلة في حفظ جدول الضرب. أعيد وأعيد وأكرّر حتى أتأكّد أنّني لن أخطئ أبدًا. وهكذا، كبرت أكره الحساب والأرقام كرهي للعصا.

ما زلت أذكر ذلك الأستاذ جيدًا. كيف لا وأنا أكرهه كرهًا لا يضاهيه كرهٌ في العالم، كما أذكر تمامًا أن والد أحد التلاميذ الزملاء هو من صنع العصا للأستاذ - الذي كان دائمًا ما يردد على مسامعنا أن

"العصا من الجنّة" - وزيّنها بلاصقٍ ملوّن فصارت مخطّطةً بالأبيض والأسود. دخل ذلك الأستاذ الفاضل في بداية العام الدراسي علينا وسألنا في بداية الحصّة - التي يفترض أنّها حصّة التعارف - عن مهن آبائنا. لقد كنت الثالث الذي يُسأل:

- وأنت؟ شو بيشتغل أبوك؟

صمتت ولم أعرف كيف عليّ أن أجيبه.

- شو أكل لسانك القط؟ شو بيشتغل أبوك؟
- أنا عايش ببيت عمو.
- ليش وينو أبوك؟

عدتُ للصمت، ثم بدأت بالبكاء. استشاط الأستاذ غضبًا واقترب منّي بعدوانيّة:

- لما بسألك بتجاوب، فهمان يا قليل الأدب؟ سألتك شو بيشتغل أبوك، ما وين بتندفس أنت! إحكي أحسن ما نزّلك على غرفة الفيران!
- بابا وماما مانن هون، هنّي بالجنّة - أجبته باكيًا وقد كنت أجهد نفسي بقسوةٍ لإخراج الكلمات بينما هو يمسك ذراعي بعنف.
- إي قول هيك من الأول، أقعد انقبر، الله ينزع مراقك - صرخ في وجهي وقد أفلت ذراعي الصغيرة بقوة.

عندما وصل الأستاذ إلى أحد التلاميذ الذي كان والده يعمل نجارًا، قال له:

- ها هاااا. معناها بتقول لأبوك إنّه الأستاذ حكم بدّه عصاية مرتّبة. خليه يعملها طويلة ويخليها ضيقة شوي. وتكون خشب زان هاه! - كان الأستاذ يصف العصا التي يتمنّاها وكأنّما يصف امرأةً جميلة ويلقّن الطفل الذي كان يضحك ببلاهةٍ مواصفاتها المؤلمة بينما يبتسم بساديّة.

عاد التلميذ في اليوم التالي حاملًا العصا للأستاذ كهديّةٍ من والده الذي صنعها بكل سرور، حسب ما قال الزميل الصغير للأستاذ. لقد شغل الرجل نفسه وآلاته لصنع العصا التي ستعذبنا طوال العام و"تأكل من جلودنا شقف".

نجوت على كل حال من عصا مدرّس الرياضيات الأبله ذاك، ولكنّني لم أنجُ من بطش المدير، وليس بسبب تقاعسي عن التعلّم، بل بسبب العَلم، وعلى أثر تلك الصفعة أشعر بخدّي يؤلمني كلما رأيت تلك الراية.

كنت حينها في العاشرة من عمري، نحيلًا وضعيفًا بين أقراني، أحاولُ عبثًا إيجاد مكانٍ لي بينهم أو بناء صداقاتٍ معهم دون التعرض لأذى الصبية الآخرين. كنت أجول في ذلك اليوم البارد في ساحة المدرسة وفي يدي قطعة خبزٍ بالجبن أعدّها لي جدّي قبل خروجي من المنزل صباحًا، وكانت الاستراحة قد شارفت على الانتهاء. السماء ممتلئةٌ بالغيوم الرمادية، الساحة تعجّ بالأطفال الذين يركضون ذهابًا وإيابًا والأرض مبلّلة. بينما كنت أعض الخبز وأمشي وحيدًا دفعني أحد الأولاد من الخلف فسقطت على الأرض وطار الخبز من يدي بعيدًا،

وبدأ الأولاد يرمون بأنفسهم فوقي واحدًا تلو الآخر. شعرت بأجسادهم التي يزيد ثقلها شيئًا فشيئًا تحجب عني الهواء والضوء بالتدريج وتهرس عظامي هرسًا حتى صرت رويدًا رويدًا عاجزًا عن سماع أصوات قهقهاتهم العالية. صرخت وصرخت، ولكن صوتي كان يتلاشى ويختنق جرّاء اصطدامه بأجسادهم. نعم، ربما كانت تلك المرة الأولى التي عرفت فيها أن الموت قبيح، وأنّني أريد الخروج من مأزقي ذاك ومواصلة الحياة. لمعت حينها في رأسي مشاهد لم أكن أفهمها. أشياء ظننت حينها أنني عشتها في كابوسٍ ما من كوابيس طفولتي. سيارةٌ مقلوبة، بينما أنا عالقٌ فيها وأناس يتجمّعون ويمدّون أيديهم لي لسحبي من مأزقي ذاك. كان المكان ضيّقًا جدًّا وكان حالي مشابهًا لما كنت عليه تحت كومة الأجساد تلك.

بدأ الصبية بالابتعاد عني، فنظرت حولي لأراهم يضحكون وأرى بعض الفتيات متجمّعاتٍ حولهم بين مستهزئةٍ بي ومتعاطفةٍ معي.

اتجهتُ باكيًا إلى الحمّامات لأغسل وجهي ويديّ، ما جعلني أتأخر عن تحيّة العلم. وتحيّة العلم هذه كانت طقسًا يُقام كل سبتٍ صباحًا وكل خميسٍ بعد نهاية استراحة التلاميذ الأخيرة، وفيها يصطف التلاميذ الصغار كالجنود ويردّدون النشيد الوطني وشعار الحزب الحاكم رافعين الذراع في حركةٍ مطابقةٍ لما كان يعرف بتحيّة هتلر في ألمانيا النازيّة. ركضت لألتحق بصف التلاميذ فإذا بي أصطدم بمدير المدرسة الذي انتصبَ أمامي حاملًا عصاه الخشبية الطويلة وناظرًا إليّ بمنتهى الغضب. كان رجلًا جبّارًا يهابه جميع التلاميذ. طويل القامة

برأسٍ كبيرٍ جدًّا وكفَّين ضخمتين وشاربٍ أسود كبير يشبه شارب سوبر ماريو. وقفت أمامه برعبٍ شديد كالأرنب دون أن أحاول حتى أن أبرّر تأخّري عن الالتحاق بواجبي الوطني. نظرت إلى الأرض بخوفٍ فما كان منه إلّا أن أمسك وجهي ورفعه باتجاهه بينما أنا أبدي مقاومةً ضئيلةً عفويّة، وانهال بكفّه الضخمة بصفعةٍ على خدي الأيسر وبدأ بالصراخ موبّخًا إياي. مشيتُ بعدها إلى صف التلاميذ، وقفت هناك والدموع تلمع على خدِّي، لم يكن خشوعًا ولا تأثّرًا، بل كان ألم خدِّي وروحي، ببساطة. لم أردّد يومها النشيد ولا الشعار، بل نظرت إلى ذلك العلم دون أن أحيّيه، بينما جمع التلاميذ الغفير يصدح: "ذات رسالةٍ خالدة".

11

كانـت فـترة الامتحانـات الثانويّـة كالوبـال فـوق رأسـي ولـم أتمـنَّ إلا انقضـاءها وحسـب. في كـل مـرّةٍ كنـت أدخـل فيهـا قاعـة الامتحـان كـان الرعـب يزحـف إلـى قلبـي شـيئًا فشـيئًا. كنـت أشـعر بالتـدريج بـدوارٍ وبصـعوبةٍ في البلـع وتعـرّقٍ شـديد، بالإضـافة إلـى ارتجـافٍ في جسـدي بالكـاد كنـت أسـتطيع السـيطرة عليـه. في الحقيقـة لـم يكـن رعبـي يتعلـق بالامتحـان نفسـه، ولكنـه كـان متعلقًـا بـالطقوس والهالـة التـي تحيط بـه. كنـت أنظـر إلـى المـراقبين الثلاثـة الـذين يتجولـون بـين المقاعد في قاعة الامتحان، وكلّما اقترب أحدهم مني، زاد وضعي سوءًا، رغم أنني لم أحاول الغش ولو مرة واحدة، ولـم أكـن بحاجـةٍ إلـى ذلـك أساسًا.

في امتحان التربية الدينية أنهيت الإجابة عن الأسئلة في وقـتٍ قصيرٍ وجلسـت أنتظـر وقـت الانصـراف، فرحـت أتأمـل المـراقـب. كـان رجـلًا أربعينيًا أسـمر يمتلـك حـاجبَين عريضَـين وكثيفَـين وأنفًـا أفطـس يكـاد لا يبدو بارزًا أبدًا بينما ذقنه الحليقة تلمع من العرق. كانت ملامحه بكلّيتهـا حـادّةً جدًّا وبدا كأن وجهه يقطر كرهًا. لم أسـتطع تأمّـل سـحنته أكثـر مـن نصف دقيقة ولكن الغريب أنه بدا لي بشكلٍ أو بآخر يشبه بثينة. بـل كأنّـه صورة عنها، حتى خِلت في نفسي لبرهةٍ أنّـه قـد يكـون أخاهـا. كـان ينظـر

إلى الطلاب بقرفٍ وغضب، دون سبب. لا أعتقد أن وجهًا كهذا كان قد ابتسم في حياته.

خرجت من امتحاني الأخير راضيًا عن نفسي، واثقًا بأنّني قد تخلّصت من المدرسة إلى الأبد. خارج مركز الامتحانات كانت دارين بانتظاري كما توقّعت. فور رؤيتها لي جرت باتجاهي وعانقتني بحرارة، وعانقتها بدوري، ليس جسديًّا فقط، بل كانت روحي بين ذراعيها ترقصُ. لقد كانت المرةِ الأولى التي تعانقني فيها دارين. لا، بل بالأحرى كانت المرة الأولى التي تعانقني فيها أنثى. للحظةٍ نسيت أين أنا، ومن أنا، ومن تكون دارين. كان التقاء جسدينا أشبه بمعانقة حبّات الندى لأرضٍ قد أضناها الظمأ لسنوات. كان شعوري كما لو كنت وللمرّة الأولى ألامس جسمًا خارجيًا. لقد أحسستُ لأول مرّة بعد ميلادي بأنّ لدي أحاسيس، وبأنني قادرٌ على التفاعل الجسدي. زالَ خوفي وتوتري وأردت أن أبقى على ذلك الحال مطوّلًا، ولكن دارين انتبهت إلى نظرات التلاميذ الماكرة، فابتعدت عني بهدوءٍ وبطء، وهي تنظر إلى وجهي والدموع في عينَيها.

كان قد بدأ جزءٌ جديدٌ من أجزاء حياتي. كنت أعرف حتى قبل نهاية الامتحانات ما عليّ فعله، ولكن بثينة لم تمهلني طويلًا قبل أن تخبرني بذلك: "أنت هلأ صرت رجّال. تخيّل لو أنّه عندك أخ. ما كنت وقتها رح تروح ع الجيش؟ بدّك يعني وقتها ندفعلك بدل وتبقى ساكن عنّا ع طول؟ أنا عندي بنتين صبايا بالبيت والناس بلشت تحكي علينا. لازم تدورلك على مكان تاني تعيش فيه!". قالت لي هذا وهي تزيل الأطباق

عن طاولة الطعام دون أن تنظر إليّ أو تلقي بالًا لإصغائي لها من عدمه، كأنّها تكلّم نفسها. لم أجبها واكتفيت بالانصراف. كانت دارين قرب باب المطبخ تسمع حديث أمها التي ما إن تنبّهت لوجودها حتى طردتها إلى غرفتها. أدارت دارين ظهرها ومضت.

12

- أنتِ عظيمة يا دارين!

ابتسمَتِ الصبيّة وهي ترشف من كأس عصير الأناناس الذي تحبه، فتابعت بدوري مبتسمًا:

- أنا كتير سعيد لأنك ما نسيتي جدّي.
- شكلك نسيت أنّه كان جدّي أنا كمان يا روحي!
- هو كان جد ياسمين كمان، صح؟
- بتعرف يا آدم، لسّا أملي كبير إنها رح تكبر شي يوم وتتغير.
- أنا فقدت هاد الأمل من زمان، الموضوع ما خصّه بالعمر يا دارين، هذا طبع للأسف - قلت لها مبتسمًا بسخرية وأضفت:
- اللي كنت بدي قوله إنّه الورود على قبر جدّي حلوين كتير، شكرًا إلك!
- أي ورود؟
- ما زرتي قبر جدّي بهالكم يوم اللي مضوا؟!
- لا، أبدًا!

من وضع تلك الأزهار إذًا على قبر الرجل؟ هل من الممكن أن يكون عمّي؟ سألت نفسي.

- وما بظن إنّه يكون بابا كمان - أجابت دارين التي قرأت أفكاري.

حسنًا قد يكون أحد أصدقائه، تابعتُ أفكاري.

- فكّرت شو رح تعمل هلّق كرمال السكن؟ أمّي رح تضغط عليك أكتر وأنا قلبي ما عاد يتحمّل، خايفة أنفجر شي يوم - قالت وهي تنظر إلى كأسها.
- رح حاول حصّل غرفة بالسكن الجامعي. هذا خياري الوحيد حاليًا.
- ليش ما بتطلب المساعدة من العم الياس؟ أكيد رح يساعدك.
- رح أرجع أشتغل عنده بالمحل على كل حال، ومارح عذبه معي بشي تاني. أنا بدبّر موضوع السكن لوحدي. بدّي سكن قريب للجامعة. بتمنّى جيب علامات الحقوق.
- وأنا بتمنّى كمان. بس كليّة الحقوق بعيدة عن كليّة الطب. رح تجي لتشوفني دايمًا، صح؟
- طبعًا - قلت لها. راحت دارين تحرّك القشّة داخل كأسها بشكلٍ دائريٍ بينما تردّد: "بتمنّى".

عند عودتي مساءً وجدت بثينة بانتظاري، وعندما رميت التحيّة خرجت دارين من غرفتها لتصرخ أمّها بها: "ارجعي انقبري بغرفتك وما تفرجيني وجهك اليوم أبدًا". واستأنفت متوجهةً بكلامها إليّ: "عم تشوف البنت بدون علمي؟ إنت مين مفكّر حالك؟ إسمع ولا حيوان، بكرا بتطلع من هذا البيت وما بدي شوف وجهك بعدها

أبدًا. عم تفهم؟ إنت ما بتستحي على دمّك؟ طبعًا، ما أنت عديم التربية والشرف".

كان عمّي حينها في حلب بداعي العمل. لم أدرِ ما عليّ أن أفعل. دخلت إلى غرفتي دون أن أنبس ببنت شفة وتركت بثينة تصرخ وحدها كالممسوسة. ياسمين هي التي وشت بنا.

13

لـم أنـم ليلتهـا للحظـةٍ واحـدة. لقـد بكـى ابـن الثامنـة عشـرة ذاك كالمجنون. كان ينتحب، لكنني لا أدري ما كان يبكيه حقًّا. هل بكى والدَيه؟ هل بكى جدّه؟ لا، أعتقد أن ما أبكاه كان أعمّ من ذلك بكثير. هل أبكاه الشرّ البشري الذي لا يعرف حدودًا؟ أم أبكاه خوفه من مغادرة المنزل إلى حياةٍ جائرةٍ لا يعرف فيها أحدًا ولا يدري كيف ينجو فيها بأقل الخسائر. لم أستطع تحديد سبب حزني تمامًا، كانت مشاعري تدور حول إحساسٍ واحدٍ يملأ داخلي: الخواء. كنتُ أشعر أن داخلي خاوٍ تمامًا، فأخرجتُ من تحت سريري علبة السجائر ودخّنت الكثير منها، حتّى شعرت بأنّني على وشك التقيُّؤ، ففعلتها داخل صندوق الليغو الذي أهداني إيّاه عمّي هشام ذات مرّة بعد عودته من سفره في القاهرة.

لم أشعر يومًا في ذلك المنزل بالسعادة، لكنّه بدا لي في تلك اللحظات بالذات مختلفًا! لم يكن دافئًا، ولكنه أكثر دفئًا بكل الأحوال من الخارج، وأكثر أمانًا. كان جسدي يرتجف وأنا أعانق قبّعة جدي الصوفيّة وألمس ملاءة سريري برؤوس أصابعي. مسحت دموعي وبدأت أفكر بما عليّ حزمه من أمتعة. بدا لي كل شيء لا يحملُ أي معنى. حتى مذكرات جدي، تردّدت عدة مرات قبل أن أرميها في الحقيبة

مع بعض مقتنياتي الشخصية. كان الحال كما لو أن كل ما في تلك الغرفة لا يخصّني ولم يعنِ لي شيئًا على الإطلاق. كان الطريق نحو باب الغرفة كما العبور نحو عالم الشرّ الخارجي المستطير، الذي أخشاه.

ثم فكّرت: ما الفرق بيني وبين نزيل أي فندق؟ نزيل الفندق يسكن غرفةً صغيرةً بشكلٍ مؤقتٍ مقابل مبلغٍ محدّدٍ من المال. وحالي لم يكن يختلف عن ذلك كثيرًا. لقد كانت بثينة تجبي إيجار مكوثي في منزلها كل يوم، ولكنّها ربما لم تكن تعلم أن الثمن الذي أخذته منّي لا تضاهيه أموال الدنيا كلها. لم أكن أرى تلك الغرفة سوى مأوىً سيزول يومًا، حينها سينتهي الألم كلّه ربما، لتستقبلني الحياة في الخارج بكل ما فيها من مجهول.

وضعتُ قبّعة جدي على رأسي ووقفت أمام المرآة. كان شكلي مضحكًا حقًّا. لا ترتسم على وجهي علامات حزنٍ حقيقيّة، ولا علامات فرح، ولا علامات خوف. كان وجهي كوجه إنسانٍ ميتٍ لم تجفّ عيناه، ولم يغمضهما أحد بعد. سمعتُ طرقًا على الباب، لم تبدر مني أي ردّة فعل. تابعت تأمّل وجهي في المرآة ببلاهة، ليُطرق الباب مرةً أخرى ويُفتح بشكلٍ جزئي. كانت دارين تمدُّ يدها من الخارج وتلوّح بها فتوجّهتُ إلى الباب وأشرتُ لها أن تدخل. دخلت دارين ووقفت أمامي والدموع تغطّي خدَّيها، بينما كان لا يزال وجهي لا يعبّر عن أيّة مشاعر، وكأنني إنسان فارغ من الداخل تمامًا، صدق شعوري. أمسكت دارين برأسي بكلتا يديها وشدّته باتجاهها مقبّلةً جبيني، أو القبّعة، لم أعرف ما الذي أرادت تقبيله بالضبط، وراح جسدها يرتجف.

- أرجوك، لا تروح! وين رح تروح؟ - قالت لي دارين وهي تنظر إلى عينَيّ وتمسك رأسي بقوّةٍ راجيةً ردًّا. تابعَت صمتي وحركة عينَي، لم أنظر إليها، فتابعَت:
- أمّي وحدة ما بتعرف الرحمة ولا الإنسانية، بس أنت لازم تحكي مع بابا. أطلب من أمّي إنك تبقى يومين بحجّة أنّك بدّك تلاقي مكان تنام فيه، وبهذا الوقت بيرجع بابا. صدّقني، بابا ما رح يقبل تطلع من البيت هيك!
- دارين، أنا بكره هذا المكان. بكره الحياة هون. وبكره هي الغرفة على وجه الخصوص - قلت لها وتابعت التجوّل بنظري في الغرفة الفارغة.
- معقول؟ أنت كبرت هون يا روحي! بهي الغرفة، حدّ غرفتي. معقول ما عندك أي مشاعر تجاهها؟ يعني الإنسان إذا قعد تحت ظل شجرة يومين ورا بعض بتتكوّن بيناتهنّ علاقة! وأنا؟ بتتركني وبتروح وأنا متعلّقة فيك أكثر من تعلّقي بأهلي!

لقد آلمتني جملتها بطريقةٍ يصعب عليّ وصفها. شعورٌ من اللاإنسانيّة واللاانتماء لأي شيءٍ اعتراني. مشيتُ وجلستُ على طرف سريري وأجبتها بصوتٍ منكسر:

- لا. أنتِ غير شي. بس أنا ما بحب هذا المكان أبدًا، وما بحب أبقى هون.

لقد كنت حقًّا خاليًا من أي مشاعر، حتى تجاه دارين. كنت جثةً حقيقية، جثة لا تزال تستطيع الحركة.

- بس، أنا، أنا بحبّك - قالت لي دارين بصوتٍ أكثر حيوية وجلست على السرير بجانبي.

نظرتُ في عينيها. لقد رأيت الحب حقًّا. كان في عينيها من الحب ما يكفي لإشعار بلدٍ كاملٍ من الخائفين بالأمان. كانت دارين تحملقُ بي بدورها منتظرةً أي ردّة فعلٍ ولما ملّت الانتظار اقتربت بشفتيها من فمي مقبلةً إياه. أردتُ الابتعاد عنها، ولكنّني لم أفعل. شيءٌ ما منعني من الابتعاد، فلم أجد نفسي إلّا غارقًا تحت وطأة قبلاتها التي اشتدّت رويدًا رويدًا. لقد كانت القبلة الأولى في حياة كلينا، قبلتنا الأولى. كان شعورًا لم يمسسني في حياتي إلّا مرّاتٍ قليلة. كان شيئًا لم تدنّسه قذارةٌ بعد. كانت تلك اللحظة من أكثر لحظات حياتي طهارةً وصفاءً. تحوّلت تلك الغرفة فجأةً إلى لا شيء. كل البشاعة التي كانت تحيط بي كانت قد اختفت، لتتحوّل إلى لا شيء، لا شيء أبدًا. لم أكن ودارين محاطَين بأشياءٍ ملموسة. لقد كنّا محاطَين باللاشيء. واللاشيء كانت علاقتنا، حيث لا توصيف لها، لا لون، ولا شروط أو أهداف. نعم، لقد كانت قبلةً وحسب. كانت قبلةً لا تمهّد لشيء، ولم يسبقها شيء. حدثٌ وقع هكذا، بكل عفويّة وبراءة، في فضاءٍ لا يشبهه أبدًا، ليفرض سيطرته على الكون كلّه، قبل أن ينقضي ويرحل.

14

كانت قد مرّت عدّة أشهرٍ على سكني ذلك المنزل الصغير الذي قمت باستئجاره من العم الياس. بيت متواضع جدًّا مكوّنٌ من غرفةٍ واحدة مدمج فيها المطبخ والحمّام في منطقة عشوائيات على هامش دمشق. بدأتُ دراسة الحقوق في جامعة دمشق كما أنّني عدت للعمل في متجر العم الياس عدة أيامٍ أسبوعيًّا بعد الظهر. لقد توفّي الجد "أبو الياس" قبل عدّة أسابيع ومن يومها وصحّة العم الياس في تراجعٍ مستمرٍّ. الحدث الأهم في الأسابيع الأخيرة كان اختفاء دارين. أنا أعرف أنّها بخير ولكنني لا أدري أين هي. بثينة تكاد تجن.

في الحقيقة، لم أتواصل بعد تركي منزل عمّي مع دارين إلّا في مناسبتَين قبل اختفائها. من جهةٍ كنت أشعر بتأنيب الضمير بشكلٍ كبيرٍ لأنّني قبّلتها، فأنا لطالما كنت أعتبرها أختي، حتّى عندما تحركت مشاعرنا في اتجاهٍ آخر. ولكن تأنيب الضمير الحقيقي كان بعد اختفائها. لقد شعرتُ أنّني المسؤول المباشر عن الموضوع. لو أنّني كنت أتحدّث إليها أو أدعوها للخروج كنت لأخفّف عنها وطأة عائلتها، لربما كانت لن تحمل حقيبتها مغادرةً دون إخبار أحدٍ إلى أين هي ذاهبة.

بينما كنت أرتّب الأحذية على الرفوف، دخلت بثينة المتجر فاستقبلها العم الياس، أمّا أنا فقد رمقتها بطرف عيني وغادرت المتجر.

وقفتُ في الخارج وأشعلت سيجارةً وكان حديث زوجة عمي والعم الياس مسموعًا جيدًا، رغم أنّني لم أقصد استراق السمع:

- ما شفتها يا الياس؟ الله يخليك قلّي! قلّي إنّها إجت لعندكم أو شافت آدم! الله يخليك!
- ما شفتها يا بثينة، ولو شفتها كنت خبّرتها ترجع فورًا ع البيت أو خبّرتكم ع الأقل!
- خسرت ولادي الاثنين. وهلّأ خسرت بنتي! ليش هيك يا رب، ليش هيك عم يصير معي؟ قلّي يا الياس!

لم ينطق العم الياس بكلمةٍ واحدة، اكتفى بالنظر إلى بثينة وكأنّه يقول لها: "اعذريني، لا يصلح العطّار ما أفسده الدهر، أو ما أفسدته يداكِ الآثمتان". نهضَت بثينة وهمّت بمغادرة المتجر. عندما أصبحت في الخارج نظرَت إليّ باكيةً وأطالت النظر، بينما دموعها تجري على خدّيها وأنا أراقبها باستغراب. فتركتها متسمّرةً هناك ودخلت إلى المتجر من جديد. لم أفهم عن أي أبناءٍ تحدّثت بثينة. أطفأت سيجارتي في المنفضة وتوجّهت بالحديث إلى العم الياس دون النظر إليه، وأنا أتابع ترتيب الأحذية وكأنني أعاتبه:

- شو القصة يا عمّي؟ ما فهمت الحديث اللي دار بينكم!
- ما كنت بعرفك بتتنصّت عالناس يا ولد!
- أنا ماني هيك طبعًا. بثينة كانت عم تصرّخ وتبكي، فسمعت كلامها.
- لو ما كان بدّك ما كنت سمعت شي.

- ما حاولت أتجنّب سماع الحديث بصراحة. رح تحكيلي شو مخبّى عنّي؟
- ما حدا خبّى عنّك شي بيهمك.
- بغض النظر. عن أي ولاد كانت عم تحكي بثينة؟ وليش كانت عم تبكي بهذا الشكل؟ هلأ حسّت إنو بتحب دارين فجأة؟ وين كانت عاطفتها كأم لما طفّشتها للبنت؟
- كانت قسوتها عليك أكبر يا آدم! هي ما ظلمت دارين وبس!
- أنا ماني ابنها على كل حال. أنا موضوع دارين مجنّني. حاسس حالي مسؤول كمان بطريقةٍ ما، ومنعت حالي بصعوبة إنّي أصرخ بوجه بثينة.
- طيّب. رح أحكيلك القصة. كانت بثينة متزوجة قبل زواجها بعمّك هشام وكان عندها ولدين. انفصلت عن زوجها الأول وتعرّفت بعد فترة قصيرة على عمّك هشام اللي كان هو كمان منفصل جديد عن زوجته الأولى بحجّة إنّه ما جابتله ولاد، فاعتقد زوج بثينة الأول بإنّه علاقة غير شرعية كانت بتربط بثينة بهشام قبل الانفصال، فحرمها من طفليها وبقرار من المحكمة. هي كانت قناعة ستّك كمان اللي كانت تحب قرايبتها سامية، زوجة عمك الأولى. نجح عمك هشام بإقناع بثينة بالزواج ووعدها بأنه رح يرجّع لها ولديها بشتّى الوسائل والطرق، طبعًا هو لاحقًا ما استطاع يعمل أي شي. كانت السنة الأولى من الزواج كارثية. تحوّلت بثينة لإنسان تعيس تمامًا،

وبعدها تحوّلت إلى امرأة عدوانية جدًّا، بالأخص مع جدّك وستّك. أنا ما بدّي تفكّر إنّي عم برّر لبثينة طريقة تعاملها معك ومع دارين، بس الموضوع مانه عجيب.

- وشو ذنبي أنا؟ وشو ذنب دارين؟ عدالة الله أخدت حقنا منها وكان لازم دموع بثينة تنزل اليوم وقلبها يحترق على بنتها.
- لمّا بيعجز الإنسان عن مواجهة شر أصابه، بيبحث عن انتقامه بأي مكان. وغالبًا، بالأمكنة الخاطئة تمامًا. بكل الأحوال ما في بالعالم شر مبرّر، كل الشر عبثي. ما ممكن يأدّي إلا لمزيد من الدموع والآلام، وبثينة اليوم عم تحصد نتيجة أفعالها. رح صلّي لترجع بنتها لحضنها بخير.

لم أستطع التعاطف مع بثينة، ولكنني لم أقلّل من ألمها أيضًا أو أفرح لحزنها، رغم أن شعورًا بالرضا عند رؤية بثينة باكيةً قد اجتاح كياني. أنا لم أكن أريد التشفّي منها بأي حالٍ من الأحوال، ولكنّي فكّرت في أن الدموع قد تغسل قلبها من الغل الذي يمتلأ به. قد تشعر أخيرًا أن الأذى الذي سبّبته لي ولجدّي قد عاد إليها. إنّها الكارما، التي آمنت بوجودها لفترةٍ من فترات حياتي، الأمر الذي كان يجعلني دائمًا ما أنتظر الأسوأ من القدر. أردت إيجاد دارين مهما كلّف الأمر. ربما لكي أخبرها هذه المرّة بأن عليها عدم العودة إلى المنزل، لتبقى بثينة غارقةً في دموعها لأطول فترةٍ ممكنة.

توجّهتُ إلى الجامعة، حيث أنكرَ كل أصدقاء دارين أنهم يعرفون أين هي. لم تكن تأتي إلى الجامعة حسب اعتقاد الجميع. حزنتُ لذلك بالذات كثيرًا.

في اليوم التالي لليوم الذي بحثت فيه عن دارين، دخلت فتاةٌ ترتدي حجابًا أبيض ومعطفًا طويلًا إلى المتجر وبدأت تعاين الأحذية بينما كنتُ منشغلًا بقراءة رواية الغريب لألبير كامو. لم أنظر في وجه المرأة لانهماكي في القراءة فتوجّهَت إليّ قائلةً: "كيفك آدم؟". قفزتُ من فوق كرسيي وأنا أناديها:

- دارين!
- كيف حالك يا روحي؟ أنت بخير؟ - قالت لي وهي تكابر دموعها.
- دارين! دارين! أنا اللي لازم اسألك هذا السؤال! وين كنتِ؟ - رميت الكتاب الذي لم أكن قد أفلتّه من يدي على الطاولة.
- كنت مطرح ما كنت، ما مهم، قلّي، كيفك؟
- وين قاعدة؟ وكيف عايشة؟
- لا تخاف. كل شي تمام، لا تخاف أبدًا. أنا أجيت اليوم لطمّنك عنّي ولأني كتير اشتقتلك، ولأعطيك رقم موبايلي الجديد - ومدّت لي قصاصة ورق.
- بس يا دارين، وين عايشة؟ وشو مشان الجامعة؟
- لا تخاف علي. أنا وضعي منيح كتير، مفكّرني ضعيفة؟ هذا مانه موضوعنا. كيف دراستك؟
- منيحة. ما رح تخبريني على الأقل وين ممكن لاقيكِ إذا بدّي شوفك؟
- فيك تتصل ببساطة، أو خبّر رفيقتي وفاء. هي بتخبّرني.

- وفاء؟ من إيمت أنتِ وهي صحاب؟
- وفاء هي أمنّت لي السكن.
- بس وين؟
- عند الآنسات، وفاء من زمان ساكنة معهن.

غادرت دارين بعد عدّة دقائق دون أن تخبرني بتفاصيل أكثر.

"وفاء، الفتاة المتديّنة حدّ التشدّد والتي كانت لا تحب تحرّر دارين وأفكارها، تساعد دارين في إيجاد سكن؟ ثم ماذا يعني آنسات، من يكونون؟"، سألتُ نفسي.

كانت وفاء التي تنحدر من إحدى مدن محافظة درعا الجنوبية، شخصًا غامضًا، وكانت بالمقارنة بباقي صديقات دارين لا تحبّذ الخروج والاختلاط بالمجتمع، إلّا أنّها كانت ذكيّةً ومجتهدةً بشكلٍ كبير، حتّى تمنّى جميع الطلّاب والطالبات التقرّب منها، دون جدوى.

دخل العم الياس المتجر بعد ساعةٍ بينما كنت مشغولًا مع إحدى الزبونات. تردّدت بإخباره حول مجيء دارين ومكان سكنها. تردّدت لأنني لا أريده أن يخبر بثينة، ولكنّني فعلت ذلك أخيرًا ولا أعرف لماذا. اتّصلَ ببثينة فورًا وأخبرها بقدوم دارين دون إخباراها عن أيّة تفاصيل عن مكان وجودها بناءً على رغبتي.

أغلقَ الهاتف وجلس على الكرسي وراح يمسح وجهه بيديه بنفاد صبر.

- عمّي! أنت منيح؟ واجعك شي؟

لـم يجبني وتناول علبة السجائر وراح يبحث عن ولّاعته فمددت له ولّاعتي وتابعت سؤالي له بإلحاح:

- بتحب تروح ع البيت؟ أنا اليوم ما عندي شي بقـدر أبقـى هـون للمسا.
- لا تخاف آدم، أنا قلقت على دارين بـس. مـا بعـرف لأي مـدى منيح المكان اللي هي عايشة فيه هلأ.
- كنت بدي اسألك. مين هدول الآنسات؟
- انسى. يمكن يكونوا منيحين معها، ويمكن لا. بس لازم ترجع لبيت أبوها.
- خوّفتني يا عمّي! شو القصة؟
- لا تخـاف. يعنـي أنـت مفكّـر إنـو داريـن لبسـت نقـاب كرمـال تتخبّى؟ لإنو هي إرادتها؟
- ما بعرف، هيك ظنيت. أنت شو قصدك؟
- لا. هاد الشي كان لازم تعلموا لتنقبل بهيك مكان.

كان العم الياس يتحدّث بحرقة، لدرجةٍ أثـارت هلعـي. بـالطبع لـم يكـن لشـخصٍ متحـررٍ وتقـدميٍّ مثلـه أن يرتـاح لوجـود داريـن في ذلـك السكن، ولكن ربما كان ذلك المكان آمن من غيره من الأماكن التي كان يمكن لها أن تلجأ إليها، ربما.

القسـم الثانـي

الكلمة الأكثر بطولية في جميع اللُّغات، هي الثورة!

يوجين فيكتور دیبس

1

15 آذار 2011

عندما تعود أكثر الشخصيّات قداسةً وتنزيهًا في أعين الناس إلى منزلتها الحقيقيّة، وتستعيد طبيعتها البشريّة العاديّة، من غير الممكن بعد ذلك رفعها إلى منزلة الآلهة من جديد، مهما كلّف الأمر من دماء.

إنّه اليوم الذي لم يغيّر حياتي أنا وحدي، أو حياة السوريّين فقط، بل هو اليوم الذي غيّر الكون كله. يوم اندلاع الثورة. اليوم الأعظم والأكثر قدسيّةً وطهرًا في تاريخ بلادنا. اليوم الذي لمعت فيه عيون الناس لأول مرّةٍ لا بدموع القهر والكبت والظلم، بل بالآمال البرّاقة. كان اليوم الذي وجد فيه الناس أنفسهم أمام خيارَين لا ثالث لهما: الصراخ أو الصمت إلى الأبد.

لم يعد العالم بعد الخامس عشر من آذار لعام 2011 كما كان قبله. كل شيءٍ كان قد تغيّر، كأن نيزكًا قد اصطدم بكوكبنا مبعثرًا كل شيء. كما لو أن بركانًا هامدًا لملايين السنين على وشك استعادة نشاطه من جديد. كنّا حينها نمرّ على الجدران واحدًا واحدًا، ونقتلع آذانها الكبيرة.

الربيع قد اختلف معناه بالنسبة إلينا ذلك العام. إنّه ربيعٌ مختلفٌ قد وصل بلادنا. ربيع الحريّة والتمرّد. الأحداث التي هزّت بلدانًا ليست

بالبعيدة عنّا قد وصل صداها إلينا. أعطتنا أملًا وجرأةً لم نكن نستطيع تصوّرهما من قبل. إنّه الحلم الذي كنا لا نجرؤ حتى على الحديث عنه إلى أنفسنا.

كانت دمشق حتّى ذلك اليوم قد شهدت تحرّكاتٍ سياسيّةً صغيرة، إلّا أنّها غير مسبوقةٍ منذ سنوات، وكانت قد بدأت الحواجز التي ما فتأت السلطة تقيمها بيننا بالانهيار واحدًا تلوَ الآخر. بدأت تعلو أصواتٌ مناوئةٌ للسلطة في مملكة الصمت العتيدة تلك. إلّا أن الشرارة قد فجّرها حينها أطفالٌ في جنوب البلاد. نعم، أطفال.

عقودٌ من سطوة السلاح والمخابرات والخوف والإرهاب لم تصمد أمام بضعة أطفال. انهارت تحت أقدامهم الناعمة هكذا وبمنتهى البساطة. كانت تلك اللحظة تاريخًا بحدّ ذاتها. لحظةٌ من اللَّحظات النادرة، المنيرة والصافية في تاريخ عالمنا الحديث، حيث الكلمة أسقطت البندقية والقلم انتصر على الإرهاب. بدأ الأمر بسيطًا، وكان يبدو بعيدًا جدًّا، لكن جناح الفراشة كان قد رفّ ولا سبيل لإيقاف أثره أبدًا. وكرة الثلج كانت قد بدأت بالتدحرج من الجنوب باتجاه الشمال، كما نهر العاصي.

اجتاحت الاحتجاجات العارمة مدنًا مختلفةً وملأت الجموع الغاضبة الساحات والشوارع منتصبةً في وجه أعتى آلة قتلٍ وإجرامٍ عرفتها البشريّة. لقد حمدنا الله حينها أن أقصى ما تستطيع تلك السلطة فعله كان قتلنا، ولكنّنا صُدمنا لاحقًا بما هو أقسى من الموت بأضعاف الأضعاف.

لم يتأخّر الصِّدام كثيرًا. لم تكن دولة الإرهاب تلك تحتمل أن تسمع أصوات مواطنيها الغاضبين أكثر من بضع دقائق، قبل أن تأمر بإطلاق النار عليهم. بهذه البساطة والحيوانيّة تمَّ التعامل مع المواطنين التوّاقين إلى كسر أغلالهم. لقد كانت ردّة الفعل تلك صدمةً مبكّرة وخيبةً أولى على درب خيباتنا المستمر. لقد كان خذلاننا الأوّل، من أخوتنا، شركائنا في الوطن، ممن يفترض بهم أنّهم حُماته وحُماتنا قبل أي شيءٍ آخر. لقد كنّا نعرف وحشيّة النظام جيدًا، إلّا أنّنا علّقنا الآمال على أتباعه من أبناء جلدتنا، ألّا يرضوا لنا الموت على أيديهم، أن يديروا ظهرهم لنا حماةً للديار وسكّانها.

- ما عم أقدر صدّق إنو الناس عنّا رح تصحى بعد كل هالسنين - همسَ صديقي سامي لي وهو يسحب من سيجارته ويتلفّت حوله بحذر.
- ما عم أفهم، شو قصدك؟ - قلت له بارتباك.
- أخي قصدي ببساطة إنّه لو في بلد بالعالم لازمه ثورة فهو حتمًا سوريّة.
- ما بعرف.. الله يستر.
- خايف؟ يعني ما رح تطلع؟

صمتُّ لعدة ثوانٍ. لم أكن أعرف أيَ شيءٍ عمّا يجري فعلًا. لم أكن أعلم حتّى ماذا يعني أن أتّخذ موقفًا ما في حالةٍ كتلك، كما كانت معرفتي بسامي ليست بتلك القوّة التي تسمح لي بالوثوق به، وأثارت جرأته فزعي. ماذا لو كان ينصب فخًّا لي لكي أتكلّم فيشي بي للمخابرات؟ سألتُ نفسي.

- ما عنّا شي نخاف عليه. أكثر شي ممكن نخسره هو هالقيود اللي مكبّلة أيدينا وألسنتنا – أكملَ سامي قبل أن ينهض ويهمّ بالانصراف.

قرّرنا التوجّه إلى المحاضرة. رغم أن كل شيءٍ كان يبدو طبيعيًّا جدًّا، إلّا أنّني كنت أشعر أن الحياة من حولنا تغلي. نظرات الطلاب بعضهم إلى بعض، طريقة الكلام، حتّى إلقاء النكات وسرعة المارّة في المشي. كل شيءٍ كان يبدو متوترًا، والجو مشحونٌ والجميع في حالة ترقّب، كأن دمشق تنتظر الراكناروك(*).

لدى خروجنا من المحاضرة التقينا بزميلٍ لنا يُدعى وسام، لم تكن علاقتي به وطيدةً أبدًا، بل كنت أشعر حتّى أنّه لا يحبّذ وجودي ولا يستسيغ شخصيتي.

- سامي، فيني حاكيك على انفراد لو سمحت؟ – توجّه وسام بالكلام إلى سامي بعد أن حيّاني بعينَيه بصمتٍ دون اهتمامٍ كبير، ما أثار استيائي نوعًا ما.

لم أكن قبل هذا الموقف آبه بأن أكون شخصًا مرغوبًا به أم لا. كان الأمر بالنسبة إليّ سيّان. ولكنّني شعرتُ حينها بأنّني أريد التواجد معهما والبقاء بقربهما. نظرتُ إلى سامي منتظرًا ردّه:

- طبعًا وسام. بس كنت رايح مع آدم ناخد فنجانين قهوة. إذا

(*) (Ragnarök) وتعني في الميثولوجيا الإسكندنافيّة نهاية العالم، أو المعركة النهائيّة بين الآلهة والتي ستفضي إلى موتهم جميعًا ودمار جميع العوالم والمخلوقات تمهيدًا لانبثاق عالمٍ جديد أكثر صلاحًا.

بتحب تعال معنا - أجاب سامي.

أشعرني جوابه بالراحة. أحسستُ أنّني أريد معانقته لاحترامه وجودي وعدم تركي وحيدًا والذهاب مع صديقه، هذا تقديرٌ لي لطالما كنتُ أحلمُ أن أنعم به!

- إي وسام. تفضّل معنا! - قلت له بلطفٍ وتردّدٍ وأنا أنقّل نظري بينه وبين سامي.

- طيّب - أجابني وسام باقتضاب وكان يبدو مرتبكًا جدًّا، واتجهنا معًا نحو مقهى الجامعة.

حتّى تلك اللَّحظة لم تكن العاصفة في الحقيقة قد اقتربت بما يكفي. كل شيء كان يمكن له حتى ذلك الحين أن يسير بشكلٍ مختلف. ما زال من الممكن تدارك حمّام دمٍ وتوفير حربٍ قد قلبت موازين العالم. ولكن غباء السلطة وتعنّتها كان وراء كل ما جرى منذ ذلك اليوم، وحتى يومنا هذا. حتّى تلك اللحظة كنّا نفهم الأمور كما أرادت لنا السلطة أن نفهمها. التظاهر بالنسبة إلينا لم يكن يعني أكثر من التظاهر ضدّ سياسات بعض الدول الغربيّة، أو مسيرات التمجيد والتأييد والتطبيل للصوصٍ لم يتركوا في حصيلتنا سوى القهر والفقر والعذابات. الثورة كانت تعني لنا ثورة الثامن من آذار التي لم تكن في حقيقتها سوى تسلُّطٍ مافياويٍّ على الحياة العسكريّة واستئثارٍ عسكريٍّ بالسلطة المدنيّة. الحرّية لم تكن تعني لنا سوى حرّية البعث التي تتوسّط شعار الحزب، والتي تقتصرُ في فكر الحزب على التحرُّر العربي من الاستعمار ولا تلقي بالًا للحرّيات السياسيّة والاجتماعيّة والفرديّة. الكرامة بدورها

كانت لا تذكّرنا سوى بفريق كرة القدم الحمصيّ المرموق.

ولكن كيف كان لجدران الرعب تلك أن تتهاوى بتلك السرعة؟ كيف أمسى ذلك الصرح الذي كنّا نخشاه ونهابه أوهن من بيت العنكبوت في أعيننا؟ كيف انتفى الخوف فجأةً من قلوبنا؟ وحدها معجزةٌ كانت قادرةً على تحويل اهتمامنا فجأةً من الحفاظ على المصلحة والأمان الشخصيّ وتجنّب الأذى على حساب الصمت، إلى الفكر الجمعيّ والتضحية في سبيل وطنٍ أجمل وحلمٍ ورديٍّ ما زال يغازل خواطرنا ويُبقي الأمل في ضمائرنا حيًّا ويحافظ على ياسمين أرواحنا فوّاحًا مزهرًا.

هكذا كانت الثورة. كانت لكمةً لأنفسنا في المقام الأول، وصفعةً على وجه سُلطة الاضطهاد المذلّة، ثم بصقةً في وجه عالمٍ منافقٍ لم يكن يومًا إلّا شريكًا في قتلنا واكتفى بالصمت بينما المقاصل لا تنفكّ تهوي على رقابنا حاصدةً أرواحنا بغير وجه حقّ.

- وسام! مانك على بعضك. شو القصة؟ - سأل سامي.
- ولا شي. لا تاكل همّ - أجاب وسام وهو يقرّب فنجان القهوة من فمه وينظر حوله.
- يعني أنا ما بعرفك! أنت صاحبي. شو الموضوع؟ - ألحَّ سامي في السؤال.
- خلص سامي. قلتلك ما في شي.

شعرتُ أن وجودي ثقيل، ما جعلني بعد برهةٍ من الصمت أن أستأذن بالمغادرة، إلّا أن وسام قاطع نهوضي قائلًا:

- أقعد يا آدم. أقعد ولا يهمك.
- لأ أنا مشغول شوي ولازم أمشي - قلت له.
- آدم. خلّيك شوي لو سمحت - قال لي سامي فعدت للجلوس.
- أنا بعرف شو زاعجك يا وسام - قال سامي ثم استطرد:
- آدم صاحبنا. لا تخاف وفشّ قلبك.
- ضربوا الناس بدرعا - همس وسام بحزنٍ وحذر.

كان سماعي لتلك الجملة هو بمثابة نقطة تحولٍ كاملٍ في حياتي. لربما تمثّل تلك اللحظة أول شعورٍ حقيقيٍّ بالتعاطف من قبلي. هل قُتل أحدٌ حقًّا؟ أيعقل؟ ولماذا؟

تابع وسام حديثه بحرقة:

- أنا شفت الصور. القتلى كانوا بالأرض. بس لأنّهن تظاهروا ضد النظام!
- ليش مستغرب يا وسام؟ عفكرة أنا كنت متوقع هذا الشي - قال سامي.
- أنا مستغرب من فكرة وحدة بس. إنّه كيف ممكن إنسان يتحوّل فجأة وبلحظة وحدة من بريء إلى قاتل! ومن جهة تانية، كيف ممكن يتحوّل إنسان بلمح البصر من مواطن إلى ضحيّة، ينقتل بدون ذنب! لو شفتوا كيف كان الدم معبّي الأرض! حدا بيقدر يستوعب كيف تغيّر وجه العالم خلال ثانية وحدة بس؟ كيف انقسم مجتمع كامل بهي اللحظة؟

قدّيش كان حجم سواد وتعاسة اللحظة اللي انضغط فيها ع الزناد بتاريخ بلدنا؟ معقول نحنا شو بائسين ومجرمين؟ معقول نحنا كيف قادرين نتحوّل لوحوش؟ أنا بعتقد إنّه اللي صار ما رح يمضي ببساطة. هي وصمة عار! ما لازم نسكت - كان التأثّر الشديد يبدو على وسام وكانت عيناه السوداوان تلمعان بشدّةٍ تدريجيًّا.

- أنا رح اختنق هون. خلّونا نمشي - استطرد وسام، بينما كنت لا أزال وسامي نفكّر في كلامه.

عدتُ إلى المنزل، بدّلت ملابسي ثم انطلقت إلى متجر العم الياس. كنت أتوق لرؤيته، أريد منه ببساطةٍ أن يشرح لي ما يجري، أو يبيّن لي وجهة نظره على أقل تقدير، علّه ينتشلني من ضياعي وتوتّري ذاك، وشعوري بأنّني لا أفهم العالم أبدًا.

أردت الذهاب مشيًا على أقدامي. رحتُ أنظر حولي متأمّلًا كل تفصيلٍ صغير. آهٍ يا دمشق الجميلة. يا عروس الحرّية الموعودة. يا سيدة الأماني ومنتهى الأحلام، كم أحبّك. دمشق، تلك المدينة البعيدة التي أتصوّرها الآن فتاةً شابةً ترقصُ وسط النار. ترقص وترقص لأن الجندي قد غطّى عينيها بقماشةٍ خضراء ليغرقها في وهمها، ورفع فوق رأسها السيف لتواصل الرقص. حتى جاعت، وعطشت، وتعبت، وانهارت.

نعم. لقد كانت تلك هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بانتماءٍ خاصٍ وحبٍّ لتلك المدينة. حتّى وجوه الناس بدت لي أكثر أُلفةً وأقرب من

ذي قبل. كأنّني وبشكلٍ مفاجئٍ وجدت وطني الذي أسكنه منذ قرابة عشرين عامًا فعلًا. لقد كنت أعيش هناك منذ زمن ولم أعرف في حياتي مكانًا آخر، لكن ذلك اليوم كان يوم تنبّهي لمحيطي وكأنّني صحوت لتوّي من غفوةٍ استمرت عشرين سنة.

كانت ولادتي الثانية. الأولى كانت هبوطًا، ولكن الولادة الجديدة تلك كانت تساميًا، ترقيةً إلى رتبة إنسان. إنسانٌ قادرٌ على التعاطف مع الآخرين. إنسان مشاعره حيّة، كما ضميره. يستطيع أن يحزن لاضطهاد أناسٍ لا يعرفهم ولم يرهم يومًا. يغضبه أن يُحكم العالم الذي ولد فيه بالظلم والوحشيّة. الولادة الأولى كانت مصادفة، ربما كانت غلطةً، دفعت ثمنها سنينَ طويلةً دون أن أشعر أنّني كنت مضطرًّا لذلك. لكن الولادة الثانية قد تمخّضت عن إرادتي الإنسانّية، وسأواجه فاتورتهما مهما كبرتُ أو صغرتُ، بقلبٍ ممتلئٍ بالإيمان بثورة الشعب المكلوم.

2

ناولته فنجان القهوة وأشعلت سيجارةً بينما أتأمّل صمته الذي بدا يومها مختلفًا عن كل مرّة:

- خير عمّي! شاغل بالك شي؟
- لا.
- طيّب سمعت الأخبار اليوم؟
- أي أخبار بالضبط؟
- صار في حظر جوي على ليبيا!
- بعرف.
- طيّب شو عم يصير هون؟

صمت ولم يجب فتابعت سؤاله:

- أنا بدّي أعرف رأيك يا عمّي.
- رأيي بشو بالضبط؟
- باللي عم يصير عنّا!

عاد لصمته واستمر يتأمل فنجان قهوته لفترةٍ طويلة، ثم أجاب باغتمام:

- ما بعرف.

كان واضحًا أنّه يريد قول شيء، لكنّه إمّا لم يكن يجد السبيل إلى

التعبير المناسب وإمّا أنّه كان متردّدًا بالبوح بما في صدره:

- عمي، أنا بصراحة توقّعت أسمع منّك أكثر من كلمة "ما بعرف". أنا بدّي أفهم منّك أنت بالذات شو عم يصير.
- كل شي واضح يا آدم. كل شي واضح.
- طيّب أنا ما عم أفهم شي. صحيح اللي عم نسمعه؟ مزبوط اللي عم يصير بدرعا؟
- افتح عيونك ورح تشوف كل شي. إفتح عيونك، وخلي ضميرك دائمًا حاضر. لا تتخذ مواقفك إلّا بعد ما تحكّم ضميرك.
- يمكن فهمت عليك.

بدأ يحرّك جسده كأنه غير مرتاحٍ في جلسته. مسح شعره من اليسار إلى اليمين بكفّه وراح يبحث عن ولّاعته ليشعل سيجارةً، فمدّدت له كالعادة خاصتي:

- عمّي. كل الناس ضايعين هون. ما حدا فهمان شو لازم يعمل.
- إنتو الأمل اليوم يا آدم. أمل بلد كامل. خلّوا عندكم حس عالي بالمسؤولية. البلد رح يكون بأمانتكم وإنتو رح تحدّدوا مصيرو. هالبلد تعبان كتير. وبحاجتكم وبحاجة وعيكم. مرّة قرأت اقتباسًا لفيكتور هوغو بيقول: "وتعلّم أن يستعيض عن حنان أمّه الراحلة بحنان أمّه التي لن تموت، الوطن!".

سالت دموعي بينما أطفأ سيجارتي وسرحت في عينَيه بضع ثوانٍ ثم انفجرت باكيًا، فعانقني بحرارة. لقد عانقني بحنان أب، بعطف صديق،

وبذراع أخ. راح يبكي هو الآخر بينما. يردّد:

- انتبه على حالك يا أبني. أي شي بتحتاجه لا تتردّد وقلّي!
- شكرًا يا عم الياس. شكرًا! - قلت له بينما أرتجف باكيًا بين يديه:
- إحكي مع دارين واتطمن عليها!
- طيّب - أجبته بينما أبتعد عنه وأمسح دموعي.

لم أكن أفهم ما يجري، أو أنّني كنت أرفضُ الفهم. هل يودّعني؟ ماذا سيجري؟ قلبي كان ينبض بسرعةٍ كبيرةٍ بينما أنظر إلى عينيه وهو يدخّن وينظر إلى سيجارته، كأنّه كان يعلم أن دربنا سيكون محفوفًا بالأحزان ومضرّجًا بالدموع. كأنّه كان يعلم أنّنا على حافةٍ زمنيّةٍ وأنّنا سنصعد إلى السماء مرّة، ثم سنسقط بعدها ألف مرّة.

خرجتُ على الفور من المتجر لأتّصل بدارين. أشعلت سيجارتي التالية واخترت رقمها ولكنّها لم تجب، فزاد ارتباكي وفزعي. عدت إلى الداخل ولم أخبر العم الياس بشيء. عاودت دارين الاتصال بي بعد نصف ساعةٍ فخرجت مجدّدًا للردّ عليها:

- دارين! شغلتِ بالي! وين كنتِ؟
- آسفة آدم، كنت مشغولة شوي.
- بشو مشغولة؟ أنتِ وين؟
- كنت بصلاة العشا. لا تاكل هم. أنا بمكاني وكل شي منيح.
- الله يتقبل. معلش اسأل سؤال؟
- أي طبعًا. تفضل!

- أنتِ عم تصلي من قلبك؟
- لا تشغل بالك فيني روحي! أنا منيحة هون.

بدا في صوتها عدم ارتياحها.

- طيّب يا دارين. أنا بدّي شوفك. ممكن؟
- أكيد. بس شغلت بالي يا آدم. في شي؟ صوتك مو عاجبني! صاير معك شي؟
- لا تخافي مافي شي. بدّي شوفك لأنّي اشتقتلك بس.
- وأنا كمان اشتقتلك كتير – قالت وقد تبدّلت نبرة صوتها وكان واضحًا أنّها تكابر ابتسامتها المحبّبة.
- طيّب وين وإيمتا بيناسبك؟
- بكرا الساعة تلاتة، منيح؟ بالقنوات عند مدرسة السعادة.
- تمام. انتبهي على حالك يا دارين.

أقفلتُ الخط وعدت إلى داخل المتجر لأجد العم الياس يتجهّز للمغادرة. نظرتُ إليه بتساؤل:

- أنا تعبان شوي يا آدم. رح روح عالبيت. وأنت كمان روح ارتاح – قال لي وهو يرمي سترته الجلدية البنّية على كتفيه.
- تمام يا عمّي. أنا بكرا يمكن اتأخر شوي عن المحل بعد الظهر. رح روح قابل دارين بعد الدوام.
- ماشي يا آدم – قال مبتسمًا واستطرد:
- سلّم عليها وانتبهوا على بعض منيح. معك مصاري؟

- أكيد معي يا عمّي. ولا يهمّك. تيسّر أنت وأنا بسكّر المحل على مهلي بعد ما رتّبه شوي.
- ماشي. بخاطرك يا آدم - قال لي وهو يجمع علبة السجائر والهاتف والمفاتيح عن الطاولة، قبل أن يصافحني بقوة وهو ينظر في عينيّ.

3

لم يكن لقائي بدارين سوى تأكيد جديد منها على أنّها ستبقى حيث كانت. لقد وصل الأمر بي أن صرت أتوسّلها أن تعود إلى المنزل، لكنّها قاومت الفكرة وبشدّة:

- ما رح أرجع ع البيت أبدًا يا آدم، مع إنّي زعلانة على بابا كتير، بس ما رح أرجع!

كنت أعلم أنّها غير مرتاحةٍ البتّة حيث كانت تقطن، فالطقوس هناك من المستحيل أن تناسب فتاةً توّاقةً إلى الحياة ومندفعةً كدارين، لكنّ شيئًا ما كان يمنعها من ترك ذلك المكان. كان من المعروف عن الآنسات قربهنّ من السلطة، وبعد الثورة ميلهنّ للنظام، وكانوا كثيرًا ما يحاولن جذب الفتيات الجميلات والثريات على وجه الخصوص ويدفعنهن لاعتناق أفكارهنّ وممارسة طقوسهنّ، ما دفعني للخوف على دارين.

لربما لمسَت القلق في كلامي، وجرّبت أن تطمأنني قائلة، بينما تحرّك فنجان قهوتها بشكلٍ دائري:

- لا تخاف عليّ، أنا بعرف منيح شو عم أعمل ودارسة كل خطواتي. المكان اللي أنا فيه مانه سيء! هنيك في ناس كتير أوادم وأولاد ناس!

لم أستطع أن أجيبها سوى بأن أهزَّ لها رأسي على مضض.

***

تتالت الأحداث في الفترة التالية بوتيرةٍ عاليةٍ جدًّا. انتشر الغضب على الحكومة وعلى تعاملها الوحشي مع المتظاهرين كالنار في الهشيم، ولم يعد الأمر يقتصر على درعا ومحيطها، بل امتدّت عدوى التظاهرات لتشمل مدنًا وقرى مختلفة.

كنت أعلم أن عددًا من أصدقائي يشاركون في الاحتجاجات دومًا، إلّا أنّني تردّدت كثيرًا في الشهور الثلاثة الأولى. كنت وبمجرد السماع بالتظاهرات أرتجف وأخاف وأهرع بعيدًا عن الناس. العم الياس كان بدوره يتابع الأخبار يوميًا بالتفصيل ولكنّه لم يشارك حتى ذلك الحين في أي تظاهرة. كم كنت أتمنى لو كانت لدي الجرأة للمشاركة. كنت أقف أمام مرآتي واصفًا نفسي بأبشع الأوصاف وأقول دومًا في داخلي: "أنا أخاف على روحي رغم أنّني لا أملك حتى عائلة أخشى عليها ألم الفراق. ليس لدي أمٌّ أخاف عليها من مرّ الفقدان ولا أبٌ أخشى عليه من الوحدة عند رحيلي! لماذا كل هذا الحرص؟ أليس حريًّا برفاقي الخوف أكثر منّي. كلهم يملكون حياةً أكثر هناءً من حياتي ولديهم ما يستحق أو ما يرغبون بمواصلة العيش لأجله".

انتهى بي الحال في لحظةٍ ما بأن انزويت لعدة أيامٍ وحيدًا في المنزل بحجّة أنّني كنت مريضًا. يا إلهي كم كنت أكره نفسي وألعن جبني وتخلّفي عن اللحاق برفاقي الثائرين الذين كنت أرى في أعينهم العتب واللوم، لا بل الاحتقار أحيانًا.

كان شعور العجز يأكل قلبي، حتّى أنّني شارفت على إيذاء نفسي. كنت أشعر ببساطةٍ بفراغي الداخلي التام، أردت الإحساس بأنّني إنسان

بلحمٍ ودم، فأمسكت بسكينٍ وأردت جرح يدي، ولكنّني لم أستطع أن أدنو بالسكين من جلدي. رميتها أرضًا وانفجرت باكيًا. شعرت أنّني أخذل جدّي بتردُّدي ذاك. كنت أشعر أنّني شريكٌ في قتل أحلامه ووأد آماله التي كان يرعاها بصمت. حتّى هو كان أكثر شجاعةً منّي، ولا أعتقد أنّه فخورٌ بي أبدًا. ماذا عساي أقول له لو كان حيًّا؟ هل أقول له إنّني اخترت الصمت بينما ضمائر الناس من حولي تلتهبُ غضبًا؟ هل أقول له إنّني فضّلت الخنوع لجبني وخوفي من التضحية في سبيل حلم الملايين بالحرّية والعدالة؟ لقد كانت أفكاري تلك تحرقُ روحي ببطءٍ، بهذه البساطة.

بينما كنت في المنزل غارقًا في المطالعة لإلهاء نفسي عن أفكاري، رنَّ هاتفي. لقد كانت دارين هي المتصلة:

- أهلًا دارين!
- كيفك آدم؟ أنت منيح؟ - قالت لي وقد لمستُ حزنًا في صوتها.
- إي. وأنتِ بخير؟
- أنا بخير. أنت وين؟ لازم شوفك.
- أنا بالبيت.
- طيّب أنا عشر دقايق وبكون عندك!
- ماشي، بانتظارك!

كانت المرّة الأولى التي تزورني فيها دارين في شقّتي الصغيرة. تفاجأت جدًّا بمجيئها، فنحن اعتدنا أن نلتقي بين الحين والآخر في إحدى الحدائق أو المقاهي التي تعجُّ بها مدينة دمشق.

فتحت لها باب الشقّة فدلفت إلى الداخل بشكلٍ سريعٍ واعتباطي كأنها تهرب خوفًا من خطرٍ ما في الخارج. خلعت عن رأسها الحجاب، ثم همست دون أن تنظر إليّ:

- مرحبا روحي.
- أهلًا دارين. شغلتِ بالي شو القصة؟ - قلت لها بينما أتبعها إلى الداخل.

كانت شقّتي المؤلّفة من غرفةٍ واحدةٍ للجلوس والنوم والطبخ وكل شيء تقريبًا، فيها شرفة صغيرة. لا أستطيع تسميتها شرفة. لقد كانت أشبه بسطح منزلٍ قديم ممتلئة بصحون استقبال الأقمار الصناعيّة (الستالايت) وحبال نشر الغسيل وبعض الخُردة. وضعت فيها كرسيًّا بلاستيكيًّا وطاولةً خشبيّةً صغيرةً وكنت أخرجُ إليها للتدخين.

نظَرَت دارين حولها بفضول:

- كنت متخيّلة شكل غرفتك غير هيك!
- ما عجبتك؟
- مبلا. حلوة. - قالت دون قناعة، وراحت تجول بعينَيها وكأنّها تسألني أين عليها أن تجلس.
- بتحبي نقعد ع البلكون؟ - سألتها وأنا أنظر إلى شعرها الذي ما زال يحافظ على جماله وبريقه كما كان دومًا.
- لا. خلينا هون.
- طيّب رح ساوي قهوة جديدة. قهوتي بردت أصلًا.
- يا ريت!

توجّهتُ إلى صنبور المياه لأغسل الركوة وأملأها مجدّدًا وأنا أقول لها:

- فيكي تقعدي ع الكنبة. خدي راحتك. كيف حالك؟
- أنا منيحة - أجابتني وصمتت.

وضعت ركوة القهوة على نارٍ هادئة وسألتها بفضول:

- وضعك مو عاجبني! شو القصة؟
- حاسّة حالي مشتاقة لبابا، حتّى اشتقت لياسمين. تخيّل!
- طيّب ما صار لازم ترجعي للبيت؟ لأيمت رح تبقي عايشة بهداك المكان؟

أخذ التوتر ينال من دارين وراحت ترتجف وتقضم أظافرها، ناظرة إلى زاوية الغرفة تكابر دموعها.

- دارين! فشّي قلبك. لا تتركي شي جواتك!
- أخدوا فوّاز الأسبوع الماضي - قالت لي وبدأت تبكي بحرقة.
- فوّاز اللي معك بالدفعة ما غيره؟ مين أخده؟
- مين يعني؟ المخابرات. أخدوه بس لأنّه شكّوا فيه إنّو عم يطلع بالمظاهرات. واليوم طلع ورحنا زرناه بالبيت.
- إي الحمد لله عسلامته! كيفه؟

رفعت دارين عينيها اتجاهي، فرأيت دموعها تسيلُ على خدّيها وتنهمر قطراتٍ على حضنها:

- سلامته؟ ما حكى معنا ولا حرف! - قالت دارين قبل أن تمسح دموعها بكفّيها، واستطردت:

- تخيّل يا آدم. تخيّل شخص متل فوّاز ينضرب بهالشكل. جسمه كله علامات ضرب وتعذيب! وكلّه ليش؟ لأنه شاكّين بإنه عم يتظاهر؟

كان فوّاز أحد أصدقاء دارين المقرّبين في الجامعة. يحمل ذاك الشاب ملامح أنثويّة حتّى يظنّه المرء فتاةً وليس شابًّا. لطيف جدًّا وخلوق. كبرَ كشابٍّ يتيم الأب ووحيد بين أخواته الأربع.

لم أدرِ ما عليّ أن أجيبها. في هذه المواقف يلبسنا العجز. دموعها وكلماتها كانت تحفر في قلبي. كم احتقرت نفسي حينها:

- الظلم صعب يا دارين. ما في أصعب من الظلم.
- أنا وأنت أكتر حدا بيعرف أديش الظلم صعب، صح؟
- يمكن!
- أنا مستحيل أسكت بعد اليوم. رح أطلع شو ما صار. اللي عم تعمله الدولة فظيع. وأنا مستحيل أبقى عم أتفرّج والناس عم تموت وتتعذب!

تفوّهت دارين بما كان يتوجّب بي أنا قوله. هي الأخرى أكثر شجاعةً منّي وأنقى ضميرًا. لماذا أنا عاجزٌ هكذا عن التضامن معها ومع شعبي المنتفض برمّته؟ لماذا أنا جبانٌ هكذا؟ نهضتُ وتوجّهتُ نحو طاولة المطبخ وعدت إلى جانب دارين حاملًا فنجانَي القهوة. ناولت أحدهما لدارين التي أخذته منّي بيدٍ مرتجفة.

- إهدي يا دارين! روّقي أعصابك! - قلت لها بصوتٍ هامدٍ ومنكسر.

- موجوعة كتير يا آدم. موجوعة من هالعالم كلّه، من كل الظلم والقهر والشرّ بهالعالم.

أمسكتُ يدها اليسرى ونظرتُ في عينيها:

- أنا معك. ما رح أتركك بعد اليوم وحيدة! حتّى وجعك رح شاركك ياه!

أجهدتُ نفسي كثيرًا حتّى استطعت أخيرًا النطق بتلك الكلمات. ابتسمتْ دارين بعدها! لقد أصبحتُ منذ ذلك اليوم بفضل دارين جزءًا من عالمي ومحيطي. لم يعد آدم بعد تلك الكلمات كما كان قبلها أبدًا.

4

وجدت نفسي فجأةً وسط الجموع الغاضبة. لم أكن في البداية أستوعبُ ما يجري تمامًا. كان الجميع حولي يهتفون: "الله، سوريّة، حرّية وبس". الأشياء الثلاثة التي كنت أجهلُ فحواها بشكلٍ كبير.

"الله.." لم يكن لدي تصوّرٌ محدّدٌ عنه أبدًا. كنت أحسب أنّه لا بدَّ أن يكون رجلًا وقورًا بلحيةٍ طويلةٍ بيضاء، كما لم أكن قد عرفت عنه الشيء الكثير، ولم أسمع كلامًا عنه إلّا في المرّات القليلة التي اصطحبني فيها جدّي إلى المسجد قبل أن ينال منه المرض. لقد كانت خطبة الجمعة مرّةً تتحدّث عن الحجّ، ومرّةً أخرى تتحدّث عن التكافل الاجتماعي. كانت بثينة خلال طفولتي تهمسُ لي أحيانًا عندما تضيق ذرعًا بي: "الله ياخدك ويريّحني منّك"، حتّى صرت أخال الله متوحّشًا يأخذُ الأطفال ليريح معيليهم منهم. صرتُ أخشى أن يكون لها ما تأمل، ولكن إلى أين عساه يأخذني؟ جدّي كان يقول إن الله يأخذ الكذّاب ليحرقه بالنار، لهذا كنتُ لا أتجنّبُ شيئًا أكثر من الكذب. في هذه الحالة سيأخذني الله في حال استجاب لنداءات بثينة، إلى مكانٍ آخرٍ غير النار، لأني لم أكن بكذّاب! هذا كان ظنّي.

و"سوريّة.." فقد كانت بالنسبة إليّ باختصارٍ تحيّة العلم وصفعة المدير. عصا أستاذ العسكريّة ووحشية مدرّس الرياضيات، وحزن

مدرّس اللغة الإنجليزية الشاب. بطريقةٍ أو بأخرى كانت حارات دمشق وعلاقتي بعائلتي وبجدّي وخروجي المتكرّر معه شيئًا لا يحدث في سوريّة. تعلّمت أن أترك سوريّة كل يومٍ تحت مقعدي المدرسي، لتنام هي في البرد، وأتنقّل أنا متحرّرًا من ثقلها بين عالم الظلم في منزل بثينة، وواحات الحكايا القديمة في دمشق مع جدّي.

أمّا "الحرّية".. فكانت لا تعني بالنسبة إليّ أي شيء. كلمةٌ أصرخ بها بين الحين والآخر عند ترديدي لشعار الحزب، أو أراها على سور المدرسة قرب صورة القائد "الخالد"، لكنّها لا تحملُ أي معنىً، بل كانت تُستعمل في الحياة العامة خارج السياق. أربعة أحرفٍ لا تشكّل أي شيءٍ سوى شعار فارغ، جمعها التجرّد فقط، وعند ذكرها تتراءى لي صورة ذلك الرجل. أي أن الحرّية كانت تتماهى مع صورة المستبدّ، بطريقةٍ ساخرة.

سألت نفسي: "كيف أهتف بأشياء لا أظن أنّني أفهمها؟"، ولكن مع الهتاف بها للمرّة الثالثة كان قد تبدّل كل شيء. كأنّه تمَّ للتو إعادة ضبط ذاكرتي على الصفر. فبدأتُ منذ تلك اللحظة بتعلُّم كل شيء ورحت أنادي: "الله.. سوريّة.. حرّيّة.. وبس".

لقد كان معظم المتظاهرين من فئة الشباب. كذلك كانت ثورتنا، ثورة الشباب. وكانت شابّةً هي الأخرى، ولا تزال، كما وُلدت. لم يكن الظلم كافيًا إذًا لإشعال الثورة، بل كنّا نحتاج أن ندركه بعقولنا ونراه بأعيننا ونقول بثقةٍ: هذا ظلم! إدراكنا له هو ما فجّر غضبنا. كان ذلك ظلمًا صمتت عنه أجيالٌ سابقةٌ لعقود، لم نلمهم يومًا ولسنا بصدد معاتبة

أحد، كنا نريد منهم الدعم فقط، أو الصمت، ولا يمكن لأحدٍ أن ينكر أن الشبّان والشابّات حينها كانوا أكثر شجاعةً من كل الأجيال السابقة، بل من كل البشر على الكوكب.

علت الأصوات بعد ذلك: "واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد" ولكن من هو الشعب السوري؟ وهل يعنيني ذلك الشعب؟ ما الرابط المشترك بيننا جميعًا؟ كنت أمشي مع الجموع، على يميني دارين وقد غطّت رأسها بالحجاب الأبيض وعينيها بنظارةٍ شمسيّة، كان العرق يتصبّب على جبينها الناعم وقد تغيّر لون وجهها إلى الوردي. نظرتُ حولي في الوجوه الكثيرة. حاولت تعرُّف أحدها عبثًا. لا أعرف أحدًا، إلّا أن الجميع كان يبدو أنهم يعرفون الجميع. لقد كانوا وكأنّهم أبناء عائلةٍ واحدة، أو أصدقاءُ مقرّبين على أقل تقدير. شعرتُ أنّني الغريب الوحيد بينهم جميعًا. صوتهم يصدح بشكلٍ مهيبٍ بثَّ القشعريرة في جسدي. مشينا ومشينا. كنت لا أزال مسحورًا ومشدوهًا لعظمة الحدث، قلبي يرفرف في صدري وأحاول أن أشيح بوجهي عن الجموع خوفًا من أن يلحظوا تلعثمي، لكنّني كنت أتوسّطهم جميعًا، ما من جهةٍ أستطيع أن أدير وجهي إليها دون أن ينظر إليّ أحدهم مبتسمًا بسرورٍ ونشوة.

اختلطَت الأصوات فجأة، ولم يعد مسيرنا منتظمًا كما كان. صار الناس يصرخون ويتفرقون في جميع الاتجاهات. أمّا أنا، فلم أكن أعرف أين كنت أساسًا.

- هجموا! تعال معي - قالت لي دارين بينما تدير ظهرها لي وتركض.

التفتُّ حولي بارتباكٍ وتبعتها. ركضنا وركضنا. شاهدت أثناء الركض رجالًا يقبضون على كل من يقع تحت أنظارهم وينهالون عليه ضربًا دون رحمة. كانوا يضربون الشبّان على رؤوسهم ويسحبون الفتيات من شعرهم إلى السيارات المركونة على طرفي الطريق. بدأنا نزيد من سرعة ركضنا بينما الرعبُ يلتهم قلبي. تعثّرَت أمامي دارين وسقطت أرضًا. فانحنيت إليها:

- دارين! صرلك شي؟ أنتِ منيحة؟
- أنا منيحة – أجابتني وهي تمسك ركبتها بيدها.

ساعدتها في النهوض وواصلنا الركض. وصلنا إلى مفترق طرقٍ فقالت دارين لي بينما تمسك يدي خلسةً:

- ما لازم نمشي مع بعض أكثر. الوضع متوتّر. أنا رح روح من هون ع السكن قبل ما يحسّوا عليّ. وأنت روح لعند عمو الياس، أو لأ، روح ع البيت أحسن.

تركت دارين يدي ومضت مسرعة. تابعتها بنظري حتى غابت عن عينَيّ. توجّهت إلى متجر العم الياس وكانت قواي خائرةً تمامًا. رحتُ أنظر إلى عيون كل الرجال في الطريق. صرت أنظر إلى عينَيّ كلٍّ منهم على حدة بخوفٍ وتوجّس. ألا يمكن أن يكونوا يخفون تحت ثيابهم هراواتٍ وسكاكين؟ أسيلاحظون الخوف على وجهي؟ أم أن حَمَلة السكاكين والعصي لا ينتمون إلينا وما عاشوا يومًا بيننا؟ بلى! لقد كانوا يبدون مثلنا تمامًا، يشبهوننا جدًّا. هم شركاؤنا الذين نتقاسم معهم خبزنا وماءنا. لماذا كانوا يهجمون على الناس بعنف؟ ولماذا كل ذلك الحقد؟

لقد رأيت المتظاهرين، كانوا أناسًا مسالمين. لو قُبض عليّ كنت سأسأل نفسي ألف مرةٍ بينما أُضرب: "ماذا فعلت؟ ما هو ذنبي؟ وهل كنّا نهتف بما هو عجيبٌ أو ممنوع؟ لقد هتفنا بالله وسوريّة والحرّية فقط. أم أن شعار (الشعب السوري واحد) قد أثار سخطهم فصاروا وحوشًا ضارية! إذًا، أولئك الرجال ليسوا إلّا أعداء الله وسوريّة والحرّية، ووحدة الشعب في هذا الوطن المرعب، لهذا ضربونا". كان الله وسوريّة والحرّية في مواجهة الشر والفساد.

5

- مرحبا عمّي - قلت للعم الياس الذي كان يمسكُ هاتفه النقّال، بينما أقذفُ بحقيبة الظهر خاصتي على الأرض وأرتمي على الكرسي.
- أهلين آدم. هلأ كنت رح اتصل فيك. انشغل بالي عليك. صحتك صارت أحسن؟

لم أجبه. كان الارتباك والخوف يسيطران عليّ.

- آدم! خير؟ شو صاير معك؟ - سألني العم وهو يضع هاتفه على الطاولة وينظر إليّ باستغراب.
- ما في شي يا عمّي. بدّي مي. بدّي أشرب بس.

اقتربَ العم الياس منّي ووضع يده على كتفي. شعرَ بكل تأكيد بنبضات قلبي الذي يكاد ينفجر.

- أنت منيح يا ابني؟
- أنا منيح. لا تاكل همّي.
- طيّب رح جبلك مي باردة.

بعدما غادرَ العم الياس المتجر إلى البقّال المجاور لإحضار الماء. نظرتُ حولي وبدأت أفكّر: "كم من إنسانٍ قُتل اليوم؟ كم من أحلامٍ وُئدت وكم من آمالٍ دُفنت؟ كم من رؤوس مُعست تحت أقدام السلطة

وشبيحتها؟ كم من شخصٍ شريفٍ تحوّل إلى جثّةٍ لأنّه فتح فمه فقط؟ وكم من مواطنٍ بريءٍ تحوّلَ إلى مجرمٍ واختار مواجهة أبناء جلدته والاصطفاف خلف مصّاصي الدماء، وهادمي الأحلام؟ ما أفظع كل ما يجري".

لم أكن حينها أدري حجم الفظاعة القادمة. كان ما يحدث لا يتعدّى كونه جرعة القهر الأولى، والتي سيليها جرعاتٌ أكبر من الحزن والخيبة، ستحيل معظمنا وحوشًا وتفقدهم القدرة على الإحساس بطعم المرارة. كان فقط اللسعة الأولى التي يتلقاها جسدٌ على وشك الاحتراق، والذي مع الوقت يفقد كل قدرةٍ على الشعور بالألم بعد موت كل خلاياه الحسيّة التي تملأ كل مسامه. كان ذلك فقط شهادتي الأولى على ولادة حلمٍ سيصير مخاضًا عسيرًا ينتهي باحتضارٍ طويلٍ لوطنٍ يتلوّى منذ عقودٍ بين سندان السلطة الفاشيّة ومطرقة المتعاونين معها من أبنائه.

عادَ العم الياس حاملًا زجاجة مشروبٍ غازيٍّ (سفن آب):

- امسك يا آدم - ناولني الزجاجة وجلس جانبًا وأسند يده إلى الطاولة ناظرًا إليّ بعينَين لامعتَين. تابع:
- أنت كنت بالمظاهرة، صح؟
- إي.
- وشو صار؟ احكي لي!
- ضربوا الناس. ما بعرف مين. بس كان في رجال وهجموا عالمظاهرة!

كان صوتي يرتجف بشدّةٍ. أكاد أنهار بينما أتحدّث إليه.

- حدا ضربك؟ - سألني.
- لأ. هربت مع دارين. ودارين وقعت بالطريق.
- دارين؟ دارين كانت معك؟ وين هي هلأ؟
- رجعت للسكن تبعها.
- مجنونة البنت - قال العم الياس بغضب قبل أن يصمت لبرهة ويحدّق إلى الأرض ويهمس:
- بس بطلة.

لقد نطقَ جملته الأخيرة بحزنٍ واضح.

- دارين هي اللي أخدتني ع المظاهرة - قلت له بفخر.
- انتبهوا على حالكن. دارين طايشة شوي.
- دارين؟ بالعكس. أنا بشوفها واعية كتير!
- دارين طالعة لعمّها!
- لمين؟ لأبي؟
- إي. الله يرحمه. كان أشجع وأنبل واحد فينا وما يخاف من أي شي.

نظرت إلى الأرض بأسى. كان والدي رجلًا شجاعًا ونبيلًا، كما قال العم الياس. لماذا لست مثله؟ لماذا لست كأبي؟ هل لأنّني لم أعرفه يومًا؟ ألا تسكنني جيناته؟

- وشو كان كمان؟ - سألته.
- كيف؟

- احكي لي عن بابا شوي. ما حدا حكى لي عنه من قبل - قلت له بابتسامةٍ حزينة وشفتَين مرتجفتَين.
- أحمد كان صاحبي كتير وربينا سوا.
- وليش ما حكيت لي عنه من قبل ولا مرة؟
- لأنه صعب كتير أحكي عنه، مو لأنك أبنه، بس لأنه الغصة بقلبي.
- طيب أحكي لي، الله يخليك!
- قبل ما سافرع روسيا كان أبوك لسّا شب صغير. أنا كنت بوقتها رفيق عمّك هشام الروح بالروح. كان يحاول يكون معنا دايمًا ويحب عمّك هشام كتير. كان يعشق أخوه، بس عمّك كان ما يحب يكون أبوك معنا لأنّه كان يحسّه عبء، وهاد شي طبيعي. عمّك كمان كان يحب أبوك. كان أبوك بشبابه شخصيّة حلوة وجذّابة كتير. كان أسمر وطويل ويلبس حلو كتير، حتّى كل الشباب اللي بعمره كانوا يغاروا منّه لأنّه كان ببساطة بهداك الوقت شب قادر يفتن كل صبيّة، كان يحب الشعر كتير ومثقف بشكل كبير كتير. بيشبه جدّك. لمّا رجعت من روسيا كانت حالتي النفسيّة صعبة وأحوالي الماديّة بائسة، عمّك هشام بوقتها كان بمشاكل مع زوجته الأولى وكنت يا دوب أقدر شوفه. بس وقتها كان أبوك دايمًا معي وبكل وقت. كان بعده طالب بالجامعة، وقتها تعرّفت عليه أكتر كإنسان عظيم جدًّا. شب كلّه طاقة وحياة وإرادة وشهامة.

بعدها بفترة تخرّج وراح ليخدم بالجيش. كنت روح على حمص كرمال زوره لأنّه ما أقدر أنتظر حتّى ليصير وقت إجازته. بعد ما تسرّح من الجيش تغيّرت شخصيته بشكل كبير، ماتت فيه روح المغامرة وصار بدّه يلاقي أي وظيفة ليستقر. أنا كنت ضد فكرة إنّه يقبل أستاذ المدرسة باللادقية، وجدّك كمان كان معارض، بس ما بعرف ليش أبوك كان مصر عليها وحاسسها فرصة ذهبية. حتّى لما عاش باللادقية وتزوج أمّك رحت زرته أكتر من مرّة، وفي مرّة كنت أنت لسّا صغير كتير، وأجيت لعندكن ع البيت.

- طيب وأمي؟
- أمك كانت إنسانة عظيمة. من عيلة متواضعة بس كانت شديدة الذكاء والثقافة. كانت وحيدة لأبوها اللي اشترط على أبوك إنّه يبقوا ساكنين باللادقية دايمًا، وأبوك من حبّه لأمك وافق. ولو ما أمك حبت أبوك جدًّا وقدرت تقنع أبوها فيه، كان جدّك أبو وليد الله يرحمه ما عطاها لأبوك لو شو ما صار. طبعًا جدّك توفى بعد الحادث بست شهور.
- طيّب وجدّي وستّي أم هشام؟ كيف كانت علاقتهن مع أمّي؟
- كانت أمّك تقدر تخلي أي حدا يحبها بطيبة قلبها وخفّة دمها. ستّك كانت تحبّها كتير، لهيك بثينة كانت تغار منها. ستّك كانت كمان جبّارة شوي، الله يرحمها.

شعرت بسعادة كبيرة وأنا أسمع كلام العم الياس. كانت المرة الأولى التي يحكي لي أحدٌ فيها عن عائلتي. دمعت عيناي. أخرجتُ السيجارة الأخيرة في العلبة وضغطت عليها مكوّرًا إياها بكلّ قوتي:

- ع بالي أشرب قهوة، أحسب حسابك معي عمّي؟ - قلت له وأنا أشعل السيجارة.
- منشرب يا آدم، منشرب - أجابني.

6

في اليوم التالي، كنت نائمًا بعمقٍ عندما رنَّ هاتفي، وبعد وقت قصير ريثما أدرك أين أنا، أجبت عليه:

- آدم. كيفك؟
- أهلًا دارين. صباح الخير. أنا منيح. وأنتِ؟ كيفها رجلك؟
- أنا لازم شوفك! مانك بالدوام اليوم؟ - سألتني وقد لمست في نبرتها العجلة والخوف.
- لا. ما رحت اليوم. خير؟ شغلتِ بالي!
- لازم شوفك ضروري! فورًا إذا ممكن!
- أكيد. وين؟
- أنا هلق حوالي كلّية الحقوق. قديش بدك وقت لتوصل؟
- نص ساعة بكون عندك.
- طيب بتلاقيني بمقصف الحقوق. لا تتأخّر وانتبه على حالك!

هرعتُ من سريري دون أدنى تفكيرٍ أو تردّد. بدّلت ملابسي بسرعةٍ كبيرة، دسستُ محفظتي وهاتفي في جيبي، وشربت كأسَين من الماء قبل أن أنطلق مغادرًا المنزل.

فور دخولي إلى المقصف بحثتُ بعينَي عن دارين. كانت تجلس على طاولةٍ جانبيّةٍ بعض الشيء، وفور اقترابي منها راحت تتلفّت حولها

في جميع الاتجاهات قبل أن تومئ لي بيدها لأجلس:

- دارين، شو القصة؟
- ارتاح هلق!
- أنتِ متوترة كتير! شو القصة؟
- اسمع هلق وخلينا نجيب شي نشربه.

أخذَتْ دارين عصير الليمون وأخذتُ أنا فنجان قهوة. حملت فنجان القهوة إلى فمي، ورشفت منه رشفةً كبيرة:

- آسفة يا آدم. شكلك ما شربت قهوتك بالبيت بسببي - همست لي دارين بلطف.
- لا تقلقي دارين، أنا مبسوط لأنّك بخير. بس احكي لي. شو صاير معك؟

لقد كان المقصف ممتلئًا بالطلّاب والطالبات، ضجيج أصواتهم والموسيقى الغربية الصاخبة التي يشتهر بها، يجعلان فهم الكلام غير ممكن. تنهّدت دارين وعادت للالتفات حولها بقلق:

- مبارح لمّا وصلت ع السكن شافتني المسؤولة عنّا بالسكن، وسألتني وين كنت وليش تيابي وسخين، فقلتلها إنّي وقعت بالطريق لأني دخت. بس واضح إنّها ما صدّقتني وبعد صلاة المغرب حكت وحدة من المشرفات مع رفيقتي وقالت لها إنّهن شاكّين بتصرفاتي وبيعتقدوا إنّي عم شارك بالمظاهرات، لإنّه حسب ما قالوا إنّه هي مو أول مرّة بيلاحظوا عليّ هيك شي.

- إي؟
- فقالتلي وفاء إنّي لازم أترك السكن فورًا. الآنسة اللي خبرتها رفيقتها ومتعاطفة معنا كتير، بس في منهن ناس ممكن يخبروا عنا. لهيك كان من الأفضل نعمل هيك، لأنّه طلعت ريحتنا.

كانت دارين تتحدث بصوتٍ منخفض، لكن نبرة الخوف اختفت من صوتها.

- طيّب هنّي بيعرفوا بيت أهلك؟
- لأ. بس من السهل يعرفوا إذا عرف الأمن بالموضوع. أو إذا وفاء قالتلن عن العنوان، وما بظن تفسد عليّ بعد ما خلتني أهرب!
- دارين، أنتِ متأكّدة من صدق وفاء؟ يمكن عم تورّطك!
- شو مصلحتها تورّطني؟ البنت ساعدتني أكتر من مرة من قبل!
- طيّب. أنتِ لازم تتخبّي هالفترة.
- إي بس وين؟
- قومي معي!

نهضنا على عجلٍ واستقلّينا سيارة أجرةٍ إلى منزلي.

- اطلعي أنتِ وخليكِ بالبيت. أنا رايح لعند العم الياس ع المحل - قلت لها بعد وصولنا وأنا أناولها مفتاح المنزل، قبل أن أستقلَّ سيارة أجرةٍ أخرى إلى متجر العم الياس.

فور إخباري للعم الياس بما جرى، نهض الرجل وتغيّر لون وجهه وراح ينهرني ويصرخ في وجهي لأنّني تركت دارين وحدها، كما أنّه

نعتني بالمتسرّع والأبله لأنّني أخذت دارين لتختبئ في منزلي، ووصف فعلي ذاك بالمخالف للأعراف والعادات، حيث أنّه من غير اللائق نزول دارين في بيت شابٍّ بمفردها حتّى لو كان ابن عمها. كان ذلك آخر ما توقّعتهُ من العم الياس.

لم أرَه في حياتي بتلك العصبيّة والانفعال، كان دائمًا شخصًا هادئًا حتّى أنّني كنت أظن أنّه لم يغضب في حياته مرّةً واحدةً ولم يرفع صوته على أحد. أمرني أن أبقى في مكاني واستقلَّ سيارته من طراز "بيك آب - سكودا" مبتعدًا عن المتجر تاركًا إيايّ في حيرتي.

لم أعرف ما كان عليّ أن أفعل. هل كان قراري خاطئًا عندما تركت دارين في منزلي؟ لقد كان هدفي الأول والأخير هو حمايتها فقط! لم يكن المكان بالنسبة إليّ مهمًّا أبدًا، كانت سلامة دارين مسؤوليةً شعرتُ بها على عاتقي فتصرّفت على هذا الأساس. أحزنني جدًّا كلام العم الياس وصراخه في وجهي. شعرت أنّه لم يقدّر جهودي أبدًا، ولكنّني واثق من أن سلامة دارين كانت تعنيه كما تعنيني تمامًا، وأنّه ما صرخ في وجهي إلّا لأنّه شعر أنّها في خطر. هل من المعقول أن يجبرها على العودة إلى المنزل؟ لا أظن ذلك، فهذا سيشكّل خطرًا مباشرًا على حياتها وحياة عائلة عمّي.

صنعتُ لنفسي فنجان قهوةٍ حملته معي إلى خارج المتجر، وأشعلت سيجارةً ورحت أتأمّل المارّة.

دخلت امرأة مسنّة المتجر وراحت تعاين الأحذية النسائيّة حذاءً حذاءً، فتوجهت خلفها إلى الداخل لكي أبيعها. بعدما اختارت حذاءً

بدأت المرأة بمفاصلتي حتى نفد صبري كليًّا وأخذتِ الحذاء بالسعر الذي أرادته، وما أن خرجَتْ حتى عدتُ إلى الخارج وأشعلتُ سيجارةً أخرى. عاد العم الياس بعد أن أخذ دارين من منزلي إلى منزله لتبقى لدى أخته، كما أخبرني.

- عمّي، أنت مانك مضطر لهاد الشي. أنا ودارين منحل مشاكلنا لحالنا.
- شو عم تحكي أنت؟ - قال لي بتعجّبٍ وقد رفع حاجبَيه وفتح أجفانه على آخرها.
- إي عمّي. هي مشكلة دارين ومشكلتي. أنت مانك مضطر تجيب لحالك وجع راس - قلت له متحدّيًا فقطّب حاجبيه ومطّ شفتيه غاضبًا.
- آدم! هي أول مرة بتحكي معي بهي الطريقة!
- عمّي أنت ما دخلك. أنت ما تحط حالك بمشاكل كرمالنا.

جلس العم الياس على الكرسي، أشعلَ سيجارةً ونظر إلى الخارج وكأنّه يتأكّد أن ما من أحدٍ سيسمعه غيري، ثم قال ببرودة أعصابه المعهودة:

- إسمع يا آدم، إذا كنت مفكّر إني صرت ختيار وكبير فبحب قلّك إنّي عند الجد بحطك أنت وعشر شباب من عمرك بجيبتي. وإذا كنت مفكر إنّه دارين بتخصّك أكتر مني فبقلّك إنّه دارين متل بنتي وأنا بمقام أبوها. أوعك تظن إنّي خبّيت عن عمّك إنّي بعرف وين بنتو وشو عم يصير معها. هشام صاحبي وأولاده أولادي، متل ما أنت متل إبني، كمان دارين.

نظرت إليه بخجلٍ قبل أن أُنزل نظري إلى الأرض، فاستطرد:

- بس أنا مبسوط فيك يا آدم! هلّأ بقدر قول إنّك صرت رجّال. والله وأنت عم تحكي كنت عم شوف أبوك الله يرحمه بعيونك، بس لا تتهوّر واسمع كلام اللي أكبر منك، وإلّا رح يجي يوم وتندم كتير. والندم بشع يا آدم. أنا أكتر حدا بيعرف شو يعني ندم.

- طيّب وداربن لإيمت رح تبقى عندكن بالبيت؟

- بتبقى ع طول! وين المشكلة؟ هاد بيت أهلها وبتبقى فيه ليزول كل الخطر ولنعرف شو رح يصير.

حتّى تلك اللَّحظة لم يكن أي شيءٍ واضحًا بعد. لم نكن نعلم إن كانت داربن ملاحقةً حقًّا أم أن الأمر لم يتعدَّ مسؤولات السكن حيث كانت.

7

كان يوم جمعةٍ حارًّا جدًّا. عند العاشرة تقريبًا اتصلت بي دارين طالبةً أن نلتقي، وعند وصولي إلى مكان اللقاء كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة والنصف. طلبت منّي أن أصعد إلى سيارةٍ كانت تنتظرنا هناك. حيّاني فوّاز الذي كان يقود السيّارة وكانت وفاء جالسةً على المقعد الخلفي قرب دارين. صعدت دون أن أنبس ببنت شفة ودون أن أسأل حتّى إلى أين هم ذاهبون. لقد كنت أعرف أنّهم يقصدون مظاهرةً ما ولكنّني لم أسأل عن أيّة تفاصيل. شعرت بوحدة المصير معهم:

- دارين، العم الياس بيعرف لوين رايحة؟ - توجّهتُ بالسؤال لدارين التي لم ترد، فعرفتُ أنّها إمّا كذبت عليه وإمّا خرجت خلسة.

تابعنا الطريق بصمت بينما فوّاز يقود سيارته متجنّبًا المرور بالشوارع الرئيسة ومناطق أفرع الأمن التي تغصّ بها العاصمة السوريّة. كانت وفاء أيضًا قد أخبرت المسؤولات في سكن "القبيسيات" أنّها ستذهب خلال عطلة نهاية الأسبوع إلى درعا لزيارة والدَيها. سألني فوّاز إن كان يستطيع المبيت هذه الليلة عندي لتتمكّن وفاء من المبيت في بيته مع أخواته البنات، فوافقتُ على الفور قائلًا:

- طبعاَ، البيت بيتك!

رنَّ هاتف فوّاز فردَّ سريعًا قائلًا:

- بالطريق، شو الأخبار عندكن؟

كان صوته لطيفًا كالفتيات، وشعره طويلًا وناعمًا، ولكنّه كان شجاعًا بعشرة رجال. لقد كان اعتقاله لعدة أيامٍ دافعًا كبيرًا له ليثور دون هوادة، على عكس جدّي الذي دفعه الاعتقال والتعذيب إلى الخوف والتراجع وانتظار الثورة بصمت. لربما هذا هو الفرق بين الشاب والعجوز. العجوز يستكين، أمّا الشاب فيغضب. ولكن من يدري، ربما لو كان جدي حيًّا لكان بين المتظاهرين الآن، إلّا أنّني استبعدتُ تلك الفكرة، ربما لم يكن بوسعي تصوّر "أبو هشام" إلّا رجلًا مسالمًا يخشى الخطر.

كانت شوارع دمشق مقفرةً والمدينة خاويةً على عروشها، هذا الأمر طبيعي في وقت صلاة الجمعة، ولكن منذ عدة أشهر استشرى الخوف من هذا التوقيت بالذات، على اعتبار أن كل مسجدٍ تقام فيه صلاة الجمعة هو موضع شكٍّ للأجهزة الأمنيّة، حتّى يثبت العكس، أي حتّى تنتهي الصلاة ويغادر الناس إلى بيوتهم بهدوءٍ ودون ضوضاء.

أمست المساجد نقطة التجمّع الوحيدة الممكنة لانطلاق التظاهرات، فقد كان في دمشق حتّى تجمّع ثلاثة أو أربعة أشخاص في الطريق دون سببٍ، ممنوعًا، كما كل شيءٍ تقريبًا، وهذا كان الحال في عموم البلاد. إلّا أن المتظاهرين من غير المصلّين كانوا أكثر بكثيرٍ من روّاد المساجد. فقد كانت المظاهرة تنطلق من أمام المسجد ولا تكاد

أولى الهتافات المناوئة للسلطة ترتفع حتّى يبدأ الشبّان والشابات بالتجمّع. أمسك فوّاز أحد الهواتف التي كانت بحوزته، واختار رقم شخصٍ ما وبدأ الشخص يرشده إلى أين يتوجّب عليه أن يذهب ومن أي الشوارع عليه أن يقود أم لا. لقد أعجبت بشجاعته ومعرفته بالأحياء والأزقّة، رغم أنّه كان قليل الخروج في السابق كما كنت أعرف، ولكنّه كان سريع البديهة ونبيهًا بشكلٍ كبير.

دلفَت سيارتنا بصعوبةٍ إلى أحد الأزقة الفرعيّة في أحد أحياء دمشق المهمّشة. ركن فوّاز السيارة وأومأ لنا بالنزول فنزلنا وخرج من أحد المنازل المجاورة شابٌّ أشار لنا بالاقتراب منه في الوقت الذي يراقب فيه محيطه بتمعّنٍ شديد، فاقتربنا منه جميعًا بحذر ودخلنا المنزل.

كان الطقس صحراويًا. الشمسُ تسخِّن زفت الشارع الذي يغلي غليانًا حتّى كاد الدخان يخرج منه. على طرفَيّ الزقاق كانت جبال الرمل والبحص ومواد البناء تكاد تحجب نهاية الطريق. الأبنية واطئةٌ ولا يكاد مبنىً يتجاوز الطابقَين، بالإضافة إلى "الملاحق" التي تم بناؤها على الأسطح بشكلٍ مخالفٍ للقانون والتي يسكنها معدمو دمشقَ وفقراؤها. كان مدهشًا أن يشاهد المرء وجهَين للعاصمة، وجهها العصري والراقي، حيث ترتفع الأبنية وتغص المدينة بالعمران الحديث، وأحياء الفقر المدقع والعشوائيات التي تتوزّع حول العاصمة وتفصلها عن ريفها. من الطبيعي أن تنطلق الاحتجاجات بشكلٍ أساسيٍّ من هذه الأحياء المهملة، هذا أعطاني دافعًا إضافيًّا للالتحاق بركب الثوار. عدا عن قمع الحريات السياسيّة والنظام الإداري الفاسد، كان يوجد وجهٌ

آخر للبلد مغيّبٌ تمامًا. حيث يسكن الفقراء والذين لا يساوي الوطن بالنسبة إليهم أكثر من كسرة خبزٍ تقي أبناءهم الموت جوعًا، وحيث وجدوها، وجدوا الوطن.

رغم ذلك كلّه لم يكن الفقر أو الجوع أو الوضع الاقتصادي المزري الأسباب الحقيقية والمباشرة للانتفاضة. المحرّض الأول كان امتهان كرامة الناس وسلبهم أبسط حقوقهم في عيش حياةٍ حرّةٍ في وطنهم الأم دون أن يُداس عليهم وعلى أبنائهم ليصمتوا ويرضخوا لجور الحاكم. إصرار الناس الذي امتدّ سنواتٍ طويلة كان أشبه بالمعجزة. لقد أرادت السلطة الفاشيّة في سوريّة التعامل مع حراك آذار 2011 كما تعاملت مع كل مناوءةٍ سابقةٍ خلال الخمسة عقودٍ الماضية وبالعقليّة والطريقة نفسهما، أي بمحاولة المحق الكامل وإسكات الناس عبر إرهاب بعضهم بمصير البعض الآخر. ولكن هذه المرة كانت مختلفة. منطق القوّة المفرطة لم يعد ينفع، خاصةً أنّنا بتنا نستطيع إيصال معاناتنا إلى العالم. فقد استطاعت الشعوب الثائرة توظيف العولمة بشكلٍ يخدم مصالحها الثوريّة.

مكثنا لدى ذلك الشاب الذي كان يدعى مهنّد مدّة نصف ساعةٍ، شربنا الشاي وتحدّثنا عن الوضع السياسي والأمني في البلاد بشكلٍ عام، وفي دمشق بشكلٍ خاص.

عجبتُ لثقافة الشبّان والشابّات وحسّهم العالي بالمسؤولية. قد أموت عشرات المرات دون أن أنسى تلك الوجوه التي لم يعد لها وجودٌ الآن. كانوا يتحدّثون عن الوطن بطريقةٍ لم أعهدها من قبل. لم يخفِ

المتحدّثون مخاوفهم ممن وصفوهم بالمتشدّدين. كانت الاحتجاجات وطريقة تعامل الجهات الأمنيّة معها قد ساعدت على تشكيل تربة خصبة لنمو تيارٍ إسلاميٍّ محافظٍ ضمن صفوف الثوار. لا سيما أن معظم التيارات الإسلاميّة قد تمَّ ملاحقة أتباعها لعشرات السنوات، ما أعطى صورةً عنهم بأنّهم خصم النظام الوحيد. حتّى أن قوى يساريّة قد تحالفت معهم بشكلٍ مرحلي لعدائهم للنظام وللتعاطف الشعبي معهم. لم يكن عداؤنا يومًا مع هؤلاء، ولكنّهم بعدها قد واجهونا بسلاح "الثورة" ونكّلوا بالعديد من الناشطين والمثقفين على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم.

معظم ناشطي الثورة الأوائل كانوا غير مدفوعين بأي دافعٍ أيديولوجي، لقد كانوا ينتمون إلى الحراك والشعب فقط. كانوا مدنيين عاديين، قاسوا ما قاسوه من سلطةٍ كان العنف والتخويف وسيلتَيها الوحيدتَين لكسب ولاء الناس وإذعانهم لها. لم يكن أولئك الأشخاص منزّهين طبعًا، فقد كانوا يخوضون مغامرتهم الأولى وكانت تلك التجربة بالنسبة إليهم جذّابةً بقدر ما كانت جديدةً وغير مألوفة. لم يكونوا نقابيين ولا مثقفين ثوريين ولا سياسيين مخضرمين ولا حتّى لديهم أدنى فكرةٍ عن الممارسة السياسيّة، لقد كانوا أناسًا عاديين، بضمائرٍ حيّةٍ وحبٌ لا ينضب لذلك الشعب وتلك البلاد التي لم يبخلوا عليها بأرواحهم وحريتهم.

لم تكن دارين ولا وفاء تعرفان مهنّدًا، حتّى فوّاز بدا على معرفةٍ سطحيّةٍ به. وأثناء استرسال مهنّد في الحديث عن الثورة رنَّ هاتفه فانتفض واقفًا مشيرًا إلينا، وقفنا جميعًا حتى أشار لنا أن نتبعه. توجّهنا تحت أشعّة

الشمس التي تكاد تذيب الرؤوس إلى موقع المظاهرة، كان العشرات قد تجمّعوا والعدد كان يزداد بشكلٍ سريع. رجال، نساء، شبّان وشابات، أطفال ومسنّون. كان الجميع يتوافدون وكأنهم يدنون من حوضٍ مقدّسٍ لينهلوا منه شُربةً تعيد الحياة إلى أوصالهم وتبلُّ عروق أرواحهم الجّافة.

بدأت الأصوات تعلو وتعانق الغيوم البيضاء التي تسبح مسرعةً باتجاه الشمس. لقد كانت غيومًا شفافةً غير قادرةٍ على حجب أشعة ذلك القرص الأحمر عنّا. الجميع كانوا ينادون من قلوبهم: "الشعب يريد إسقاط النظام! الشعب يريد إسقاط النظام!".

رحتُ أهتف مع الجمع وأصرخ بأعلى صوتي. كنت أهتف بإسقاط النظام، وليس النظام وحده، بل الظلم كلّه. نظرت إلى يميني لأرى دارين تهتف وتنظر إليّ بسعادة، وبجانبها وفاء وفوّاز، وحولهم مئات الثائرين. كان معظم المتظاهرين يطلّون بوجوههم دون خوف، بينما البعض يصوّر المظاهرة لتبثّها بعد قليل معظم المحطات التلفزيونيّة والمنصّات الإلكترونيّة. "دم الشهيد، مو نسيانينه" هتفنا وبعضنا يغالب الدمع والآخر ينظر صوب السماء والأمل يملأ قلبه. أمّا أنا، فقد كنتُ أطير. كانت المرّة الأولى التي أرفع فيها صوتي وأصرخ دون خوف. شعرت أنّني أحلّق عاليًا في السماء، مبتعدًا عن الجميع، معانقًا جدّي باشتياقٍ بينما أقول له والدموع تملأ عينَيّ: "لقد هزمنا جلّادك يا جدّنا الجميل". اختفى شعوري بأنّني خذلته وخذلت حُلمه الذي أودعه كياني، دون أن يعلم، خلف أحاسيس الفخر التي كانت تعتري قلبي. ومنذ ذلك اليوم وروحي تمتلئ تمرّدًا!

راح الناس يتفرقون في كل الاتجاهات بينما يسقط بعضهم أرضًا. لكن شدّة الهتاف وارتفاع الصوت قد ازدادَ بشكلٍ أكبر، حتى صار يملأ المدينة كلّها، وكلّما ارتفع صوت الثائرين الغاضبين أكثر، علت أصوات الطلقات أكثر. لقد كانوا يريدون إسكات المتظاهرين، ولو كلّفهم الأمر إلقاء قنبلةٍ نوويّةٍ على دمشق وإبادتها بالكامل. نظرتُ عاليًا، إلى قاسيون، بدا لي الجزّار واقفًا هناك يتأمل المدينة المحترقة، ممسكًا بقيثارته مطروبًا على نغماتها المختلطة بأصوات الرصاص، الذي يقتل أبناء تلك العاصمة المسكينة على مذبح انفراده بالسلطة وبقائه حاكمًا مطلقًا لتلك البلاد. لم تكن دمشق حينها تختلف كثيرًا عن روما عام 64 ميلادي. مدينتان حكمهما جنون العظمة.

التجأ المتظاهرون إلى الشوارع الفرعية هاربين من الرصاص. اتجّه شابٌّ ليسحب شابًا آخر ملقىً على الأرض مضرّجًا بالدماء، فهرعتُ وراءه لمساعدته، كان الشاب قد فارق الحياة جرّاء إصابةٍ في صدره. حملناه وركضنا به إلى الشارع الفرعي، فقوبلنا برصاصٍ كثيفٍ استهدفنا بشكلٍ مباشر. شعرتُ بسيخٍ من النار قد اخترق قدمي، فقفزت قفزتين وسقطَ الشاب الضحيّة من يدي ورميتُ نفسي إلى الشارع الفرعي. كانت الإصابة في فخذي ولكنّها لم تكن سيّئة. الرصاصة جرحتني جرحًا بسيطًا ولكنّني كنت بحاجةٍ إلى الإسعاف، كنت أنزف. تقدّم أحد الشبّان الملثّمين منّي وسحبني وبدأ بالتحدّث إليّ. كانت دارين تبحث عنّي وسط الحشد حتّى وصلت إليّ:

- آدم! أنت بخير؟

- أنا بخير، بخير - أجبتها.
- لازم ناخده هلأ ونسعفه مع باقي الجرحى - تدخّل الشاب الملثّم وهو يساعدني على النهوض.

كان باقي المتظاهرين يتابعون محاولة سحب المصابين، وفي كل محاولة يُواجَهون مجدّدًا بالرصاص.

- أنا بدّي أجي معكم - قالت دارين للشاب.
- لا نحنا منعتني فيه - أجابها الملثّم.
- خليها تجي معنا. هي أختي - قلت للشاب بينما دارين تنظر صوبي بدهشةٍ وكأنّها نسيت إصابتي.

سمح الشاب لدارين بالذهاب معي وأعطاها لاحقًا الضماد والمعقّمات لتضمّد جرحي بنفسها بعد أن تأكّدوا من أن إصابتي طفيفة. لقد كانت تلك الدكّان الصغيرة التي جُهّزت لتكون مشفىً ميدانيًا بسيطًا تغصّ بالجرحى. راحت دارين تضمّد جرحي وتمسح دموعها. أمسكتُ بذقنها ورفعت رأسها باتجاهي، وابتسمت لها، فأنزلت وجهها وتابعت عملها.

عدنا خلسةً إلى شقّة مهنّد وبقينا لديه حتّى حلول الظلام، قبل أن نتسلّل بمساعدة بعض الشبّان عائدين إلى منزل العم الياس. فوّاز كان غائبًا لا يعلم أحدٌ شيئًا عنّه. كان الجميعحزانى. عدة قتلى وعشرات الجرحى كانت حصيلة هجوم قوات الأمن على المظاهرة. كانت المدينة حزينة، تبكي أبناءها وبناتها الذين شهدوا شمسها أحياءً هذا الصباح.

في عالمٍ موازٍ نحلم به، رمى الجنود بنادقهم على الرصيف وانضموا إلينا لنرقص معًا. لم ينصاعوا للأوامر بقتلنا. هل هذا حقًّا

بالشيء العجيب حتّى صرنا نتصوّره يحدث فقط في عالمٍ خيالي لا وجود له؟ إلى أي درجةٍ من البؤس وصلنا حتّى أمسينا نعتبر تعفُّف المرء عن قتل أخيه الإنسان مستحيلةً رابعة؟

لقد قُتل هابيل من قبل أخيه في ذلك اليوم مرّةً أخرى، بل مرات. صرخ دم الأخ من الأرض، وخاطب الربّ القتلة بأن لعنَتهم الأرضُ التي فتحَت فمها لتقبل دم الأخِ من يد أخيه، وحامت الغربان فوق رؤوسهم، تنعق وتنعق، وكأنها تقول لهم: "بئسًا لكم. بئسًا لكم أيها البشر!". لقد أسكتَ الباطلُ الحقَّ مرّةً أخرى بالقتل! أراد فرض إرادته بالقوّة بعد أن اعتمل الحقد في قلبه وتصوّر أخاه البريء عدوًّا، والعدو سيّدًا.

لقد كانوا يطلقون علينا نيران بنادقهم ونحن نهتف مطالبين بوطنٍ يتّسع لنا ولهم. وطن لا يجبرهم على الضغط على الزناد وقتل إخوانهم وأخواتهم مقابل لقمة العيش أو إرضاءً لغرورهم في دفاعهم عن زعيمهم الذي اتخذوه طوطمًا لهم.

أجل، كانوا بكامل وعيهم وهم يرموننا بالموت والقهر والخيبة. هذا بالذات ما يجعل البشر مجرمين أكثر من غيرهم من الكائنات التي تقتل. وعيهم هذا وإدراكهم لما هم فاعلون هما ما يميّزهم عن باقي المخلوقات. هذا بالضبط ما يجعل من جريمتهم أقل قابليّةً للفهم أو التبرير. البشر الذين يقتلون هم أكثر حيوانيّةً ووحشيّةً مثلًا من أسدٍ جائعٍ ينقضّ على مجموعةٍ من الغزلان البريئة. عدم وعي الأسد وغريزته هي التي تحاكمه وتحكم عليه بالبراءة في النهاية، بينما البشر تحاكمهم عقولهم ونواميسهم، وعيهم بأفعالهم وقدرتهم على التفكير هي من

تدينهم في النهاية. نحن البشر الحاليون من نشكّل تلك التوليفة الفريدة بين الوحش والإنسان. لا نحن بشرٌ خالصون بإنسانيّةٍ سليمة، ولا نحن وحوشٌ نحصل على صكوك الغفران بمجرد إبراز حجّة انعدام العقل والإدراك. نتأرجح في برزخنا الرمادي الكئيب ذاك، في عارنا الخاص، منذ بدء الخليقة، منذ قابيل وهابيل وقربانهما. لعلّ رؤية الفيلسوف فريدريك نيتشه وجدت موطأ قدمٍ لها دون أن أشعر في أفكاري تلك ورؤيتي البدائيّة والطفوليّة للبشريّة، فهو قد جسّد فكرةً بسيطةً كهذه في نظرته للإنسان الحديث على أنّه مجرّد مخلوقٍ يشكّل مرحلةً وسطيّةً في رحلتنا للوصول إلى الإنسان الأعلى، الذي استبدل مفهوم الربّ به.

ورغم غرقنا في وحل جنوننا المستفحل ذاك، إلّا أنّنا لا نزال أكثر المخلوقات عرضةً للانكسار، والأكثر هشاشةً وقدرةً على تلقّف الحزن والأسى. ذاك الأسى الذي كان يلفّني والذي لا أستبعد أنّه لربما يلفّ الآن أحدًا من أولئك الجناة. من يدري؟ لو لم يُسَلَّمَ ذلك الشخص بندقيةً لكان ربما لا يزال بريئًا الآن. لو وُلِدَ صدفةً لعائلةٍ أخرى أو في مكانٍ آخر على هذا الكوكب لكان من الممكن أن يكون شخصًا شريفًا. لو.. لو.. لكن المجرم كان قد اغتال لتوّه عشرات الأحلام وزاد نقمتي على هذا العالم بعد أن لمعت عيناي أملًا وشبقًا تحت سماء دمشق الصافية قبل ساعات، حين كان ضحايا ذلك اليوم لا يزالون يشاركونني الهواء والأرض، يشاركونني الثورة والصوت، والحلم.

دائمًا ما كنت أفكّر بأن الحياة البشرية لطالما كانت محكومةً بالصُّدف. صُدف تتالى وتتراكم وتتعارك لتشكّل واقعنا كما نعيشه.

بالصدفة مثلًا التقى رجلٌ وامرأة - بطريقةٍ أجهلها شخصيًّا - هما والداي اللذان لم أعرفهما في حياتي أبدًا، وتزوّجا لاحقًا، ثم أنجباني دون إذني - بقصدٍ منهما أو دون قصد - فصارا والديّ بمحض الصدفة ودون إرادتي. وتلك الصدفة، أي لقاؤهما الحميمي ذات ليلة، قد رسمت معالم حياتي السوداء، وقد كانت السبب بكلّ حزني. متعتهما اللحظيّة تلك، وإرضاء أنانيّتهما في الحب، هما اللذان ساقاني لمعايشة ذلك الوجع والظلم كلّه.

ونيرون ذاك الذي يتربّع فوق قمّة قاسيون منتشيًا لاحتراق دمشق، ماذا لو لم يولد لتلك العائلة؟ ماذا لو لم يولد أصلًا! لا يمكن له أن يكون على أيّة حالٍ خلاصة حب. حسنًا، ها هو قد وُلد على كل حالٍ وما من سبيل لتلافي تلك المأساة، ماذا إذًا لو غيّرت صدفةٌ ما أمرًا صغيرًا فصار مواطنًا عاديًّا؟ ماذا لو لم يعرف معنى السلطة يومًا في حياته؟ لربما كان بين المتظاهرين في ذلك اليوم الحارّ، أو بين الضحايا الأبرياء! من يدري؟!

أتراه هو من صنع من السلطة وبالًا مطلقًا أم أن السلطة هي من صنعت منه نيرون المعاصر؟ من أفسد فيهما الآخر؟ هل شرّ الإنسان هو من يضفي على السلطة طابعها الشرير؟ أم أن السلطة شرٌّ مطلقٌ بالضرورة وقادرةٌ على تحويل الطيّبين إلى شياطينٍ ومسوخٍ لا تعرف للقِيَم أيّ معنىً؟

كانت تلك الأفكار كلّها تدور في رأسي بينما تشقّ سيارتنا طريقها في شوارع دمشق الضيّقة المظلمة، دون أن نجرؤ حتّى على تشغيل الضوء الأمامي للحظةٍ واحدة. كانت دارين تجلسُ في المقعد الخلفي بجانبي، تتأمّل الطريق هي الأخرى من نافذتها بحزن.

8

أوصلنا السائق المجهول إلى منطقة سكن العم الياس، فمشينا ببطءٍ وحذرٍ قبل أن نصل إلى المنزل. كنت أمشي على قدمي اليمنى بصعوبةٍ بالغة، ولمّا حاولت دارين مساعدتي أصررت على عدم حاجتي إلى المساعدة بحجّة أنّني لا أريد أن يلحظ أحد المارّة أنّني مصاب.

كان العم الياس والخالة ميساء في انتظارنا هناك. دخلنا غرفة الجلوس التي كانت تعبقُ برائحة السجائر والقهوة. كان العم الياس يجلس هناك على ضوء الشمعة. فور إشعال الخالة ميساء للضوء لاحظَت الدخان الذي يملأ الجو، فراحت تفتح النوافذ على مصاريعها بينما تقول: "يلعن الدخان وساعته، خنقتنا يا زلمة!". كانت الخالة ميساء امرأةً طيّبةً جدًّا ولكنّها كانت سليطة اللسان بذات القدر. كان لسانها لا يوفّر أحدًا، وإذا ما سخطت على إنسانٍ ما فإنّها تروح تنعته بأبشع الأوصاف. كانت في منتصف الأربعين من عمرها، امرأة بسيطة سيّئة الحظ قد توفّي خطيبها - الشاب الذي عشقته والذي كان يعمل مهندسًا معماريًا - قبل عشرين عامًا إثر سقوط رافعةٍ محمّلةٍ بمواد البناء فوقه. وتعيش الخالة ميساء حالةً أشبه بالحداد والرهبنة منذ تلك الحادثة.

جلسنا أنا ودارين بصمتٍ وخجلٍ على الأريكة المجاورة لأريكة العم الياس. تابع الرجل صمته وأشعلَ سيجارةً أخرى ولم ينظر إلينا إبدًا.

- عمّي نحنا...
- بعرف يا آدم. ما في داعي تقول شي - قاطعني سريعًا ثم عاد إلى صمته مطوّلًا.

جاءت الخالة ميساء حاملةً أربع كؤوسٍ من عصير الليمون:

- قلّي حبيبي كيفا رجلك؟ - توجّهَت بالسؤال إليّ بابتسامةٍ بلهاء محاولةً تلطيف الجو وهي تقدم لي الليمون، وتابعَت بعد أن جلست قرب العم الياس:
- إي لك أخي ليك الشباب بخير! خود اشرب كاسة الليمون وحاجتك قهوة. والله القهوة والدخان كلهم ضرر بضرر. بكرا بتروح من بين إيدينا يا ختيار!

ابتسم العم الياس مرغمًا، وأطفأ سيجارته على الفور:

- سكّري هالشباك أختي. هالولاد بدهن يروّحونا. إنتو مجانين! أنا ما قلتلكن تديروا بالكن؟ كيف بدك تتحرك هلّق آدم؟ مو شايف وضع البلد؟
- أنا أكلت نصيبي عمّي، بس فوّاز مو مبين وأمّه رح تجن.

كانت وفاء قد توجّهت بالفعل إلى منزل فوّاز الذي كان متواريًا تمامًا دون أن يعلم أحد عنه شيئًا، فعرضَ العم الياس أن يذهب مع دارين إلى منزل فوّاز لدعم والدته في محنتها والوقوف بجانبها. أصررت على الذهاب معهما، ولم يستطع العم الياس إقناعي بالبقاء في المنزل. توجّهنا تحت جنح الظلام بسيارة العم الياس إلى منزل عائلة فوّاز، ولم يكن المنزل بعيدًا. استغرقت رحلتنا عدة دقائق ولكن الخوف كان

يسيطر على قلوبنا، فلو تمَّ توقيفنا من أي دوريّةٍ أمنيّةٍ أو ما شابه، فسنصير جميعنا في خبر كان.

دخلنا شقّة عائلة فوّاز. كانت شقّة في الطابق الثاني لمبنىً مؤلَّفٍ من خمسة طوابق. شقّةٌ حديثة، رتيبةٌ واعتياديّة. كانت والدة فوّاز في حالةٍ يُرثى لها واثنتان من أخواته في المنزل معها ينتحبن بحرقة. رحنا نحاول مواساة النسوة اللاتي كنّ يشتمن تارةً ويولولن أطوارًا.

* * *

لم يخفِ عنّي العم الياس أن والدة فوّاز قد لفتت انتباهه:

- بتشبه البنت اللي لليوم بحلم إنّه ترجعلي! - قال لي العم الياس في إحدى جلساتنا بعد حادثة فقدان فوّاز بعدّة أسابيع.
- وليش ما بتقلّها إنّك معجب فيها يا عمي؟ - سألته.
- مجنون أنت! غبي! مين قال إنّي معجب فيها؟ قلتلك بتشبه حدا مر بحياتي، بتشبهه مو يعني بدله فيها.
- يعني ما معقول تكون بتحبّها؟ - قلت له وأنا أبتسم بمكر.
- بحبّها؟ لا تتجرأ على هي الكلمة. الحبّ أكبر بكتير من كلمتين بتقولهن وبس.

كانت عيناه تبرقان كما لم أعهدهما من قبل. فبمجرّد ذكر حبيبته السابقة كان قد تحوّل لونه إلى الوردي، وبدا كصبيٍ يحكي عن سعادةٍ ما

قد شعر بها. كنت أود حينها لو أقاربهما بطريقةٍ أو بأخرى، ولكنّني بالطبع لم أكن أعلم تمامًا أن الدين سيحول بينهما.

ربما كان ليتغيّر كل شيءٍ بطريقةٍ ما، لو أمهلنا القدر، وأعطانا الفرصة، كان ممكنًا لكل شيءٍ أن يكون مختلفًا الآن.

9

لقد كان عليّ مواصلة دوامي في الجامعة. لم نكف عن التظاهر أنا ودارين ووفاء بشكلٍ أقل. كنّا نتظاهر في نقاط تظاهرٍ مختلفة من دمشق أو حتى في ريفها. تعرّفت إلى عددٍ كبيرٍ من الشباب الناشطين الثائرين في العاصمة والريف. لكن حذرنا قد زاد بعد فقدان فوّاز، فإن كان قد اعتُقل قد يكون مجبراً تحت وطأة التعذيب أن يشي بأسمائنا وأماكنوجودنا. صرت في كل مكانٍ أذهب إليه أتفحّص المنافذ والمخارج في حال اضطررت للهروب. كان شبح الاعتقال لا يفارق أذهاننا، وكانت فكرة الموت بالنسبة إلينا أكثر لطفًا من فكرة الوقوع تحت مباضع سجّاني النظام.

كان عليّ ذات يومٍ القيادة نحو دوما شرقي دمشق للتحضير لمظاهرةٍ كبيرةٍ ظهيرة اليوم التالي، أي يوم الجمعة. على أن تلحق دارين بي إلى هناك قبل بدأ المظاهرة. وصلتُ دوما وتوجّهت إلى منزل أحد الأصدقاء العاملين هناك، حيث كنت سأبيت الليلة. تمّت مداهمة منزل عمّي هشام في دمشق ذلك المساء. لقد كان عمّي وقتها في رحلة عملٍ إلى بيروت. نبشَ الجنود المنزل نبشًا وراحوا يكسّرون الأثاث، ما أثار جنون بثينة التي رجّحت أنّهم يبحثون عنّي فصرختْ بهم حتّى يتوقفوا: "إذا بدكن هداك الولد بتلاقوه عند الياس، أنا قلّعته". نظرت ياسمين إلى

أمّها بذهول. اقتادَ الجنود الأم والفتاة إلى فرع الأمن السياسي حيث قاموا بالتحقيق معهما وأخذوا منهما عنوان دكان العم الياس وسكنه وكل ما تعرفانه عنّي وعنه بل عن دارين أيضًا. لم تدرِ المرأة أنّها قد وشت بابنتها، فدارين كانت لا تزال تعيش في منزل العم الياس الذي كان يقضي سهرة الخميس مع بعض الأصدقاء في لعب الورق.

فور مغادرة بثينة وياسمين للفرع، ابتعدت الفتاة عن أمّها باحتقارٍ واتصلت بدارين دون جدوى. رنَّ هاتفي القديم الذي لا أستخدمه إلّا نادرًا حوالي الساعة الثامنة والنصف مساءً. رقمٌ غريب. أجبت وإذا بها ياسمين. سردَت لي ياسمين بشكلٍ غير مباشرٍ ما حدث قائلةً إنّها تخاف على العم الياس من أي مكروه، وتخاف عليّ أيضًا، ثم أغلقت الخط وهي تبكي بعد أن أخبرتها أن دارين لدى العم الياس. ندمتُ بعد ذلك، لأنّني لم أكن أثق بياسمين، رغم أنّني لمستُ الصدق في صوتها الباكي.

حاولت أنا الآخر جاهدًا الاتصال بدارين وبالهاتف الأرضي في منزل العم الياس وبالعم الياس نفسه الذي كان هاتفه مغلقًا. تمّت مداهمة المنزل بعد عدة دقائق وتمَّ اقتياد دارين والخالة ميساء من المنزل إلى الفرع، كما انتظر العناصر العم الياس الذي عاد في وقتٍ متأخّرٍ من ليل الخميس إلى المنزل ليتمَّ اعتقاله من على باب المنزل هو الآخر.

كان ذلك اليوم نقطةً سوداء جديدةً في حياتي ولا يقلّ بؤسًا عن يوم وفاة والدَيّ أو جدّي. بل كان ربما أكثر بشاعةً من الأحداث تلك كلها مجتمعة. لقد تمَّ اعتقال دارين والعم الياس والخالة ميساء، كنت أعلم أنّني على الأرجح لن أتمكّن من رؤيتهم مجدّدًا، وهذا ما حصل بالفعل.

شعرَ مضيفي الذي حوّل منزله الصغير ذاك مركزًا إعلاميًا وإغاثيًا بأن مصيبةً ما قد حلّت بي. اقترب الرجل ذو الخامسة والثلاثين منّي وسألني بلطفٍ عمّا جرى، فقلت له:

- لهلّأ ما بعرف. بس اللي بعرفه إنّه المصيبة إذا إمّا وقعت، أو على وشك إنّها توقع. قلّي يا فراس.. قلّي بترجاك! شو لازم أعمل؟

ربتَ فراس على كتفي وجلس بقربي:

- إسمع يا آدم. أنا ما بعرفك منيح. بس الكل حكى عنّك كل خير. أنت مؤمن بهي الثورة صح؟
- طبعًا! الثورة هي حياتي كلّها!
- أنت عم تخاطر بروحك كرمال البلد أخي. وغيرك عم يخاطر. وكلّنا معرضين للخطر، وما حدا جبرنا نمشي بهاد الطريق، نحنا اخترناه.. كلّنا رح نكون وقود ليضوي مشعل الحرّية وتعيش هالبلد. صح؟

لم أجبه. لقد كنت أرى الثورة بعينين أخريين. كنت مستعدًا لأحترق ربما لأجل البلد، لكنّني ما كنتُ لأستقبل احتراقي ذاك بقلبٍ مفعمٍ بالفرح، كنت سأحزن، واليوم سأحزن، وغدًا سأحزن، وسأحزن في كل يومٍ تفقد فيه الثورة أحد أبنائها أو بناتها. نعم، الثورة كانت قد أصبحت كل حياتي بالفعل. لم أعد أستطيع تصوّر نفسي شابًّا هادئًا يحيا دون تأثيرٍ يذكر. تلك الثورة سمحت لي بالانفجار والخروج من وحل حياتي السابقة. كنت أعيش قبل الثورة على هامش الحياة، فصرت فجأة

أشارك بصنع الحاضر والمستقبل، مستقبل الملايين. ولكن، الثورة تعني لي أيضًا دارين. دارين التي أحبّتني والتي عجزتُ أن أبادلها المشاعر ذاتها. الثورة تعني لي العم الياس وكتبه وثقافته ووعيه، وحذره أيضًا. الثورة تعني لي الخالة ميساء وطعامها اللذيذ وبسمتها الصافية. الثورة تعني لي فوّاز، وإن لم تسنح لي الفرصة بالتعرّف إليه أكثر. الثورة تعني بالنسبة إليّ كل شخصٍ سقط في سبيل حلمنا الكبير. ووفاءً لهم، ولذكراهم، قرّرت ألّا أستسلم أبدًا. ألّا أستسلم لذلك الحزن الذي ما انفكَّ يعتريني يومًا، ولن يكون عندي عزاءٌ غير الانتصار.

ولكن يومها بدت لي فكرة الموت تافهة حقًّا. وما قيمة حياتي أمام حلمٍ عظيمٍ كذاك الحلم؟! ليس موتي نهاية الطريق، ولا موت أحد، ولا موتنا جميعًا. بل على درب هذه الثورة ستمشي الأجيال راسمةً لحلمنا نهايةً سعيدة. ليعلّقوا مشانق القتلة، وليصلبوهم على أسوار مدننا المدمّرة. سيثأرون لحزننا وآهاتنا. سوف يمشون على درب الجلجلة الخاص بنا وسنكون قد رسمنا لهم الطريق بدمائنا. وسنسأل ربنا بعثًا جديدًا لنواصل كفاحنا، وسنخرج من قبورنا لعناتٍ تضرب جماجم الطغاة، وتطاردهم صرخات عذاباتنا حتّى قبورهم النتنة.

ذلك الحلم الورديّ الذي لوّعته الأيام والسنوات كما لوّعت أبناءه ممن ظلوا أوفياء له، فرحنا نصنع له من لحم أجسادنا أطرافًا صناعيةً ليظلَّ واقفًا. رحنا نرمّم أعمدته كلّما آلت إلى السقوط ونجبل لها طينًا بدمائنا وأفئدتنا. رحنا نحيك له من جلودنا رقعًا تقيه الموت بردًا، بعدما شرّدته الإرادة البشريّة على حدود الدول الصغيرة. نغذّيه بالأمل فلا يزداد إلّا نحالةً

وضعفًا. لكنه ظلَّ في أعيننا جميلًا، مزدهرًا، متجدِّدًا وفاتنًا. نحن من لم نرمه في مياه البحر عند وصولنا إلى محطة الأمان الأولى، كما فعل الكثيرون.

لـم أغفُ ليلتهـا دقيقةً واحـدة. قضـيت الليلـة أراقـب فراسًـا الـذي استسلمَتْ أجفانه للنوم عند الثالثة فجرًا. كنت أتسلّل من قربه كل نصف ساعةٍ إلى حديقة المنزل للتدخين، وعندما فرغت علبة سجائري سحبت علبته خلسةً وانتقلت للجلوس في المطبخ عند السابعة صباحًا بعد أن غليت ركوة قهوةٍ جديدة. عند الثامنة والربع حاولت إصدار بعض الضجيج في المطبخ علّ فراس يستيقظ، ثم توجّهت إلى غرفته لأجده مستيقظًا يمعنُ النظر إلى سقف الغرفة المقشّر.

- فراس، فقت؟ القهوة سخنة! رح جيبها.

راح فراس يبحث عن علبة سجائره، فقلت له بينما هو يقلّب فرشته ووسادته، وأنا أحمل القهوة قادمًا إليه:

- باكيتك معي. خلص دخاني بالليل.
- ما نمت أنت؟ - سألني فراس.
- لا.
- حتّى أنا ما بتذكر أي ساعة نمت.
- المهم إنك نمت. عنّا اليوم شغل كتير!
- أنا برأيي إنّه الأفضل تبقى هون أنت يا آدم، وما تطلع اليوم، شكلك تعبان وفوقها مو نايم أبدًا.
- ولا يهمك. أنا ما أجيت لهون لأبقى قاعد بالبيت. أجيت لأشتغل.

لقد كان يتعيّن عليّ بعدها عدم العودة إلى دمشق، خاصةً أن رجال المخابرات قد داهموا منزلي أنا الآخر وقد أصبحتُ ملاحقًا. لقد أخذوا كل الموجودات؛ دفاتر جدّي وقبّعته الصوفيّة، صور والدي ووالدتي التي استطعت الاحتفاظ بها، كل الكتب والمذكرات. لا يهمّني كل ذلك. علّمتني الثورة أن الإنسان أهم من أي شيءٍ آخر. ربما تتفوّق الأفكار أيضًا على سواها وعلى كل الماديّات. ما حاجتي بمذكّرات جدّي وبصور والدَيّ؟ المذكّرات قد علّمتني ما علّمتني ووجه أمّي وأبي أحفظهم في صدري، لأتعرّفهما عندما أصعد إلى السماء. لستُ محتاجًا إلى الاحتفاظ بأي شيءٍ ملموسٍ طالما أنّني أتمتّع بذاكرةٍ حية، لا لم أكن أدري بعد إن كان امتلاكها نعمةً أم نقمة.

مددت فنجان القهوة إلى فراس مع علبة السجائر بعد أن سحبت منها سيجارةً دسستها بين شفتيّ، وقلت له بتردّد:

- فراس. أنا ما بقا فيني أنزل ع الشام. كل اللي بعرفهن هونيك صاروا جوا. مبارح داهموا البيت وأخدوا بنت عمّي وعمّي الياس وأخته.
- لا تكمّل يا آدم. أنت رح تبقى معي هون، واللي بيصير عليّ بيصير عليك. أنا أخوك! رح حاول لاقيلك سكن قريب منّي - قاطعني فراس مربّتًا على كتفي.

يا إلهي كم كانت كلمته الأخيرة رائقة! الأخ! أنا لم أشعر بشعور الأخوّة تجاه أي ذكرٍ في حياتي. أردت معانقة فراس، وفعلت هذه المرة. اقتربت منه وعانقته بقوّة، ورحت أبكي.

فراس، الرجل الذي احتضنني طوال الفترة التالية. لقد كنت له كالأخ وكان لي كذلك. كما كنت أحب أولاده الثلاثة جدًّا. كان يكبرني بأكثر من خمسة عشر عامًا ولكنّه كان صديقًا لن يتكرّر، آمن بي وأحبّني، بل ائتمنني على رزقه وأولاده.

10

مضت الأشهر التالية ثقيلةً جدًّا. كانت مرارة الاشتياق وألم الفقدان يعتصران روحي ويقتلانني شيئًا فشيئًا. دخلت دوّامة اليأس لفترةٍ قصيرة، فلم يكن من السهل عليّ تقبّل ما حصل. مؤلمٌ جدًّا أن نخسر أحباءنا مرّةً واحدة. أمّي وأبي رحلا معًا وفي يومٍ واحد، ثم دارين والعم الياس أيضًا كذلك، وبينهما كانت فاجعة جدّي. شعرت لفترةٍ أنّني لم أنجُ من الموت في حادث السير الذي أودى بأبوَيّ، وما تجاوزت التلاشي وحدةً وحرقةً بعد وفاة جدّي، ولم أعش لأشهد فقدان دارين والعم الياس في آنٍ واحدٍ إلّا لأن الحزن قد كُتب عليّ في لوحٍ مصنوعٍ من بلاط الدرك الأسفل، مُخبَأ بين رفوف البؤس الجهنّمي حيث سُطِّرت صفحات شقاء المغضوب عليهم من خلق الله.

لم يكن لشيءٍ أن يخرجني من حالتي تلك إلّا الانخراط أكثر فأكثر في العمل المدني رفقة عائلتي الجديدة. كنّا نذيب حزننا في التقرّب إلى الثورة. نغسل أرواحنا بهتافاتها وأغانيها. ننحر تعبنا كل ليلةٍ على عتبات جنّاتها، فيجري عرقنا عذبًا فراتًا يسقي نبتة الحلم، قبل أن نرتمي نائمين تحت ظلال فروعها التي كانت تُنبت كلّ يومٍ زهرةً جديدة. عملتُ مع فراس في الحدادة والخراطة. كنت في البداية أعرقل عمله بدل مساعدته، فأنا لم أكن أفقه شيئًا أبدًا ولكنّني تعلمت بعض الشيء بفضل

صبره وحبّه لي. كانت عائلته كلّها عائلة عاشقةً للثورة وكنت مقرّبًا منهم جميعًا، إلّا أن عملي كان فقط لكيلا أعيش عالةً على أحد، رغم أنّني حصلت من خال فراس على غرفةٍ صغيرةٍ مجاورةٍ لمنزلهم لأبيت فيها بالمجان، رفاهيةً كهذه تفتقدُها دمشق.

كنت أجوب مدن الريف يوميًّا، أشاركُ في تنظيم المظاهرات وتوثيقها وإرسال الصور إلى المحطات الفضائية ونشرها على مواقع التواصل. كانت روحي ترتوي عند سماعي الجموع تهتف بصوتٍ واحد. رغم الحصار والألم، ورغم عشرات المجازر التي تعرّض لها الناس هناك، كان الجميع ثوارًا، لا يعرفون للاستسلام طعمًا ولا ينصاعون للظلم ولو أفناهم جميعًا.

تعلّقت بهم فصار الجميع أهلي. صارت الثورة أمّي التي تبنّتني عند مشارف العشرين. كانت قد تلقّفتني من أحضان اليأس، أنقذتني من مخالب العجز والوحدة، انتشلتني من بين أنياب الاغتراب الذي كنت أعيشه في وطني، وأهدتني حلمًا برّاقًا وصافيًا أعيش لأجله. أعطت لحياتي المعنى، وأعطت روحي بُعدًا إنسانيًّا بعد أن صرت عاجزًا حتّى عن حبّ أقرب الناس إليّ. لولا الثورة لكنت الآن أعيش حياتي السابقة، كانت لتسحبني مستنقعات اللامبالاة إلى قعر العبث. كنت لأصير حيوانًا، لا يرى في الحزن إلّا ضرورةً مؤقّتة محكومةً بالنسيان، وفي الحب إلّا نزوةً سريعة مرهونةً بالحاجة، وفي الموت إلّا نهايةً محتومة لوأد السأم. ولكن لا، فقد صرت في حياتي الجديدة إنسانًا يريد العيش، بل يتمنّى أن يمنح حياته الخاصة لكل شخصٍ يعاني على هذا الكوكب.

لقد تجرّعت ألم فقدان الرفاق، وكان عليّ مكابدة حزني والضغط على جراحي بحجارةٍ من الملح لأواصل الطريق. كان عليّ أن أكون آدم، الذي يحتاجه الناس ويثقون به. لقد صرتُ محبوبًا، متّقدًا ولا حدود لطاقتي. صرت متجدّدًا كالعنقاء، وبعد كل انكسارٍ ألملم أشلائي، أجمعها، وأنهض من جديد. كنت برفقة أصدقائي الثوار كضريرٍ أبصرَ نور الحياة بعد عقود الظلام. كنّا كمن نجا لتوّه من الموت فقام يقبّل جبين الحياة وقد امتلأ قلبه هيامًا بها. تحوّلنا فجأةً من مراهقين كانوا يعيشون على هامش صفحةٍ منسيّةٍ من صفحات الحياة إلى عنوان الحكاية كلّها.

بعد حادثة اعتقال دارين والعم الياس والخالة ميساء طلّق عمّي هشام زوجته بثينة، وانقطعت أخبار المرأة عن الجميع. بقيَ عمي يعيش مع ابنته ياسمين في منزلهما يقتاتان الأمل بأن دارين عائدةٌ يومًا ما. آخر ما كنت أستطيع تصوّره أن عمّي قد يقدم على خطوةٍ كتلك، إلّا أن ما تمخّض عن فعلة بثينة الأخيرة كان شيئًا تفوق فظاعته الوصف. كما علمت لاحقًا أن وفاء قد غادرت إلى عائلتها في درعا ولجأت بعدها إلى الأردن.

تمَّ إطلاق سراح الخالة ميساء بعد اعتقالها بعدّة أيام. تحدّثتُ معها بعد خروجها مرّةً وحيدةً في مكالمةٍ هاتفيّةٍ بعد خروجها بأسبوع. كانت قليلة الكلام ولم أستطع استيعاب ما لاقت في السجن تمامًا، لقد تعرّضت للتعذيب الشديد بكل تأكيد، كما دارين والعم الياس اللذين كانا حتّى ذلك الوقت لا يزالان في غياهب الظلام يصارعان سجّانهما،

إلّا أن ياسمين أبقت تواصلها السريّ معي. كنّا نتحدث بين الوقت والآخر بالتلميح والألغاز. لقد تحوّلت ياسمين فجأةً إلى شخصٍ يذكّرني كثيرًا بدارين ولم أعد أرى في كلامها وصوتها عينَي أمّها تتمحّصانني بقرف، بل صارت شخصًا لطيفًا، حتّى أنّني تمنّيت اللقاء بها ولو لمرةٍ واحدةٍ لأعانقها، علّني أجدُ فيها رائحة دارين. كنتُ حينها في وضعٍ يسمح لي حتمًا بالغفران لها جميع أفعالها السابقة. كأن تعاطفها معي ومع دارين والعم الياس وبراءها ممّا اقترفت والدتها قد جبّا كل ما قبلهما. حتّى بثينة، هي بريئة جزئيًا ممّا حلّ بدارين. لقد أرادت فقط إيذائي أنا والعم الياس ولم تكن تعلم أن ابنتها كانت هناك. ربما يأكل الندم قلبها لأنّها قد جلبت لابنتها الويلات اللامنتهية بفعلتها تلك، ولكن ما الفائدة الآن؟ لقد عانى بسبب بثينة العديد من البشر. هكذا هو الشرّ في هذه البلاد، هكذا هو الأذى، قريب المنال. لا أسهل من أن تودي بأحدهم إلى الهلاك هنا، في ظلِّ شريعة الغاب التي تتّبعها السلطة. مخبرو الدولة يتربّصون بكل مخلوقٍ ناطقٍ في هذه البلاد منذ عشرات السنوات، وخلال شهور الثورة الأولى صاروا أدوات لا يمكن للنظام الاستغناء عنها، وخاصةً في العاصمة، قلعة النظام المحصّنة بالجواسيس والمتخاذلين، والتي تغصّ بالمكلومين.

كنت أشتاق لدمشق فعلًا، ولكنّني كنت أكرهها أيضًا. كانت في نظري سجنًا كبيرًا يحوي ملايين البشر. لا أحد يجرؤ هناك حتّى على فتح فمه. لم أكن لأتردّد لو سنحت لي الفرصة بزيارة عمّي هشام أو الخالة ميساء، ولكن السماء السابعة كانت أقرب إلينا من دخول دمشق

التي كانت تبعد عنّا عدّة كيلومتراتٍ فقط. ولكن الأمل موجودٌ بالحرّية الموعودة. حرّية دمشق من سجّانيها وكسرها للسلاسل والقيود وانتفاضها معلنةً نصرًا عظيمًا يَجبر كسرنا وتزهر له أرواح رفاقنا الراحلين من جديد.

كان علينا في تلك الفترة الدفاع عن أهدافنا وأفكارنا أولًا بعيدًا عن التديُّن والأدلجة، فالإسلاميون كانوا قد بدأوا يحتلون صدارة المشهد مع اتجاه الثورة نحو العسكرة. لربما كان صعود تيارٍ كهذا أمرًا طبيعيًّا في خضمّ الفوضى التي لا بدَّ لها من إبراز توجّهات جديدةٍ مثيرةٍ للجدل ودفع أطيافٍ لربما غير مألوفةٍ نحو الظهور. إلّا أن أكثر ما كان يثير خوفنا كنشطاء ثوريين كان عقلية الإقصاء المعروفة لدى الكثير من الإسلاميين.

لقد كان جهدنا الأكبر يتركّز على الحفاظ على سلميّة الثورة. ومع أنّني كنت ولا أزال من أنصار تلك السلميّة، إلّا أنّني لا أستطيع نكران أن اللجوء إلى السلاح كان أمرًا حتميًّا عاجلًا أم آجلًا بعد أشهرٍ من تعرّض الشعب للعنف اللامحدود، ورزوحه تحت نار مواجهة الرصاص وخذلان كل العالم. لم أشأ الانخراط في أي نشاطٍ مسلّح وبقيت الثورة الأولى في نظري هي عروس كل الأحلام ومنتهى الأمل، كما كانت لدى انطلاقتها الأولى، تشعُّ حياةً وروحًا. تجمع مختلف الناس وتلمّهم إليها، تغريهم بفتنتها وتذرهم مهووسين بها.

مع استشراء السلاح وسيطرة فصائل عسكريّةٍ على معظم مدن ريف دمشق، تراجعَ الحراك المدني بشكلٍ كبيرٍ بسبب القصف

والمعارك والأوضاع الأمنيّة حينها. حتّى أن ناشطي المجتمع المدني وخاصّة أولئك الرافضين للتسليح أو لديهم مواقف مخالفة لأفكار الفصائل، كانوا عرضةً للاعتقال والتعذيب من قبلهم. لم تكن تلك الفصائل لتمنحنا حرّيتنا التي كنّا نحلم بها، ولم آمل منها أن تكون يومًا أداةً حقيقيةً من أدوات الثورة، باستثناء بعض المجموعات التي حافظت على أجندتها الوطنيّة بعيدًا عن إرادة الدول ومصالح الداعمين.

بقيتُ لفترةٍ طويلةٍ أسكن تلك الغرفة التي أحببتها جدًّا برفقة قطتي لولا التي وجدتها ذات يومٍ تعاني البرد والجوع في الجوار، كانت تبلغ من العمر أيامًا، مثل روحي التي تفتّحت في الثورة.

11

- آدم! - قال لي الرجل الصغير ذو الشعر الطويل وهو يحملق إلى وجهي بغرابة.

كنت حينها أجلس لدى أحد الأصدقاء في الغوطة مع ناشطين آخرين عندما دخل ذلك الشاب، يتأبّط بندقيّة من طراز كلاشينكوف. بدأ بمصافحة الشباب الذين كانوا معي واحدًا تلو الآخر والجميع يرحّب به: "أهلًا أبو السوم!".

أطال الشاب النظر إلى وجهي بينما يشد على يدَي بقوّةٍ ويبتسم، ثم أردف:

- ما عرفتني يا آدم؟
- سامي صح؟ - سألته بارتباك.
- صح! - أجابني واقترب مقبّلًا خدّي الأيمن والأيسر.

استغرق سامي في الحديث مع الشبّان الآخرين حول حياته مع الثوار وآخر المستجدّات العسكريّة، وعندما استطاع الإفلات من أسئلتهم أخيرًا استدار نحوي قائلًا:

- ما قلت لي يا آدم. شو جابك لهون؟
- اللي جابك هو اللي جابني!
- أنت اختفيت عن الجامعة فجأة. فكرتك متت - قال لي ضاحكًا.

- ما أسهل كلمة الموت بهالبلاد. بس لا تخاف. عمر الشقي بقي! أنت شو أخبارك؟ شو وصّلك لهون؟ ومعك سلاح كمان؟ - قلت له بلهجةٍ لا تخلو من التأنيب.
- اعتقلوني من الجامعة بعد ما اختفيت أنت بكم يوم، أنا ووسام كمان.
- وسام؟ شو أخباره؟ شو صار معكم؟
- بقينا بالفرع 251 شهرين مع بعض. بعدها طلعوني، ووسام بقي جوّا. بس بهالشهرين، دقنا الويلات. كنّا نتعذّب تعذيب، حتّى الحيوانات ما بتتحمله.

سرت القشعريرة في جسدي، تذكّرتُ دارين والعم الياس:

- طيّب وأنت جوا، ما مر عليك زلمة كبير شوي بالعمر إسمه الياس إبراهيم؟
- الياس إبراهيم.. الياس إبراهيم - راح سامي يفكّر بينما يحك ذقنه ويمطّ شفتيه ثم قال: ما مر عليّ هيك اسم.
- فوّاز الأحمد؟ - تابعت سؤاله.
- لا والله. أنا آسف.
- خسارة. الحمد لله ع سلامتك يا سامي. والله يفك أسر وسام.
- أنا قطعت الأمل من زمان. أخي اعتقلوه بدير الزور السنة الماضية ومات تحت التعذيب هنيك. الوضع بالمعتقلات مأساوي يا آدم. أنا ما بدّي خوّفك على أحبابك، بس خلّي ببالك أسوأ الاحتمالات. والله يفك أسرهن جميعًا.

لفّني حزنٌ شديد. ماذا يعني ذلك؟ عليّ نسيان دارين والعم الياس؟ فكّرت حينها. يا إلهي، لقد كنت ألمس الفظاعة في حديث سامي، وأثار ذعري وقلقي. الأحزان لا تُنسى، ولكنّها مع الوقت تصير أكثر قابليّةً للتجاهُل. كأن ذاكرتنا رفوفٌ معلّقةٌ فوق بعضها البعض على جدران أرواحنا، كل فترةٍ تنزل الأحزان إلى رفٍّ أسفل. حتّى يأتي من يفتح الجروح ويعيد رفع الأحزان القديمة إلى الرفوف العلويّة بعد أن ينفخ عنها الغبار، فتستعيد قدرة أنيابها على نهش قلوبنا. شعرت بإعياءٍ شديدٍ فطلبت الأذن من الرفاق بالمغادرة، فاستأذن سامي للخروج معي بعد أن شعر بأنّني لست على ما يرام.

تمشّينا معًا تحت هدوء الليل ورحنا نتسابق في استحضار ذكريات الجامعة. شرعتُ أسأله عن زملائنا السابقين وإذا ما كان لا يزال على تواصلٍ مع أحدهم.

قبل أن نفترق عند أحد الشوارع قال لي سامي:

- بتسمح لي أهديك هديّة يا آدم؟
- هدية؟ إلي أنا؟ - سألته.
- أي إلك أنت - أجابني وسحب من تحت حزامه مسدّسًا رصاصي اللون ومدّه إليّ، قائلًا:
- خوذ هاد. بيلزمك شي يوم. دافع فيه عن نفسك عند اللزوم.

تردّدتُ كثيرًا. أنا لم أكن قد استخدمت سلاحًا في حياتي قبل ذلك.

- خوذ، هاد هدية منّي إلك! لا تردني خايب - أصر صديقي عليّ.

أخذت منه المسدس ودسستهُ في جيبي، قبل أن أعانق صديقي بحرارةٍ وأمضي. ومنذ ذلك اليوم، لم أرَه.

12

تعرّفت بعد فترةٍ إلى إحدى الفتيات في الحي الذي كنت أقطنه. بقينا على تواصلٍ عبر الهاتف والرسائل النصيّة لأنّني لم أرد اللقاء بها كوني غريبًا عن الحي، وتهمني سمعتي هناك جدًّا، ولكنّني لم أستطع أن أحدّد مشاعري تجاهها تمامًا. لقد كانت على ما أعتقد خليطًا من مشاعر الإعجاب والاحترام والشهوة في آنٍ معًا. وعندما لمّحت لي بمشاعرها تجاهي، صدر عني ردّة فعل حادّة فجرحت مشاعر الفتاة. بعدما قلبت كلامها برأسي أكثر، عدت وكلّمتها بل عبّرت لها عن مشاعر الإعجاب في ليلةٍ من الليالي. كانت تُدعى ريما؛ فتاة جميلة ووقورة. الغريب أنّني لم أسألها مرّةً عن عمرها، ولكنّني أظن أنّها كانت تكبرني سنًّا. ربما كان هذا سببَ دفعها هي الأخرى لئلا تبوح لي بعمرها بعد أن أخبرتها عن ميلادي.

- 2 أيّار 1992.
- برجك الثور!
- إي شو يعني؟
- ولا شي بس برجك الثور، ما بيتفق مع برجي - قالت لي ذلك في إحدى مكالماتنا القليلة، وصمتتْ. وصمتُّ بدوري أيضًا.

سألتني أيضًا إن أحببت يومًا ما في حياتي من قبل، فأجبتها بسرعة: "لا". بعد سؤالها هذا، فكّرت بدارين. لقد كانت دارين تحبّني ولا أدري

ماذا رأت فيّ حتّى أحبّتني. ربما دفعها إلى ذلك منع والدتها لها عن اللعب معي عندما كنّا طفلَين، وربما لأنّني كنت الذكر الوحيد في محيطها. لقد كان لدارين عديد المعجبين في الجامعة ولم تلقِ بالًا لأيٍّ منهم يومًا. كان الجميع يرى حبّها لي في عينيها عندما تذكر اسمي أو تكون معي. كان عليّ التفكير برسالتها الوحيدة التي لم أرد عليها وقُبلتنا الوحيدة. بالنسبة إليّ كانت تلك الفترة فترة طفولةٍ بريئة أمّا بالنسبة إلى دارين فقد كانت قمّة النضج والرغبة والإرادة. لقد خشيتُ على ريما من نفسي ومن رغباتي. كانت الفتاة الأولى التي أشعر تجاهها برغبة جنسيّة. كان صوتها رقيقًا إلى درجة أنّني كنت أستثار على الهاتف أثناء حديثي إليها، لذا تحاشيت اللقاء بها في البداية رغم إلحاحها على ذلك. كانت الفتاة تنضح بالأنوثة. طويلة القامة ممتلئة الجسد. أرسلت لي صورتها ذات مرّةٍ فعجبت لجمالها الذي تسترهُ قدر المستطاع عندما تخرج إلى الطريق. شعرها الطويل الكستنائي وبشرتها البيضاء يصنعان مع عينَيها العسليتين مزيجًا من هدوء الجمال الغربي والجاذبيّة الشرقيّة الصاخبة. لم أستطع مقاومة نفسي فتواعدنا ذات يومٍ صيفيٍّ في مكانٍ خارج المدينة. كان الأمر خطيرًا جدًّا، ففعلٌ كهذا ليس مقبولًا في المجتمع ذاك، ولا الوضع الأمني كان يساعد على الحركة بحرّية. كانت غوطة دمشق الشرقيّة تسيطر عليها تمامًا فصائلُ عسكريّةٌ معظمها إسلاميّة والحرب قائمةٌ ليل نهار. كانت قوات النظام لا تكاد تترك يومًا يمر دون محاولة مهاجمة عدة نقاطٍ في ريف دمشق.

على وقع أصوات القصف المتقطّعة وضجيج إطلاق النار المتبادل الذي كان قادمًا من مكانٍ ما في الغرب، قدت سيارتي مع ريما

بعد أن تواعدنا في مكانٍ ناءٍ بعض الشيء. لم نتفوّه طوال الوقت الذي قدنا فيه بكلمةٍ واحدة. كانت ريما تنظر باتجاه الطريق بينما أحاول أنا استراق النظر إليها بين الحين والآخر. كان ذلك في أحد أيام شهر آب لعام 2013 وحدّة الشمس تكاد لا تُطاق. لم يكن في رأسي أي مخطّطٍ لذلك اليوم. أردت أن أكون معها لأختبر مشاعري التي كانت متضاربةً جدًّا.

أويت وريما إلى أحد المنازل المهدّمة في الجوار. عرضتُ عليها دخول البيت بمنتهى العفويّة، دون تفكيرٍ بأي شيء. كان واضحًا أن المنزل ذاك قد تعرّض لأحد الصواريخ أو القذائف. كان يبدو كومةً من الأحجار المتجمّعة فوق بعضها والآيلة إلى السقوط في أي لحظة. لم تتردّد ريما في الدخول عندما عرضتُ عليها ذلك. جلسنا قرب بعضنا فوق كومة أحجار بينما نتلفّت حولنا بخوف. أشعلت سيجارةً فطلبت منّي واحدة:

- ما كنت بعرف إنّك بتدخني، وإلا كنت ضيّفتك من الأول - قلت لها بينما أمد لها السيجارة.

أزالت الغطاء عن وجهها ووضعت السيجارة بين شفتَيها المكتنزتَين بطريقةٍ مثيرةٍ جدًّا، وراحت تقول بينما تمدُّ يدها لي طالبةً الولّاعة:

- كنت دخّن.

دخّنا سجائرنا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض. أدارت ريما وجهها للطرف الآخر وراحت تضغط سيجارتها على أحد الأحجار، وبينما

كانت تستدير نحوي تفاجأت باقترابي منها وتقبيلي خدّها. ارتبكتُ بعض الشيء، بل ندمت في بادئ الأمر على فعلي هذا. تحوّل لون خدَّي الفتاة الورديَّين إلى لون الخمر شيئًا فشيئًا، فاقتربتْ منّي مقبّلةً شفتيّ بشغف. لم أبدِ أي مقاومة. تحوّلت مشاعر الندم إلى رغبةٍ بالاندفاع إلى ذلك الأمر على ما فيه من جنون. أمسكَت ريما رقبتي وقفزت في حضني وأنا أهمس في أذنها: "بحبّك". بقينا على حالنا ذاك لدقائق وما أن بدأتُ ألمس نهديها بعد أن دسست يدي تحت ملابسها، حتّى اقتربت أصوات القصف فجأةً، فهلعت هي وقفزت قائلة:

- خلينا نروح، بلا ما نموت هون!

نهضتُ ونفضتُ ثيابي ومشينا معًا بحذرٍ باتجاه الخارج. توقّفت ريما فجأةً ورفعت عن الأرض حمالة صدرٍ سوداء اللون قد حوّلها غبار الأنقاض إلى بيضاء، ولوّحت لي بها وقد تبدّلت ملامح الخوف على وجهها إلى ملامح غضب.

خرجنا سريعًا وركبنا السيارة مجدّدًا قاصدين مكان لقائنا الأول:

- كم بنت آخذ قبلي على هالمكان؟ - سألتني الفتاة المنقّبة.
- عن شو عم تحكي؟ شو قصدك؟ - سألتها بدوري مجاوبًا.
- قصدي كم بنت استدرجتهن لهناك وعملت معهن ذات الشي؟
- ريما ما عم أفهم. شو قصدك؟
- الستيانة اللي كانت بالأرض. كانت لبنت حلوة يا ترى؟
- أنتِ جنيتِ شي؟ شو بيعرفني لمين كانت؟!

- مين بيعرف؟ مين أخدني على هالمكان؟
- بس هي أول مرة بفوت فيها على هاد البيت. وما بعرف بوجوده من قبل. حتّى المنطقة كلها ما بعرفها.
- هه واضح. خلص اسكت!
- طيّب.

كنت أعلم أن ريما لن تصدقني مهما حاولت إقناعها، وفي الوقت ذاته أحسست بأنّني غير مُطالبٍ بإقناعها أساسًا. افترقتُ عن ريما حيث التقينا قبل ساعةٍ ونصف، نزلَت من السيارة ومشت خطوتين دون أن تلقي عليّ التحيّة على الأقل، ثم عادت أدراجها وأدخلت رأسها من النافذة وقالت بغضب:

- باي يا روميو!

لقد كانت مشاعري تجاهها مضطربةً جدًّا. لا أعتقد أنّني كنت أحبّها فعلًا. لست أنا من نطق أصلًا بكلمة "أحبّك" بل شخصٌ ما في داخلي. أراد أن لا ينتهي العناق. ربما طفلٌ في داخلي لم يمت بعد، ينتظر من يعانقه وحسب. ولكنّني بعد أن غادرت وددتُ لو ألحقها لأخبرها بأنّها تظن بي سوءًا. لستُ كما كانت تظن بي. تردّدتُ قبل أن أدير السيارة قافلًا إلى محل الخراطة. لم أتحدث مع ريما خلال الأيام القليلة التالية التي عاشتها بعد ذلك أبدًا، ولم تحاول هي محادثتي أيضًا.

13

عدتُ إلى ورشة الخراطة فلم أجد فراسًا هناك، سألت عنه جارنا في الورشة المجاورة فقال إنّه لم يفتح الورشة في ذلك اليوم، فتوجّهت إلى منزله. كان أكبر أبناء فراس الثلاثة يبلغ من العمر تسع سنوات وأصغرهم طفلة بعمر الستة شهور. طرقت الباب ففتح لي ابنه الأكبر محمد:

- كيفك حبيبي محمد؟ وين البابا؟ - قلت له وأنا أنحني مبتسمًا.
- البابا مريض - أجابني الصبي.
- طيّب قول لوالدتك إنّي أجيت لشقّ عليه!

كان فراس يعاني غالبًا من تسمّمٍ ما، فقد كان بطنه وأمعاؤه يؤلمانه بشدّة، فاتّجهت إلى صيدليةٍ مجاورةٍ وجئت إليه ببعض الأدوية التي ساعدته في استرجاع عافيته.

* * *

عدتُ إلى غرفتي في ذلك اليوم وقد كانت الاتصالات في المنطقة خلال اليومين الماضيين سيّئةً جدًّا. فتحت هاتفي ووجدت رسالةً نصّيّةً من ياسمين ترجوني فيها بمعاودة الاتصال بها بعد أن حاولَت الاتصال

عشرات المرات. انتابني الخوف للحظات. ما عساه يكون خطب الفتاة؟ خفت على عمّي هشام فهو يعيش معها بمفرده.

أرسلتُ رسالةً لياسمين، فاتصلت بي بعد ساعة:

- آدم! كيفك؟
- منيح. أنتِ كيفك؟
- وصلتنا رسالة من دارين قبل أسبوع. أنت كمان لازم تقرأها - قالت ياسمين وبدأ البكاء يغيّر صوتها شيئًا فشيئًا.
- من دارين؟ شو مكتوب فيها؟ - سألت ياسمين التي لم تجب.
- ياسمين قولي لي! دارين منيحة؟! كيف صحتها؟ شو قالت بالرسالة؟ - رحت أتوسّل إليها.
- ما بعرف. الرسالة عمرها أكثر من ست شهور حسب ما قالت الصبيّة اللي وصّلتها للخالة ميساء، البنت كانت مع دارين جوّا - قالت ياسمين بصعوبة.
- ابعتيلي الرسالة فورًا!
- تخيّل يا آدم، حتّى ما ذكرت اسمي برسالتها! يا الله - طفقت الفتاة تنتحب.
- لا حول ولا قوة إلا بالله - لم يخطر ببالي كلمات أخرى، قلت ذلك بصوتٍ مرتجف وخائف.

"أعزائي الثوّار على المقلب الآخر من هذا العالم، عالم الأحرار. ليتني أعرف ما هو تاريخ اليوم لأعنون به رسالتي هذه إليكم والتي لا أدري متى ستصلكم أو إن كانت ستصلكم أصلًا. قد يسعدكم أنني لا

أزال حية، لكن هذا يحزنني جدًّا. أنا أتمنى الموت منذ أول يومٍ لي هنا. أردت كتابة رسالتي هذه فقط لسببٍ واحد وهو رجائي منكم أن لا تحزنوا إن مت هنا، بل أن تفرحوا، فأنفاسي الأخيرة هي لحظات خلاصي وانعتاقي من عذابي هذا. أرجوكم، لا تحزنوا حينها. أتمنى أن يكون آدم والعم الياس والخالة ميساء ووفاء وفوّاز وأبي بخير، أتمنى حقًّا أن تكونوا جميعًا بصحةٍ جيّدةٍ وأحرارًا سعداء. أنا أحبكم جدًّا، ربما لقاؤكم هو آخر شيءٍ قد يحزنني أن أموت دون أن أحقّقه. آه، هناك طفلي أيضًا ذو العشرة أشهر. لقد كان هذا الطفل بمثابة إنقاذٍ لي، فالتحرّش بي واغتصابي لم يتوقفا حتى بلغت الشهر السابع من حملي به. محزنٌ أن والده هو أحد هؤلاء الجزّارين الذين يدورون حولي، كم أتمنى أن أعرف أي واحدٍ منهم هو والد طفلي، لأقتله أولًا إذا ما قدرت على ذلك. سأحزن قليلًا لأجل طفلي آدم أيضًا إن مت، فهو لا ذنب له.

أحبكم جميعًا.

دارين".

نظرتُ إلى الرسالة التي صوّرتها لي ياسمين. إنّه خطّ يد دارين ومن يعرفه أكثر منّي؟ شكل الأحرف نفسه كما في رسالة حبّها إليّ قبل قرابة الأربع سنوات. الرسالة التي لم أجب عليها. آهٍ يا دارين. كم تؤلمينني. كم من الوجع عليّ أن أقاسي بسببك وكم قاسيتِ بسببي! كل ما جرى لكِ كان لأنّك أحببتني وحسب. لقد دفعتِ لقاء ذلك الحب حضن عائلتكِ في البداية، ثم حريتكِ وعذريتك وحياتك. لو تعلمين يا دارين كم هو قاسٍ "عالم الأحرار" هذا. لو تعلمين أن الحياة خارج

الزنزانة ليست أقل بؤسًا من الحياة بين جدران السجن. أن الصفعات هنا لا تتوقّف. أن هذا الوطن يودّع أبناءه إلى الموت كل يوم. يا لك من ثائرةٍ يا دارين! يا لك من عظيمةٍ أيتها الطاهرة! لقد ثرتِ قبلنا جميعًا، رفضتِ الظلم ونبذتِ حياة الذلّ قبل أي أحد في سبيل الآخرين.

أصبت بالغثيان فور الانتهاء من قراءة الرسالة وركضت إلى المغسلة، أدخلتُ يدي إلى حلقي محاولًا إخراج كل ما في جوفي. نظرت إلى وجهي في المرآة وبدأت أتحسّسه بأطراف أصابعي. كنت لا أشعر بوجهي أبدًا. كان وجهي يبدو مختلفًا جدًّا، نحيلًا وأصفر وشاحبًا، كوجوه الموتى. يا للهول! دارين! أي قلوبٍ قاسيةٍ استطاعت ضخّ الدم إلى أطرافِ عذّبتك؟! أي أيادٍ آثمةٍ امتدت صوبك بالسوء؟! أي نوعٍ من البشر هم هؤلاء؟! ولماذا؟ اغتُصبت دارين، وحبلت من أحد الوحوش ووضعت طفلها في سجنها ذاك، تعيش معه في تلك الحفرة، يتقاسمان الويلات والأوجاع. بل سمّت طفلها آدم! كيف سيكبر آدم ذاك؟ ربما لن يكبر بشكلٍ مختلفٍ كثيرًا عن الشكل الذي كبرتُ أنا عليه، ولكن بفظاعةٍ أكبر بكل تأكيد!

ماءت بقربي قطتي الصغيرة لولا واقتربت مني تداعب قدمي. حملتها وقبّلتها قائلًا: "ابحثي لك عن منزلٍ آخرٍ يا حلوتي". اقتربت حاملًا إيّاها من الباب ووضعتها في الخارج وأغلقت الباب مجدّدًا بينما أسمع صوت موائها متوسّلةً إليّ أن أفتح لها الباب مجدّدًا.

توجّهت إلى خزانتي مترنّحًا وأخرجت منها المسدس الذي أعطاني إياه سامي قبل عدّة أشهر. تأمّلت السلاح وقلت في نفسي: "شكرًا لك

يا سامي، لقد كنت محقًّا عندما أخبرتني أنّني سأحتاج هذا الشيء ذات يوم".

رفعتُ المسدس وألصقت فوّهته إلى صدغي. كنت أرتجف تمامًا، كنت منهارًا بالكامل كما لم أكن مرّةً من قبل. لم أستطع أن أطرد صورة دارين بينما يغطيها جسد رجلٍ ضخمٍ تأنّ تحته ألمًا. جرّدت نفسي من قميصي الذي يغطي نصف رقبتي ووقفتُ أمام المرآة. طفقتُ أتأمّل جسدي النحيل قبل أن أوجّه المسدس إلى جمجمتي أخيرًا، ورحت أطلق الرصاصات كلّها على انعكاسي في المرآة رصاصةً تلو الأخرى حتى فرغ المخزن.

14

21 آب 2013

الثانية صباحًا

إنّها ليلة القيامة. لن تكون القيامة مهما بلغت فظاعتها وشدّة وقعها أكثر رعبًا من تلك الليلة. كنت قد سقطت نائمًا على الأريكة وحطام المرآة والجدار يحيط بي. فتحت عينَيّ على أصوات السيارات والصرخات والعويل. عرفتُ أن قصفًا قد استهدف المنطقة. خرجتُ عاريًا من المنزل دون أدنى تفكيرٍ ونظرت حولي في كل الاتجاهات. كان ظلام الليل قد تفجّر أحمر، وكأنه الجحيم. أمام باب المنزل كانت قطتي لولا ميتةً بينما تلتصق بالباب متشبّثةً به. شممتُ في الجو رائحةً غريبة، رائحة الموت الأصفر التي لا أنساها، رائحة غاز السارين. بدأتُ بالركض في الطريق كالممسوس، الهواء كان يلامس صدري المكشوف للمرة الأولى، وربما الأخيرة. كنت كما نزل آدم إلى الأرض أول مرةٍ ليكتشف عورته، أحاولُ تغطية الوحمة بكلتا يدَيّ والركض في أي اتجاه. كيف السبيل للفرار من هذه الرائحة؟! لا سبيل، نحن نتنفسُ الموت الآن. هل عليّ إشغال نفسي بمحاولة تغطية الندبة أم بمحاولة إيجاد هواءٍ صالحٍ للتنفّس؟ بدأت عيناي تدمعان بشدّة وعضلات جسدي تتشنّج وتضعف. صارت الدنيا تدور بي، كل شيء يدور. الناس الذين

تساقطوا واحدًا تلو الآخر، كانوا يسقطون نحو الأسفل تارةً ونحو الأعلى في عينَيّ أطوارًا. أكوام البشر مكدّسةً فوق بعضها البعض، من لا يزال يستطيع التنفس كان قد حمل من فقدَ الوعي أو فارق الحياة فوق كتفيه راكضًا به دون هدف، دون وجهة، راكضًا به يرجو رحمة السماء، وعدالة الإله. ولكن، قد قضي الأمر، سنموت جميعًا هنا. اختنق في تلك الليلة الآلاف، ولا يزال قاتلهم الطوطم حتّى اليوم طليقًا.

نداءات التوسُّل وطلب المساعدة وصراخ النساء وبكاء الأطفال اختلطت صانعةً في دماغي جوقةً من الطبول التي تضرب ضربًا يكاد يفجّر جمجمتي. كان كل شيءٍ يسقط أمامي. الرجال، النساء، الأطفال، العجائز، القطط، الكلاب، الطيور، الأزهار، أشجار التوت والعنب، نجوم هذا الليل والقمر، الضمائر والقوانين والشرائع والأعراف والآمال والأحلام. كل شيءٍ كان يسقط. بدأ جسمي يسخن ويسخن، والعالم يضيق بي. لم أعد مهتمًّا بكوني عاريًا، أو كوني عاجزًا عن مساعدة الناس. كنت أريدُ البقاء واقفًا وحسب. لا أريد أن أفقد وعيي يا الله! بدأتُ أشعر أن رأسي يثقل، كان يؤلمني بشدّة، رحتُ أميل إلى السقوط بينما أفقدُ قدرتي على الرؤية من كثرة الدموع. هويت وهويت، وكأنّني أسقط من السماء كسقوطي الأوّل، أسقطُ وأسقطُ ولا أصلُ القاعَ، وكأن ذلك السقوط كان آخر ما كُتب عليّ في كتاب شقائي الجهنمي. أغمضت عينَيّ أخيرًا.

القسم الثالث

السعادة؟ صحّة جيدة وذاكرة رديئة!

إرنست همينغواي

1

"لا ملجأ، لا مهرب، واجه موتك الذي تستنشق. لا تحتمِ وراء الجدران ولا تحت السقوف، لن تحميك. لا تتوسّل السماء ولا الغيوم، فلن تزيدك إلّا حممًا ترميها فوق دماغك. لا ترجو النجاة، فالهواء مليءٌ بالموت، الجو يعبق به. لا تطلب المساعدة، فالخيبة مرّة، أكثر مرارةً من موتك الكئيب هذا. أينما ولّيت وجهك لن ترى سوى منجل ملك الموت، ولن تشمَّ سوى رائحة أنفاسه. كيفما استدرت وفي أي اتجاهٍ ركضت لن تفلت بعنقك من مخالبه. لن ترى سوى نيرون وقيثارته الصفراء، يبتسم بينما يمطّ رقبته ليلقي نظرته الأخيرة عليك تحترق بلا نيران، تُقتل دون دماء، فقط لأنّك وُلدت في وطنٍ سيصير حتى هواؤه سمًّا زعافًا يميتك. يعزف لك لحن فنائك، وأغنية بقائه فوق عرشه المرصوف بجماجم الأبرياء. يتربّع على قمة الجبل البعيد، ويضحك. يشرب كأس انتصاره فوق الجثث. يقتلك اليوم كما لم تمت من قبل، اختناقًا، بل قهرًا. يمتلئ قلبه فرحًا لخلاصه منك أيها المسكين. الغبي، لا يدري أن الموت سيّان، وأن كل الموت موت، نكهته واحدة. لا يدري بأن لحظة خروج الروح ستنهي الألم، وستصعد السماء بسرور. الأحمق، لا يدري أن أيًّا من طرقه لن تؤدي به إلى روما، بل كلّها ستسوقه نحو الجحيم. وأنت، ارجُ ذلك الجبل العظيم أن يبصقه، أن

يرميه، أن يرفضه، علّه يسقط أيضًا، كما يسقط هنا الجميع، كما سقطت قطتي، وجميع من أعرفهم".

كان هذا هو أوّل ما كتبته، أو دعوني أقل، أوّل ما نطقت به حول المجزرة بعد مرور قرابة شهرٍ ونصف الشهر على وقوعها. كنت حينها قد أتممت أسبوعي الثالث في إسطنبول. لم أحتمل البقاء في الغوطة بعد المجزرة دقيقةً واحدة. كنت بمجرد خروجي من غرفتي أستذكر كل ما جرى، فأصير كالمعتوه. مواء قطتي الراحلة كان لا يفارقني. كانت تأتيني في المنام وتستمر بالمواء. في أحلامي تلك كنت أفهم لغة القطط. كانت تلومني على فعلته بها، وتزجرني. لقد كنت ليلتها أريدُ الانتحار، فإذا بي أتسبّب بموت لولا الصغيرة بينما كنت أعتقد بأنّني أحميها. ربما كان الانتحار من حقّي حينها، ولكن ما لم يكن من حقّي أن أترك لولا تختنق أمام الباب.

كنت عاجزًا عن تخيُّل الطريق خاليًا من الجثث ومن الناس التي تركض طالبةً النجدة. نوبات الهلوسة الشديدة كانت تتردّد عليّ أيضًا في غرفتي حتّى أسبوعَين بعد المجزرة، بدأت حينها بترتيب أمور الخروج بالاتفاق مع أحد الأصدقاء الذي سيؤمّن لي طريقًا آمنًا عبر إحدى النقاط التي تحاصر الغوطة إلى مناطق سيطرة الثوار في الشمال السوري، ومن هناك سيكون بإمكاني عبور الحدود السوريّة - التركيّة.

"وهل أترك الثورة؟ لمن أترك الحلم؟". لطالما تردّد صدى هذين السؤالَين في دماغي. تردّدت كثيرًا وفي كل مرّةٍ كان ينتهي بي الأمر بضرب رأسي بالجدار من الحيرة. قرّرت أخيرًا تحت ضغط بعض

الرفاق أن أغادر، فحالتي كانت لا تسمح أبدًا بالبقاء، حتّى أنّني فكرت بالذهاب إلى دمشق، رغم علمي أن هذا الخيار هو انتحارٌ بالمعنى الحرفي للكلمة. بل انتحارٌ عسيرٌ جدًّا. كنت ألوم نفسي لأنّني لم أمت أيضًا. كان مجرّد مواصلة الحياة بالنسبة إليّ يعتبر ذنبًا أقترفه! الجميع كانوا قد ماتوا تقريبًا في ليلة المجزرة. فراس، مع زوجته وأطفاله الثلاثة. ريما أيضًا وكامل عائلتها قد فارقوا الحياة. معظم جيراني وأغلب أصدقائي. آلاف الأشخاص ماتوا في ليلةٍ واحدة. بصمت، دون دوي انفجارٍ أو إطلاق رصاصةٍ واحدة. مرّ أسبوعٌ كاملٌ لم أنم خلاله إلّا عدة ساعاتٍ متقطّعة، كنت أصحو على أقل حركةٍ أسمعها من الخارج، حتّى إذا مرّت إحدى القطط الناجية من أمام باب بيتي الصغير ذاك أو نبح كلبٌ بالجوار، وهذا الأمر ظلَّ يرهقني بعد خروجي لأشهرٍ عديدة. حتّى خلال ساعات نومي القليلة تلك كانت الكوابيس لا تفارقني. كنت أرى ريما، أرى فراسًا وأولاده يتلوّون أرضًا راجين بعض الأكسجين فأفيق مذعورًا مخنوقًا ولا أستطيع التنفّس بشكلٍ جيدٍ حتّى ساعاتٍ بعد استيقاظي. لطالما رأيت دارين ترفع طفلها نحو السماء تتوسّله أن يتنفّس، وتنادي باسمه، واسمي، بينما تموء لولا قربها، وتستنجد ريما.

لقد شاركت في حفر المقبرة الجماعيّة حيث دفنّا الجثث فوق بعضها البعض. شرعتُ أحفر وأحفر، بوجهٍ شاحبٍ، وأستذكر يوم دفن جدّي. ثم بدأنا نرمي التراب فوق الجثث المغلّفة، وكنت طوال الوقت أسأل نفسي، هل من الأفضل بالنسبة إليّ وجودي في الأعلى، وليس في الأسفل؟

عند وصولي إلى إسطنبول كانت تكفيني زجاجة واحدة ليفارق شكل الجثث المكدّسة والموضوعة في الأكياس البلاستيكيّة مخيلتي، ومع الوقت بات لا يتركني حتّى بعد الزجاجة الرابعة، وفي اليوم السابق بدأ بعد الزجاجة الخامسة بالتلاشي وبالكاد استطعت العودة إلى المنزل.

أغلقتُ دفتري الصغير بيدٍ مرتجفةٍ في حانة "كوكا بوب" في منطقة بشكتاش المطلّة على البوسفور. كنتُ قد وجدت هذه الحانة عن طريق الصدفة قبل أيامٍ خلال أولى رحلات استكشافي بشكتاش الواقعة في القسم الأوروبي لهذه المدينة العظيمة. إسطنبول مدينةٌ تفرض جمالها على الجميع، رغم أنّني قضيت الأيام الثلاثة الأولى عاجزًا عن التأثّر بجمالها. فور وصولي تعرضت لصدمةٍ أخرى. لماذا كنت أظن أنّ العالم كلّه قد توقف عن السير؟ لماذا كنت لا أستطيع تصوّر حياةٍ طبيعيّةٍ في العالم؟ رحتُ فور وصولي أنظر إلى وجوه الناس والسيارات وكأنّني مخلوقٌ فضائيٌّ هبط لتوّه على هذا الكوكب الغريب! كم كرهت المدينة وسكّانها حينها.

تناولت رشفةً كبيرةً من زجاجة البيرة الثانية التي أمامي وأنا أشعل سيجارةً أخرى. تنفّستُ دخان السيجارة ونفخته في الهواء. كان الجو رائقًا بشكلٍ رائع، والنسمات الهابّة كانت تجبرني على إغلاق عينَيّ والتنفّس بعمق. صديقي مراد لم يكن قد وصل في ذلك المساء بعد. رجلٌ تعرّفت إليه قبل عشرة أيامٍ بعد أن لاحظ مجيئي وحيدًا إلى هنا ومكوثي ساعتين أو ثلاث في بداية المساء. في اليوم الرابع أو الخامس

الذي ذهبت به إلى هناك دعاني مراد إلى طاولته باللغة التركيّة فلم أفهم ما يريد تمامًا. كنت أشرب البيرة بخجلٍ وخوفٍ بعض الشيء، فسألني بالتركية أيضًا إن كنت سوريًّا، فأجبته بـ "نعم" إنكليزية.

كان مراد رجلًا في منتصف الخمسينات، إلّا أنّه طفوليٌّ جدًّا. متوسط الطول، نحيل الجسم، شاربه عريضٌ يتأرجح لونه بين الرمادي الغامق والأسود، كما كان يعرج على ساقه اليسرى، بعد حادثٍ تعرّض إليه عندما كان شابًّا. أخبرني أنّه يرتاد هذه الحانة منذ سنواتٍ طويلة وقد تعرّف فيها إلى كثيرٍ من الناس. سألت نفسي في البداية: لماذا يجلس إذًا وحيدًا؟!

حسنًا، سأعترف أنّني في البداية لم أستسغ شخصيته وحديثه، وفكرت ألّا أذهب مجدّدًا إلى تلك الحانة وأعود إلى التنقّل بين حانات تقسيم المتواضعة كي لا أراه. كان كثير الثرثرة، يجلس أمامي بزهوٍ ويظن أنه يتحدّث الإنكليزية، بينما هو يتحدّث التركيّة في الحقيقة مع استخدام بضع كلماتٍ إنكليزيةٍ بسيطة لا تكاد تشكّل عشرة بالمئة من مجمل كلامه. لم أكن في البداية مهتمًّا بكل حديثه وكنت كلّما شككتُ بأنّه يطرح سؤالًا أجبته بنعم. مع الوقت بدأت أفهم عليه قليلًا وبدأ هو أيضًا يتعلّم استخدام الإنكليزية بشكلٍ أفضل. كان مراد يبالغ في كل شيءٍ، يحكي لي عن ماضيه وكأنّه كان في السابق سياسيًا وعسكريًا ورجل أعمالٍ وعاملًا ومشرّدًا، كلّها معًا. كان ببساطةٍ يعتقد أنّه يعرف كل شيء. على كل حالٍ كنت بعد بداية حديثه بقليلٍ أبدأ بفقدان القدرة على التركيز ثم أتوجّه إلى غرفتي التي تقع في حيٍ بيولو قرب ساحة تقسيم المجاورة. لقد تأخّر كثيرًا في ذلك اليوم عن القدوم.

كنت أبدو خلال طريق خروجي من الغوطة وحتّى وصولي إلى وجهتنا في الشمال أبله الشكل، كأنّني خرجت لتوّي من كهفي بعد مكوثي هناك أعوامًا طويلة. خرج معي شابّان من الحصار لم أكن أعرفهما، أحدهما شقيق أحد قادة الفصائل، لو لم يرد أن يخرج لما استطعت الخروج. حالفني الحظ على أيّة حالٍ بأن أمّنت مقعدًا لي معهم بعد أن أقرضني أحد أصدقائي مبلغًا كافيًا من المال.

لم أكن أعرف أي شيءٍ عن تفاصيل الرحلة، كل ما أعرفه أنّنا سنتوّجه صوب الشمال. طفقنا نعبر النقاط العسكريّة واحدةً تلو الأخرى بمنتهى السلاسة، حتّى أن بعض النقاط لم تطلب منّا التوقف أساسًا. كنت أنظر إلى الجنود عند كل نقطة تفتيشٍ ببرودٍ تام. لربما وددتُ لو أصرخ في وجوههم موبّخًا وشاتمًا، ولكن ما الفائدة؟ هم عبيدٌ على أيّة حالٍ ولن يغيّر صراخي من تلك الحقيقة أبدًا. بعد ساعاتٍ من القيادة تلقّى السائق مكالمةً تفيد بأن عليه تغيير وجهته، ما أثار ارتباكه بشكلٍ كبير، فتوقّف على الطريق وبدأ بإجراء اتصالاتٍ كثيرةٍ خارج السيّارة. كان من المفترض أن نتّجه إلى مدينة إعزاز شمال غربي حلب إلّا أن المعارك اشتدّت يومها هناك، ما أفضى إلى سيطرة تنظيم الدولة على المنطقة. إذًا، أوغادٌ جددٌ يدخلون على الخط. سألتُ نفسي: كم من الأعداء علينا أن نواجه على درب حرّيّتنا المضرّج هذا؟!

غيّرنا وجهتنا كما أخبرنا السائق وقادَ سيارته بعدها ساعةً ونصف الساعة. وصلنا مدينة بنّش في ريف إدلب في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. كان علينا المبيت ليلةً واحدةً هناك وتعرّفت في تلك الليلة إلى شابٍّ يُدعى

حليم. كان الشاب أحد مقاتلي الجيش الحر وحاول طوال الليل التحدّث إليّ إلّا أنّني كنت صامتًا كل الوقت. كنت أجيب عن أسئلته بشكلٍ مقتضب حتّى ارتاب الشاب منّي. عندما كان يسألني عن الأحوال في الغوطة لم أكن أجيبه أبدًا وودّعته صباحًا قائلًا: "انتبه على حالك يا رفيقي". عبرت يومها إلى تركيا عبر معبر باب الهوى الذي يسيطر عليه مقاتلو المعارضة تاركًا سوريّة خلفي، مغادرًا إيّاها للمرّة الأولى والأخيرة، متوجّهًا إلى أوروبا، حاملًا في قلبي بؤس الكون كلّه معي. أحمله كما أحمل حقيبتي الصغيرة، أحمله ويثقل كاهلي كأنّه أطنانٌ من الحديد الساخن أحملها على ظهري. غادرتُ المكان الذي عرفت فيه معنى الثورة، معنى الرفاق، معنى أن تأبه لمن هم حولك وتهتم لمصيرهم، معنى ألّا تكون أنانيًّا تحيا لنفسك وحسب. غادرتُ وطني الذي كان قد وُلدَ للتو، ولم يتمّ عامه الثالث بعد.

بعد الزجاجة الثالثة بدأت أشعر بتشوّش أفكاري وبنشوةٍ غريبة. لم أكن معتادًا على الشراب، ولكنّني اضطررت للجوء إليه في إسطنبول. جاء مراد بينما كنت أهمُّ بطلب الزجاجة الرابعة. جلسَ الرجل أمامي بفرحٍ وحيّاني واصفًا إيّاي بصديقه العزيز:

- اليوم لن نشرب هنا. أنا أدعوك اليوم إلى منزلي لتتناول الشواء - قال بلغته الإنكليزية التعيسة.

حاولت الاعتذار منّه بشتّى الوسائل وعندما جاءت زجاجتي الرابعة ردّها للنادل متحدّثًا إليه بالتركيّة، ثم قام بدفع ثمن الزجاجات الثلاث الأولى:

- لا تقلق يا صديقي لقد حصلت على المال وسنحتفل اليوم معًا - قال لي بسرور.

اتّقدَ ذهني مجدّدًا وبدأت أشعر بالخطر. خفت تمامًا. إلى أين سيأخذني هذا الرجل؟ أنا بالكاد أستطيع فهم كلامه، فكيف أذهب معه إلى مكانٍ مجهول؟ أردت الفرار منه فقلت له وهو يقود سيارته البالية من طراز رينو 5 موديل 1990 إن عليّ النزول لقضاء الحاجة فلم يفهم عليّ. كرّرت ما قلته فراح يربرب بالتركيّة كلامًا لم أفهمه، فاستسلمت للأمر الواقع عند وصولنا إلى جسر البوسفور. أخبرني مراد بأنّه سيشتري سيارةً جديدةً في الأيام القادمة وسيأخذني بها إلى قريته حيث الطبيعة جميلة، حسب ما فهمت.

عبرنا من القسم الأوروبي إلى القسم الآسيوي واستغرقَ الطريق ثلث ساعةٍ من بشكتاش إلى أوسكودار. ركنَ مراد سيّارته في شارع نجم الدين أكياي في حي زينب كامل، حيث كان يسكن شقةً متواضعةً هناك إلى جانب زوجته وأبنائه الثلاثة وعمّته العجوز. ترجّلت من السيّارة بحذرٍ في الظلام بينما كان مراد يدلّني إلى مدخل البناء. كنت مستعدًّا للهروب في أيّ لحظةٍ كما أنّني كنت أتلفّت حولي باستمرار، الأمر الذي لم يلحظه مراد إطلاقًا على ما يبدو.

بدا لي الحي فخمًا للوهلة الأولى، البنايات مرتفعةٌ والسيارات تملأ طرفَي الطريق. لكن ما أن يجيل المرء نظره بين البيوت تطل البساطة من النوافذ. كما كانت أكياس قمامةٍ وقطع أثاثٍ عتيقٍ مرميّةً قرب الرصيف. رمى مراد السلام بحماسٍ على البقال الذي كان يدخّن

أمام دكانه وراحا يصرخان لبعضهما البعض دون أن أفهم كلمةً واحدة. كنت أقف قربه كالمعتوه.

كان الجو في الشقّة يبدو احتفاليًّا جدًّا. كان مراد قد حصل في ذلك اليوم على حصّته من تركة والده بعد خلافاتٍ طويلةٍ مع إخوته دامت سنوات. تجمّعت العائلة حولي وقدّمني مراد لهم بزهوٍ ولم أفهم من كل ما قاله إلّا كلمة "أركداش" أي صديق. وراح الجميع يرحّبون بي باللغة التركيّة، فانفجر مراد ضاحكًا وهو يقول لهم إنّني لا أتحدث التركيّة وإنّه يتواصل معي بالإنكليزية. شرعَت زوجة مراد مع ابنتها الكبرى التي تبدو في منتصف العقد الثاني من عمرها في إحضار الأطباق من المطبخ، بينما كانت عمّته مستلقيةً على الأريكة تغطّي وسطها ببطانيّةٍ عسكريّة. كانت المرأة العجوز مخيفة الشكل، تشبه الساحرات في أفلام الرسوم المتحرّكة، نحيلة جدًّا وذات ذقنٍ مدبّبةٍ وطويلةٍ لا تملك في فمها أي أسنان، تصرخ كلّ حينٍ وآخر بكلماتٍ غريبةٍ دون أن يلقي أحدٌ أي بالٍ لها، وكأن أحدًا لا يسمعها. كنت طوال فترة مكوثي لديهم أفزع كلّما صرخت وأنظر إليها بتعجّب. سراب ابنة مراد فتاةٌ جميلةٌ جدًّا، تشبه أمّها إلى حدٍّ كبير وقد تعجّبت من اسمها فسألتها إن كان معنى اسمها يطابق معنى كلمة سراب في اللغة العربيّة فأجابتني بالإيجاب، ما زاد من تعجّبي أكثر أنّ يطلق أحدهم اسمًا كهذا على ابنته، ولكن الفتاة كانت تحب اسمها كما أخبرتني. كانت تتحدّث الإنكليزية بشكلٍ جيدٍ، ما أثار على ما يبدو غيرة والدها فراح يقاطعها ويمطرها بملاحظاته اللغويّة، بالإضافة إلى ذلك كانت سراب خرّيجة صحافةٍ ومطّلعةً بشكلٍ كبيرٍ

على الشأن السوري على عكس باقي أفراد عائلتها، إلّا أنّني كنت أتجنّب إجابتها على أي شيءٍ يخص الثورة في سوريّة وركّزت حديثي حول دراستها للصحافة وسألتها ما إذا كانت تعمل في ذلك الحقل، فأجابتني بحزنٍ بالنفي بشكلٍ مقتضب، فتوقّفت عن السؤال.

طوال الوقت كان مراد يشرب العرق ويتحدّث ويضحك وصراخ عمّته كان يصنع خلفيّةً صوتيّةً مزعجةً لي بشكلٍ كبير. كنت لا أفهم أيًّا من كلماته بينما أفراد أسرته ينظرون إليه ضاحكين لما يلقيه من دعاباتٍ بالتركيّة وينظر إليّ أنا الآخر وكأنّني أفهم ما يقول. وحدها سراب كانت تنظر إليّ بين الحين والآخر مبتسمةً بلطفٍ وكأنّها تقول: "أنا أشعر بك، تحمّل!". كنت أتظاهر أيضًا بالضحك وأشرب العرق بحذرٍ شديد. لم يرق لي ذلك المشروب أبدًا وكنت أفرغ كأسي ببطءٍ شديد لأن مراد كان يعيد ملأه بالعرق والماء على الفور ويدني الصحون منّي لآكل المزيد.

بعد منتصف الليل طلبت الإذن بالمغادرة فعرض عليّ مراد أن يوصلني بسيّارته إلى البيت فلم أرفض. ودّعتني عائلته بكثيرٍ من المشاعر وشدّدوا على أن عليّ أن أكرّر زيارتهم. غادرت المنزل وكانت العجوز لا تزال تصرخ.

2

بعد أن أوصلني مراد إلى ساحة تقسيم على مقربةٍ من المنزل الذي كنت أسكنه، قال لي: "منذ اليوم أنت واحدٌ منّا يا بني" ومدّ يده إليّ برزمةٍ من المال. رفضت أخذ النقود منه في البداية إلّا أنّه أصرّ عليّ، ولمّا لم أجد بدًّا من ذلك أخذتها، ثم غادرت السيّارة وأنا أخبئ الرزمة تحت ثيابي. رحت أتأمّل الطريق وأفكّر بجمال الكون لو كان الجميع طيّبين كما مراد وعائلته. منذ صغري كنت أميّز الناس في فئتين لا ثالث لهما، الطيبين والأشرار. الطيبين كجدّي ودارين والعم الياس، والأشرار كبثينة والبقّال وصاحب جدّي البستاني ومدير المدرسة ومعلّم الرياضيات وعريف الصف، وياسمين في السابق. الشخص الوحيد في حياتي الذي لم أستطع تصنيفه في إحدى هاتين الفئتين كان عمّي هشام. كان يغرّد داخل السرب الأول حينًا وداخل السرب الآخر أحيانًا أخرى. كان متأرجحًا في نظري ما بين الطيّب والشرير.

أشعلت لي سيجارةً ووقفت أدخّنها أمام المبنى المهترئ الذي أسكن غرفةً فيه في الطابق الرابع. التفتُّ يمينًا وإذا بي ألمح قطّةً نائمةً خلف السور. تسارعت أنفاسي وسقطت سيجارتي من يدي وعاد كابوسي من جديد، في اليقظة هذه المرّة. صرتُ أشعر بأن مساحة الحركة حولي تضيق وتضيق، وبدأت عيناي تدمعان بقوّة وصعدَت

رائحة البيض المتعفّن من جديد لتملأ الجو كما لو أنّها كانت تمطر بيضًا متعفّنًا، كأنّني هناك. استدرت مذعورًا نحو باب المبنى وبدأت أحاول وضع المفتاح في القفل دون جدوى. نظرت إلى الخلف برعبٍ فلم أرَ القطة وتابعت محاولتي في فتح الباب بينما قواي تخور شيئًا فشيئًا والهواء الصالح للتنفّس ينفد بالتدريج. فتحت الباب أخيرًا، أشعلت الضوء، كنت أرى الدرج ممتلئًا بالقطط الميتة، وبصوت المواء. وصلت إلى الطابق الأول بصعوبةٍ ثم بدأت أفقد القدرة على التنفّس بشكلٍ تامٍّ فجلست على الدرج أبكي. مدّت جارتي ميسون رأسها من باب شقّتها وركضت نحوي وسألتني: "أنت منيح؟ شو صاير معك؟" فلم أجبها. كنت أجول بنظري برعبٍ شديدٍ وأمسك عنقي بيدَي مستغيثًا. أحضرَت لي ميسون الماء وعندما بدأت أهدأ أمسكتني من يدي وأدخلتني شقّتها وطلبت منّي الهدوء.

كانت ميسون أول شخصٍ تعرّفت إليه في إسطنبول بعد سكني في ذلك المبنى المخطّط لي أن أغادره قريبًا إلى أوروبا. تحدّثت إليها عدّة مراتٍ عندما كنّا نلتقي مصادفةً على الدرج أو في الشارع. هي امرأةٌ في الأربعين من عمرها، لكن السن لا تظهر بوضوحٍ على وجهها، رغم أن بعض التجاعيد البسيطة تقطّع ملامحها وبشرتها السمراء، إلّا أنّ تلك التجاعيد تجعل من إطلالتها أكثر جاذبيةً بطريقةٍ ما، ذات وجهٍ لطيفٍ، تملكُ عدّة شعرات بيضاءٍ بارزة وسط رأسها الذي يكسوه شعرٌ أسودٌ كثيف، وكانت دائمًا ما ترتدي على كتفيها وشاحًا أخضر يعطي وجهها نصاعةً إضافية. لقد كانت تسكن ذلك الحي منذ عدّة أشهرٍ تقريبًا رفقة

زوجها الذي يكبرها بعشرين عامًا والمريض جدًّا. كانت تصفُ مرضه دومًا بالمرض العضال دون أن تسمّيه يومًا، وقد كان على ذلك الحال حتى قبل مغادرتهما حلب التي ينحدران منها. بدأت في الأيام الأولى بعد وصولها تركيا بالعمل كنادلةٍ في أحد المطاعم الصغيرة في الجوار بدوامٍ جزئي. كان ذلك العمل مناسبًا جدًّا لها، فقد كانت جذّابةً بطريقةٍ ما، كما كانت تبدو بجسمها الرشيق مع طريقة ربطها لشعرها أشبه بلاعبات التنس المحترفات. بالإضافة إلى أن تلعثمها المستمرّ في الكلام يعطي انطباعًا بضعف الثقة بالنفس وانعدام الأمان في حياتها.

جلستُ على الأريكة. سألتني ميسون ما الخطب، أجبتها بأنّني حصلت على النقود من أحد أقاربي وقد حاول لصوصٌ سرقتها منّي فلذتُ بالفرار وتعثّرت أمامهم، انهالوا عليّ بالضرب إلى أن تمكّنت أخيرًا من الهرب. لا أدري كيف خطرت لي تلك القصّة ولكن ميسون لم تدقّق في تفاصيلها أبدًا بل طلبت منّي الهدوء وحسب. نهضتُ لأصعد إلى شقّتي فأصرّت على مرافقتي. عجبت لها كيف تترك زوجها المريض وحده بل صرّحت لها بأنّه ينبغي عليها البقاء بجانبه، فقالت لي إنّه على حاله هذا منذ سنوات وأنّها تتركه وتذهب للعمل لساعاتٍ وهو معتادٌ على هذا، فهو في حالة سباتٍ دائم.

صعدتُ الدرج لاهثًا برفقة ميسون إلى الطابق الرابع. عندما دخلنا المنزل، راحَت تعدُّ الطعام رغم أنّني أخبرتها بعدم شعوري بالجوع، فأجابت مبتسمةً: "بس أنا جوعانة!". لا أدري لماذا بدا لي وجهها يشبه وجه أمّي في إحدى الصور التي كنت أحتفظ بها في غرفتي الصغيرة في

دمشق إلى جانب دفاتر مذكرات جدّي وقبعته الرماديّة، والتي لا أدري أين حطّت رحالها أخيرًا. سألَتني ميسون بينما أشعلُ سيجارةً وأتنفّس دخانها بصعوبة إذا ما كان لدي بيض في البيت أو أن عليها النزول إلى شقّتها لإحضاره. أجبتها بصوتٍ مرتجفٍ وحازمٍ بأنّني أكره البيض وحسب.

أكلتُ القليل فقط قبل أن أحضر من البراد الصغير زجاجة بيرة وأشعل سيجارة. عدت إلى الأريكة وشرعت أحدّق بالمرأة وهي تأكل. يا إلهي كم بدت لي تشبه أمّي! ربما هي لا تشبهها بالفعل ولكنّني لم أكن أستطيع تصوّر خلاف ذلك. ارتبكت ميسون فاعتذرتُ إليها وأشحت بوجهي عنها. "لو كانت أمّي حيّةً الآن فستكون في نفس عمر ميسون أو أكبر قليلًا" قلتُ في نفسي. سألتني ميسون أين أضع الشاي فأجبتها بأن لا شاي لدي هنا، فاستغربت ونزلت إلى منزلها لإحضار الشاي وتفقّد زوجها. شعرتُ بالفزع الشديد ريثما عادت ميسون مجدّدًا.

- بتعرفي إنّك بتشبهي أمّي؟ - قلت لها وهي تعدُّ الشاي.
- الله يخليلك ياها يا رب - أجابتني برقّة.
- إيه.

لا أدري لماذا لم أخبرها أنّ أمّي متوفاة منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا.

- أهلك وين؟ - سألتني ميسون وأنا أتأمّل حركاتها من الخلف.
- بالشام.

دمعت عيناي وشربت ما تبقّى من البيرة في الزجاجة. لقد كان طعمها مُرًّا جدًّا. جاءت ميسون بكأس الشاي خاصّتها بعد أن أخبرتها بأنّني لا أود تناول الشاي وجلسَت بقربي.

- ممكن نام على رجلك؟ - سألتها بحذر.

طبطبت ميسون على فخذها في إشارةٍ لعدم ممانعتها، فوضعت رأسي عليه وشرعت هي تسرّح شعري بيدها. كان شعوري الأوّل بما يُسمّى "الأم". تمنّيتُ لو أغرق هناك:

- غنّي لي - قلتُ لها مرتجفًا باكيًا.

3

استيقظتُ عند الحادية عشرة والنصف صباحًا فوجدت نفسي عاريًا في سريري. انتابني الرعب. "هل تعرّيت أمام ميسون بينما كنت مخمورًا؟! هل كشفت عن جسدي ورأت الندبة، سرّ حياتي؟" رحت أسأل نفسي.

كلّ ما استطعت تذكّره في الصباح التالي هو أنّني كنت طوال الليل أشرب وأبكي على كتف ميسون وأستمع إلى صوتها. لقد غنّت أغنياتٍ كثيرة، عجزت عن تذكّر أيٍّ منها. بعدها مع فنجان قهوتي الأول، بدأت أتذكّر قبلاتها المحمومة ولمساتها ولكن بطريقةٍ تشبه طريقة تذكّرنا للأحلام. هل كان حلمًا؟ كابوسًا؟ لا، بل كان واقعًا! "عليّ اللعنة! هل ضاجعت المرأة الوحيدة التي شعرت على قدميها برغبتي بأن أكون طفلًا وتكون هي أمّي؟! هل أتيت الخطيئة مع امرأةٍ متزوجةٍ بينما زوجها العجوز غارقٌ في غيبوبته في الطابق السفلي؟ أي نوعٍ من البشر أنا؟".

الأهم من أن ميسون قد خانت زوجها بالنسبة إليّ، كان خيانة ميسون لثقتي بها ورغبتي بأن لا أبرز جسدي عاريًا أمام أحدهم أبدًا: "لقد كنت في أوج حالة السكر على الأرجح حتّى تمكّنت من ذلك. أنا الذي لم أخلع ثيابي أمام أحدهم في حياتي كلّها. تبًا لها ولي، وللكحول". انسابت ميسون في نظري بسلاسةٍ من دائرة الطيّبين إلى

دائـرة الأشـرار بالسلاسـة ذاتهـا التـي انسـابت فيهـا في الليلـة الفائتـة بـين أدوارها الثلاثة: الجارة الغريبة، الأم الحنون ثم العشيقة المتزوّجة.

تلقيتُ أثناء شربي القهوة اتصالًا من أحد الشبّان الذي كان صلة الوصل بيني وبين المهرّب الذي تواصلت معه ليمرّرني إلى اليونان عبر البحر. طلبَ الشاب لقائي بعد ساعتَين في أحد المقاهي في ساحة تقسيم. كان يوم أحد، الجو دافئٌ إلّا أن السماء كانت ملبّدةً بغيومٍ رمادية. نزلتُ من المنزل قبل الموعد بنصف ساعةٍ. وعند وصولي إلى الطابق الثاني، فتحت ميسون باب شقّتها وأطلّت برأسها وكأنّها كانت تنتظر نزولي:

- مرحبا آدم! - قالت لي ميسون بابتسامةٍ خجولةٍ وحذرة عند اقترابي من باب شقّتها. رمقتها بدوري بنظرة قرفٍ وتابعت طريقي.

وصلتُ إلى المقهى قبل الشاب وجلست أدخّن وأراقب المارّة، محاولًا شغل نفسي عن التفكير بالليلة الفائتة. وصلَ الشاب أخيرًا متأخّرًا عن الموعد نصف ساعةٍ لم ألحظ مضيها أبدًا.

- أخ آدم؟
- نعم. حضرتك رائد؟
- كفو. أنا رائد.

جلس رائد وطلب شايًا بينما طلبت أنا فنجان قهوةٍ آخر. سألني الشاب إذا ما كانت نقودي جاهزة. وقتها كان عليّ التفكير بنقود مراد. لم أكن أعلم أين وضعت النقود! كل ما كنت أذكره عنها أنّني كنت أخبئها تحت قميصي. "ألا يمكن أن تكون ميسون قد أخذت النقود؟" لا

أدري لماذا راودني هذا السؤال. حسنًا، الكحول تنسيني خوفي من البشر وتجعلني أكثر تهوّرًا، تبًّا لها. أنا أملكُ بعض النقود على كل حالٍ ولكنّني لم أكن أدري إلى أي مدىً قد تكون كافية.

- المصاري جاهزين، على ما أظن! - أجبت الشاب الذي لم يخلع نظارته الشمسيّة رغم أن السماء كانت عابقةً بالغيوم.
- كفو. معناها بكرا بتاخد الباص على إزمير. بتنزل هناك بشي فندق إذا ما بتعرف حدا وبتتصل بهاد الرقم فورًا. كفو؟ - ومدّ لي بورقةٍ صغيرةٍ كُتب فيها رقم هاتفٍ نقّال.

مشيتُ بعد انصرافنا وحيدًا كعادتي بين حارات تقسيم الصغيرة، ودلفت أثناء جولتي إلى شارعٍ يمتلئ ببيوت الدعارة. كانت بائعات الهوى يقفن على نوافذهنّ لاصطياد الزبائن، يبدّلن لغاتهن حسب شكل الشخص الذي يمرّ من أمامهن. أثارني الفضول لأعرف بأي لغةٍ قد يناديننني، فاقتربتُ من إحدى النوافذ وشرعت أنظر إلى الفتاة التي كانت ملامحها تبدو أوروبيةً إلى حدٍّ ما، فنظرَتْ إليّ بنظرةٍ تحاول فيها إغرائي كما كانت تظن وقالت بلفظ عربيٍّ سليم: "تعال.. تعال". تابعتُ النظر إلى عينيها عن بعد، وبدأت لحظتها أشعر بصداعٍ رهيب، شعرت أن رأسي على وشك الانفجار بمعنى الكلمة. بدا لي وجه الفتاة يقطر حزنًا، وجهٌ غير مثيرٍ أبدًا. أستطيع تذكّر ملامح وجهها بشكلٍ جيّدٍ جدًّا. كان صغيرًا جدًّا إلى حدٍّ يجعله تائهًا وسط شعرها الأحمر المصبوغ الذي كانت تطلقه على كتفَيها شبه العارييَن. أنفها بارزٌ وعظام خدّيها أيضًا، تغطيهما نقطٌ حمراء تشبه النمش. تساءلت حينها: "من يستطيع مضاجعة

فتاةٍ ينضح وجهها بكل هذا الحزن؟". حتى ابتسامتها وغمزتها التي حاولت إغوائي بهما كانتا كئيبتَين بشكلٍ لا يُطاق. نادتني مرّةً أخرى بالتركيّة، فبدأتُ أتلفّتُ حولي محاولًا إيجاد أقرب مخرجٍ من ذاك الشارع. تابعتُ جولتي تلك دون أن أستطيع أن أُخرج صورة تلك الفتاة وإغراءاتها الحزينة من مخيّلتي أبدًا. أردتُ بعدها العودة إلى المنزل فتهت في أزقة "بيولو" الخلفيّة لأجد نفسي بعدها عند ما يُعرف بدرج السكرانين أو "درج جيهانغير" وهو درجٌ حجريٌّ طويلٌ يطلُّ على البوسفور، يعجُّ بالسكارى والمشرّدين، والعشّاق عاثري الحظ، وأولئك البائسين الذين لا توصيف يشملهم من توصيفات البشر، مثلي أنا مثلًا.

قرّرتُ عدم العودة إلى المنزل والجلوس على الدرج ومراقبة البوسفور. أشعلتُ سيجارةً ورحتُ أفكّر في كمّ البؤس الذي يغص به هذا العالم. أليس بؤسًا وجود أمّي وأبي وجدّي تحت التراب؟ أليس بؤسًا أن تقبع دارين والعم الياس وفوّاز منذ سنواتٍ خلف القضبان؟ أليس بؤسًا موت ريما وفراس وعائلتيهما وكلّ من طالتهم يد الإجرام في بلادنا؟ أليس بؤسًا حالُ ميسون التي خانت زوجها العجوز معي في الليلة الماضية؟ أليس بؤسًا أن تضطر بائعة الهوى تلك للابتسام للغرباء علّ أحدهم يقبل بجسدها لبعض الوقت مقابل القليل من النقود؟ حسنًا، تلك الفتاة بالنسبة إليّ أشرفُ ممن باع ذراعه وسلاحه للشيطان. أكثر طهرًا ممن رمى أبناء جلدته بقنابل الظلم التي انهالت وابلًا من الموت فوق رؤوس الأطفال والعجزة. تلك الفتاة قد باعت جسدها لقاء لقمة العيش، بل ربما لقاء جرعة مخدرات، لكنّها تظل أشرف من القتلة،

سأصنّفها إذًا في خانة الطيّبين، مبدئيًّا فقط، فهي مغلوبٌ على أمرها الآن.

ألم تكن بثينة ضحيّةً في يومٍ من الأيام؟ ثم ماذا؟ فور أن تمكّنت من ظلم الآخرين فعلت، لم تتردّد في تدمير حيواتهم والانتقام من العالم الذي ظلمها بتحويل أيام الآخرين إلى ليالٍ من القهر المستديم. لقد كانت تقفُ يومًا ما في المحكمة باكيةً بين يدَي القاضي الذي حكم لزوجها الأول بحضانة طفليها وحرمها منهما، ثم صارت في وقتٍ لاحقٍ هي ذلك القاضي وصار الآخرون هم من يبكون أمامها راجين بعض الرحمة. لقد أودت بي ها هنا وأودت بابنتها دارين وبالعم الياس إلى غياهب اللاإنسانيّة خلف جدران الموت الأسود. بثينة أيضًا دلفت بسلاسةٍ إلى خانة الأشرار من بابها العريض، وأكثر من عانى ظلمها الأعمى ذاك كان أقرب الناس إلى قلبها. "لعلّها لم تعد موجودةً الآن. لا يهمني أبدًا، بل أتمنّى ذلك. أتمنّى لها الغياب الدائم، إلى الأبد، لكيلا تشرق شمس جورها فوق جماجم البشر أبدًا"، قلتُ في نفسي.

بدأت السماء ترشّ الأرض بمطرٍ خفيفٍ جدًّا. ذلك المطر الذي كسر جفاف الهواء بعض الشيء وأنعش روحي فتنفّست بعمقٍ وأشعلتُ سيجارةً أخرى. رحت أتأمّل مياه البوسفور. هذا المضيق الذي يفصل أوروبا عن آسيا. خلال فترة مكوثي في إسطنبول تجنّبت الاقتراب من الماء قدر الإمكان. حتّى عندما كنت أعبرُ جسرًا ما فوق الماء كنت أتملّص من النظر إلى جانبَي الطريق. لكنّني غدًا أو بعد غدٍ سأكون مضطرًّا إلى ركوب الماء لأصل اليونان في طريقي الذي عزمتُ سلوكه نحو بلدان القارة الغربيّة العجوز.

ارتجفَ قلبي للفكرة. قرّرت تحت وطأة اشتداد المطر أن أغادر. ولكن إلى أين؟ سألتُ نفسي. لن أعود إلى شقّتي طبعًا، لئلا تتسلّل صورٌ من ليلة الأمس إلى ذاكرتي من جديد. ولكن إلى أين إذًا؟ إلى الحانة مجدّدًا؟

كنت أشعرُ بعطشٍ رهيب، ففكّرت: "ها، الماء من فوقي والماء من أمامي، ولكنّني عطشان". وجدت طريقي أخيرًا إلى ساحة تقسيم مع ارتفاع صوت أذان المغرب. اقشعرَّ بدني لسماع صوت الأذان. بدأتُ أشعر ببعض الغثيان فتذكّرت أنّني لم أتناول أي طعامٍ منذ الصباح، ولكنّني لم أكن أملك أي شهيّةٍ للأكل، فاستسلمت للتوجّه إلى حانة "كوكا بوب" في بشكتاش. استغرق منّي الطريق قرابة النصف ساعة. سلكت طريق ملعب بشكتاش بمحاذاة البوسفور وحاولتُ طوال الطريق عدم النظر إلى الماء. لقد سمعت كثيرًا أن الناس يعالجون المخاوف المرضيّة عن طريق المواجهة. أي أنّهم يواجهون ما يخافون منه ليكتشفوا أن مخاوفهم غير عقلانيّةٍ وغير منطقيّة، لكنّني لم أجرؤ يومًا على فعل أمرٍ كهذا.

وصلتُ الحانة واتخذت طاولةً في الخارج تحت الشمسيّة الجلديّة وصوت المطر ينهمر فوقها. أتى النادل وابتسمَ لي بلطفٍ سائلًا إيّاي بالإنكليزية: "بيرة يا سيدي؟". "ماء وقهوة، من فضلك!". لم أكن أريد الشرب، عزمت حينها على عدم الشرب مجدّدًا، أنا أعرف تمامًا خطورة أن أبقى واعيًا ويبقى دماغي متيقّظًا من دون تأثير الكحول، ولكنّها كانت ليلتي الأخيرة في إسطنبول وكان ما جرى لي في الليلة السابقة كافيًا

لأصل إلى قناعتي بضرورة عدم شرب الكحول. كنت أريد انتظار مراد لأمضي بعدها وأخبر صاحبي الذي أجّرني الشقّة بأنّني راحلٌ وينتهي الأمر وترحل هذه المدينة إلى الأبد. ولكنّني كنت حزينًا جدًّا. كم تمنّيتُ لو أنّه كان قد تبقّى فيّ قليلٌ من الروح لأعيشكِ يا إسطنبول، أو لأشعر بجمالكِ الذي طالما سمعتُ عنه ولم أرَه رغم أنّني كنت أمامه وفي حضرته.

بدأ رأسي يؤلمني مجدّدًا بشكلٍ جنوني، فعدت للتفكير بتلك الفتاة. "هل حصلَت على زبونٍ اليوم يا ترى؟ وكم من الابتسامات قد وزّعت قبل الحصول عليه؟". رغبتُ في الحقيقة بالعودة لرؤيتها دون أن أعرف السبب. ربما لأنّها الإنسان الوحيد الذي نظرَ إلى عينَيّ بأملٍ في الفترة الأخيرة. نعم، لقد كانت تأمل أن أدخل غرفتها وأضاجعها، ليس للحب أي معنىً في تلك العلاقة، المال فقط هو هدف الفتاة، وبعض المتعة واللهو هما هدف الزبون، وربما استعادة شبابٍ أو إرضاء غرورٍ قد شاخ، أو إفراغ كثيرٍ من الكبت والحرمان في جسدٍ غريبٍ لن تطالبه صاحبته بأي شيءٍ بعد أن يعود للبس بنطاله.

تناولتُ حبتَي مسكنٍ من حقيبتي ورشفت خلفهما ما تبقّى من ماءٍ في الكأس ورحت أفكّر بموقفي من مراد عندما يأتي. ماذا سأقول له؟ هل سأقول له أنّني راحل؟ سيصافحني ويعانقني ونودّع بعضنا بحرقة. لقد شعرت بالأسى لفكرة فراقه فعلًا. ربما كان في كثيرٍ من اللحظات شخصًا ثقيلًا على قلبي، يثرثر أمامي في أحلك لحظات حزني ومقتي للعالم كلّه، ولكنّه طيّبٌ حقًّا.

طلبتُ من النادل ورقةً وقلمًا، كتبتُ على الورقة بالإنكليزية: "صديقي مراد، شكرًا لك على كل شيء. أنا سأسافر، ولن أنساك". أعطيتُ النادل الورقة وطلبت منه أن يعطيها لمراد عندما يأتي. دفعت ثمن قهوتي والماء ومضيتُ دون أن أنظر خلفي.

4

كانت نقود مراد مركونةً على الطاولة أمام الأريكة قرب الزجاجات الفارغة وكأس الشاي الخاص بميسون. لم تلمس المرأة رزمة المال على ما يبدو أبدًا. جلستُ في غرفتي أفكّر إن كان عليّ الذهاب إلى إزمير والعبور إلى أوروبا بشكلٍ غير شرعي حقًّا. كان من الغباء أن لا أحسم أمري حتّى تلك اللحظة. بدأت تهاجمني مشاعر تأنيب الضمير بشكلٍ غريب، وظهر أمام ناظري أشباح كل رفاقي الذين عرفتهم في الثورة وراحوا يصفونني بالخائن والهارب. "نعم، لقد هربت أيّها الوغد الجبان"، قلت في نفسي وأنا أشعل سيجارةً وأنظر في برّادي إن كان فيه زجاجة بيرة قد نجت من قراري الأخير واختبأت هنا أو هناك. بدأتُ أشعر بالاختناق. "ماذا علّمتك الثورة؟ ماذا غيّرت بك؟ ما زلت جبانًا كما كنت دائمًا". كدت أجنّ فركضتُ نحو الشارع لأشتري أي مشروبٍ كحولي، أو لأنتحر تحت عجلات سيّارةٍ ما.

توقّفتُ أثناء عودتي عند باب شقّة ميسون. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة. لا أدري أيّة مشاعرٍ انتابتني ودفعتني لقرع الجرس. لقد شعرت أنّني أريد رؤيتها، وشعرت بأنّها شخصٌ يحبّني. ولكن، ألم أستحقر خيانتها ونبذتها هذا الصباح؟ عليّ اللعنة. هربت سريعًا من أمام الباب بعد قرع الجرس وعدت إلى غرفتي منهالًا على أولى زجاجات البيرة. بعد دقائقٍ دُقّ باب غرفتي. كانت ميسون:

- بعرف إنّك دقيت على بابي - قالت لي بعد أن فتحتُ لها الباب.
- تفضلي - قلت لها، فدخلَت بخجل.

حدّثتني ميسون باكيةً عن قصّتها. لقد تمَّ إبعادها قصرًا عن الشاب الذي أحبّته. كان ذلك العاشق ابن أحد المزارعين العاملين لدى زوجها البرجوازي السابق، قبل أن يصبح زوجها. ينحدرُ حبيبها من قريتها وكان طالبًا في كليّة الآداب في جامعة حلب، تعرّفت ميسون عليه هناك، كما كان شاعرًا مرموقًا أيام الدراسة وبعدها. راحت ترفض بعد ذلك كل شابٍّ يتقدّم لخطبتها فأجبرَها والدها المزارع أيضًا لدى البرجوازي ذاته أخيرًا على الزواج بصاحب الأراضي التي يعملون فيها، إلّا أن الرجل مرض بعد الزواج بعدة سنواتٍ ووضع إخوته أيديهم على أرزاقه، فقد عهدَ الرجل لأخيه الأصغر بإدارة أعماله كافة قبل أن يتمكّن المرض منه واتهموا ميسون بخيانة زوجها مع حبيبها الشاعر ولاحقوه ليقتلوه، كما اتهموها بعدم الرغبة بالإنجاب من زوجها لأنّها لا تحبّه وتنتظر موته للحصول على ماله. اختلف الأخوة في وقتٍ لاحقٍ فيما بينهم. كما توفي والد ميسون بعد زواجها بسنتين فحاولت الحفاظ على زواجها كونها لم تعد تملك في العالم إلّا زوجها العجوز الذي كان منغمسًا في الملذات والسهر. راحت ميسون تبكي وتقسم أنّها لم تعرف رجلًا آخر سوى زوجها حينها، بل اعتنت به كما لو كانت تزوجته عن حبّ، من باب العطف والشفقة، حتّى رمت بهم الأوضاع وحيدَين في إسطنبول، حيث ساءت حالة زوجها بشكلٍ درامي: "حتّى اليوم بخدمه وما بتمنى يحصلّه

مكروه، لأنّه روح وإنسان". قالت لي المرأة وهي تمسح الدموع عن خدَّيها بمعصمها الأيمن.

شعرتُ حينها أنّني أمام خيارَين صعبَين، إمّا أن أحافظ على نظرتي لميسون كامرأةٍ متزوجةٍ مارست الجنس معي في الليلة الفائتة بينما كنت مخمورًا، وبهذا تبقى هي في خانة الأشرار بالنسبة إليّ وأكون قد اصطففت بطريقةٍ ما خلف عائلة زوجها التي شرّدتها، وإمّا أن أتعاطف معها وأعيدها إلى خانة الطيّبين وبذلك أصطفُّ إلى جانب دموعها ومأساتها. ولكن، ألا تشبه قصّة ميسون قصّتي؟ أليس الظلم هو من هجّرنا وسلب منّا الحق في البقاء في بلدنا، سياسيًّا كان أم اجتماعيًّا؟

الغرابة لم تكن في رغبتي في التعاطف مع ميسون. الغرابة كانت أنّني كنت أمام خيار حبّها أو كرهها. استسلمتُ أخيرًا ورحت معانقًا إيّاها ولم أصحُ على نفسي إلّا بعد أن قذفت داخلها، وهي تتأوّه وتصرخ: "مصطفى! مصطفى!".

5

صعدت بحقيبتي الصغيرة إلى الحافلة التي ستقلّني إلى إزمير. كان عليّ الهرب على كل حال، لم يعد خيار البقاء في إسطنبول مطروحًا. كنت بعلاقتي مع ميسون كمن أوقد النيران حوله من كل الاتجاهات. لم أخبرها حتّى بأنّني راحل. حملتُ حقيبتي كما لو أنّني كنت خارجًا للتنزّه، ولم أعد.

حقيبتي كانت مملوءةً بالأشياء نفسها التي حملتها معي عند خروجي من الغوطة، لم أشترِ أي شيءٍ من إسطنبول، لم آخذ معي أي شيءٍ إضافيٍ سوى المال الذي أعطاني إيّاه مراد. كنت أفكّر أنّه سيساعدني عند وصولي لأوروبا أو سأسدّدُ منه بعض ديوني لأصدقائي.

سرحتُ في خيالاتي حول مراد. ما سيكون موقفه عندما يستلم الورقة من النادل بينما يضع له هذا الأخير العرق والماء والثلج إلى جانب الجبن كما يحب؟ سيظنُّ الرجل غالبًا أنّني لم أعد أريد التواصل معه بعد أن أعطاني المال. وبماذا ستشعر ميسون عندما تلاحظ غيابي؟ كانت الليلة الماضية ليلةً غريبةً حقًّا. أكثر شيءٍ كان مريحًا فيها أنّني لم أسمح لميسون بإزالة قميصي. الأغرب أنّني لم أشعر خلال إسهابي في التفكير بأي شعورٍ بالندم أو الذنب على معاشرتي لها قبل سفري بساعات. ولكنّني فكّرت وقتها، هل حقًّا كان تعاطفي مع ميسون

يستوجب عليّ مضاجعتها؟ أي نوعٍ من التعاطف ذاك؟ وهل كان عليّ الانصياع الكامل لرغبتها فقط لأنّني أحزن لما حلّ بها ولأنّني أمقت من ظلموها؟ لقد كنت أثناء المضاجعة بكامل وعيي، فلا أستطيع رمي اللوم على حالةٍ من السُّكرِ أو تأثير مادةٍ مخدّرة، بل سألوم تعاطفي معها وحسب إن كنت أريد التبرير لنفسي. كنت أشعر أثناء العلاقة بكبر سنّ المرأة، لقد كانت تبدو عجوزًا، حتّى أن تجاعيد وجهها باتت أوضح. لم أشعر في اليوم السابق بأن ميسون تشبه أمّي، بل لم يخطر لي ذلك أساسًا، لقد اختلفت نظرتي إليها بشكلٍ كامل، كما لم يخطر لي للحظةٍ واحدةٍ خلال ممارسة الجنس معها أنّها متزوجة. في نظري كانت في تلك اللحظات ميسون المسكينة فقط، كانت شخصًا لا أعرف عنه شيئًا سوى أنّه مخذولٌ ومتعَب ولم أشعر حتّى بتأنيب الضمير بعد انتهائي. خطر لي حينها إن كنت سأضاجع بائعة الهوى الصغيرة تلك أيضًا من باب الشفقة، لا، في حالة تعاطفي معها قد أعطيها المال، كون الجنس بحدّ ذاته ليس هدفها ولا حاجتها، بل وسيلتها للوصول إلى المال. ممارسة الجنس معها كانت ستدفعني إلى الشعور بالذنب الشديد. بينما إعطاؤها المال سيعطيني شعورًا إيجابيًا. كما كان إعطاء المال لميسون أو عرضه عليها سيجعل فعلنا قذرًا جدًّا في عيني، رغم أنّه قد خطر لي أن أترك لها مبلغًا، ولكن مهما كانت نيتي، فلن أستطيع أن أرى تلك النقود إلّا ثمن الجنس أو الجسد، كما أنّني لم أكن لأقبل أي مساعدةٍ منها لئلا أشعر أنّني أنا الآخر أبيع جسدي. أنا قدّمت جسدي من باب الإنسانيّة فقط، وحتّى يومي هذا لا أعرف أي نوعٍ من الإنسانيّة كان ذلك الفعل.

غفوت في الحافلة. لم أكن قد نمت في الليلة السابقة. بقيتُ في السرير مع ميسون حتّى ساعةٍ متأخرةٍ في الليل قبل أن تنصرف هي وأحزمُ أمتعتي وأمضي دون إثارة ضجّة. رأيت في المنام دارين، كانت تركض في مكانٍ ما يمتلئ بالجدران، مكانٍ أشبه بالمتاهة، وكلّما ابتعدَت عن جدارٍ اصطدمَت بجدار. كانت تصرخ باسمي ولكنّها لا تقصدني أنا، بل تنادي على طفلها، حتّى انهارت أرضًا فهجم عليها سفاحنا وبدأ يخنقها ويضحك، حتّى خارت أنفاسها وهي لا تزال تصرخ: "آدم".

صحوت مرعوبًا وأمسكتُ بعنقي. كنت بالكاد أستطيع التنفّس، أردت القفز عن مقعدي أو إيقاف الحافلة، ولكن هذا الأمر كان شبه مستحيلٍ طبعًا. جلست أقاوم ذعري وخوفي الذي تطوّر إلى غثيانٍ اضطررتُ على إثره أن أتقيأ، ولحسن الحظ كان المقعد الذي بجواري شاغرًا.

استمرَّت الرحلة سبع ساعات قبل وصولي إزمير أخيرًا قاطعًا مسافةً تزيد على 500 كيلومتر. قضيت ساعات السفر الطويلة غارقًا في أفكاري كما لم أفعل من قبل. لم أكن أشعر بالخوف من احتمال مواجهة الموت غرقًا. كانت دارين قد هاجمت أفكاري واستولت على مخيّلتي بشكلٍ كبيرٍ وكانت تؤلمني بشدّة. استعرضتُ كل ما عشته معها منذ كنّا أطفالًا. قلت في نفسي: "لربما لو احترمت مشاعرها وحاولت مبادلتها الحب لما حدث كل ما حدث. ربما لم تكن لتهرب من المنزل أساسًا. أليست الشفقة ذاتها التي دفعتني لمضاجعة ميسون كانت تدفعني لحب دارين درءًا لكل ما جرى؟". قرّرت أخيرًا الاستماع إلى الموسيقى وتدوين أفكاري في دفتري الصغير، في محاولةٍ لتهدئة أعصابي:

"دارين العزيزة. أيتها الجميلة القابعة في سجنك غير نادمةٍ على كل ما فعلته. ماذا سأقول لكِ إن خرجتِ اليوم من سجنكِ وسألتني: كيف حال الثورة؟ كيف سأجيبكِ يا عزيزتي؟ ماذا سأقول لكِ؟ هل سأقول لكِ إنّني أصبحتُ في عالمٍ آخر؟ إنّني أمضي اليوم مبتعدًا خطوةً إضافية؟ هل سأقول لكِ إنّني هربت؟ هربتُ من تلك البلاد كما هربتُ من حبّك وابتعدتُ عنكِ بينما أنتِ لا تريدين من الدنيا شيئًا سواي؟ ظننت حينها أنّني سأخرج منكِ إذا ما ابتعدتُ عنك، كما أظن اليوم أن تلك البلاد ستخرجُ منّي ببُعدي عنها. عبثًا.

لقد وعدتكِ ذات مرّةٍ أن أحمل تلك الثورة في قلبي ولا أتركها ما حييت، ولكن يا عزيزتي، تمهّلي، فقلبي لم يعد يتسع لرقعةٍ إضافية. لقد صرتُ ممزّقًا لا أقوى حتّى على حمل نفسي، فكيف لي أن أحملَ أعظم الثورات وأكثرها طهرًا؟ لقد هتفنا لشهورٍ بعد اعتقالك، لربما لا تدرين أن العم الياس معتقلٌ أيضًا. هتفنا لحريتكم طويلًا حتى تصلّبت حناجرنا، بينما لا نرى حولنا قطرة غيثٍ في صحراء بؤسنا تلك، حتى انهارت قوانا، ولكنّنا لم نستسلم، فرمونا بالرصاص تارةً، وبالمدافع تارةً أخرى، حتّى يئسوا من إخضاعنا، فسمّموا ماءنا وهواءنا، وأذاقونا الويلات ولم يتركوا لنا حفنة أملٍ نتنشّقُ عبقها فلا نموت، ولا أرضًا ندوسها فلا تبتلعنا، ولا صديقًا نحبّه فلا يرحل.

لقد كنت قبل الثورة إنسانًا أنانيًا، لم تترك لي الحياة مجالًا لأحب. كنت لا ألمحُ نور الأمل ولا في أي مكان، وفجأةً حوّلت الثورة بقدومها حياتي إلى بساتين من الأمل. نعم، لم أعد خلال الثورة كما كنتِ

تعرفينني، لقد صرت أحبُّ الناس وأستطيع الوثوق بهم، كما أحبّني الكثيرون. ولكنّهم ماتوا جميعًا، جميعًا.

عزيزتي دارين، أشعرُ اليوم أنّني كنت ميتًا قبل الثورة، فبعثتني من جديدٍ روحًا وجسدًا وقلبًا، ممتلئًا بالحب والأمل، ولكنّني متُّ بعدها موتًا بطيئًا، لا بعث بعده.

آدم

الخامس من تشرين الأول 2013".

كان من سخرية القدر أن تمَّ إطلاق سراح دارين في ذلك اليوم.

6

عند وصولي إلى إزمير بدأت البحث عن فندق. كنت منهكًا بشكلٍ كبير، بالكاد أقوى على المشي. إزمير مدينةٌ تعجُّ بالفنادق. مدينة الفنادق.. هكذا أسميتها. لقد وصلت إلى درجةٍ حِرتُ معها في أمري، في أي فندقٍ عليّ النزول. ذكّرني هذا بساحة المرجة في دمشق، حيث تُحاط الساحة بالفنادق من جميع الاتجاهات. وصلت إلى ميدانٍ يدعى "ميدان 9 أيلول". وهو ميدانٌ كبيرٌ تتخلّله حديقةٌ خضراء مفروشةٌ بالعشب الأخضر والزهور وعدّة أشجارٍ وثلاث نخلات، في وسطها بركة ماءٍ ومجسّمٌ للكرة الأرضيّة مفرّغٌ من الداخل تحيط به مرشّاتٌ مائيّةٌ من جميع الجهات. أطلت النظر إلى ذلك المجسّم قبل أن أدلف إلى شارعٍ يدعى شارع "آنافارتالار" إلى الجنوب من الميدان، وجدت في مواجهتي جبلًا صغيرًا أخضر، فتذكّرت قاسيون ونيرون الخاص بنا. أشحت بنظري عن الجبل وفكّرتُ بأن عليّ تناول شيءٍ ما كي لا أسقط أرضًا، فبدأت البحث عن مطعمٍ ما في الجوار. دخلت مطعمًا ظريفًا بالقرب يسمّى "بوفيه كيرفان"، وعندما جاء النادل أشرت له بسبّابتي على طبق الفاصولياء على لائحة الطعام دون أي كلام، واكتفيتُ بالابتسام له.

كان صاحب المطعم يجلسُ خلف طاولةٍ خشبيّةٍ صغيرةٍ ينظر إلى شاشة التلفاز المعلّق على الحائط المقابل، وقد كان يبدو مندمجًا بنشرة

الأخبار كأنّه يشاهدها للمرّة الأولى. حسنًا، هي مريعةٌ حقًّا، ولكن هذا ليس بالأمر الجديد، الغريب في الأمر أن يبدو على وجهه تأثّرٌ كهذا! لا بدَّ أنّه كان رجلًا طيّبًا. لا، ربما هو إنسانٌ طبيعيٌّ فقط، لا أكثر. من يستطيع تصوّر أن الملايين من البشر الهوموسابينس يموتون ويعذّبون ويهيمون على وجوههم في عصر العولمة والرقمنة والقطارات فائقة السرعة، في عصر الأسنان الناصعة البياض والجوارب القصيرة وأثداء النساء المضخّمة؟ من يصدق أن مآسي كهذه قد تحصل في زمنٍ كهذا؟ كما لو كنا نعيش في زمن محاكم التفتيش أو الغيستابو(*). قد يشكّل وفاة شخصٍ واحدٍ في العالم بفايروسٍ مستجدٍّ حالة طوارئ صحيّةٍ عالميّة، بينما موت الملايين بسبب فايروس الجشع اللاعضوي لن يتمخّض عنه سوى دقيقتَين إضافيتَين في نشرة أخبار المساء. أو لا، سيحذف لأجل هذا الخبر خبرٌ آخر عن موت أناس آخرين في زوايا أخرى بعيدة على هذا الكوكب المجنون. الأهم أن تبقى فترة الإعلانات المقدّسة مصانة وتامّة.

بعد تناولي الطعام عرض عليّ النادل الشاي، فهززت رأسي بالرفض مبتسمًا، دفعت حسابي وخرجت. حاولت جاهدًا عند خروجي إشعال سيجارة، ولكن ولّاعتي لم تعمل، حاولت هزّها ورجّها علّها تشفق لحالي فلم تفعل، حتّى توقف أحد المارّة متحدّثًا إليّ بالتركيّة ومادًّا لي ولّاعته، فشكرته أيضًا بابتسامةٍ خفيفة.

استوقفني أثناء رحلتي فندقٌ جذّابٌ بواجهةٍ زرقاء مهيبة يُدعى فندق "علي جان". فكّرت بأن لدي ما يكفي من المال للنزول في فندقٍ

(*) جهاز الشرطة السرّيّة في زمن ألمانيا النازيّة.

كهذا وفعلت، وفور صعودي الغرفة - التي نسيت رقمها وفي أي طابقٍ كانت - رميتُ حقيبتي جانبًا ونمتُ بعمقٍ دون حراك.

استيقظت من نومي بعد ساعتين. شعرت بحرقةٍ قوية في معدتي. نزلت من غرفتي واتصلت بالرقم المسجّل في الورقة التي أعطاني إيّاها الشاب السوري في إسطنبول، وانتظرت الرد وانتظرت دون جدوى. لجأتُ إلى أحد المقاهي في الجوار حانقًا على طبق الفاصولياء بالطماطم الذي تناولته بعد الظهر. كان المقهى يعبقُ برائحة الشاي والقهوة، ذكّرني بشكلٍ كبيرٍ بمقهى النوفرة وجلسات لعب الطاولة مع "أبو مصطفى". رحتُ أمعن النظر في رجلين عجوزين يلعبان الطاولة بجواري، وكان أحدهما غاضبًا جدًّا ويشتم الآخر الذي يبتسم بسخرية. قطع تلك الأفكار رنينُ هاتفي:

- نعم.
- أنا آدم. اتصلت بك قبل شوي لقلك إنّي أنا صرت بإزمير.
- مين آدم؟ شو بدّك؟
- مشان الطلعة ع اليونان.
- أنت من طرف مين؟
- من طرف رائد.. كفو؟
- عم تأفّل؟ ماشي الحال. برجع بتّصل فيك بعد ساعة.

كان الشاب ذو اللهجة الدمشقيّة القويّة يتحدّث إلي بنفاد صبرٍ وبغرورٍ كبير. يا إلهي كم أكره المغرورين، ولكنّني مضطرٌّ إلى التعامل معه. خرجت من المقهى، شعرت برغبةٍ في شرب الكحول، ولكنّني لم

أكن أريد، هكذا ببساطة. كانت إزمير في ذلك المساء باردةً جدًّا. الهواء يهبّ بقوةٍ باردًا يقشعر له جسدي. خطر لي أن أتّجه إلى البحر. لماذا لا أذهب إلى البحر اليوم بإرادتي وأنظرُ إليه؟ ربما أعتاده قليلًا أو أخفّف من توتري، ولكنّني لم أستطع. مشيت قليلًا في الجوار حول "ساحة 9 أيلول" فوجدت نفسي فجأةً في مدينة ألعاب تُدعى "لونا بارك". ارتعد قلبي لهول ما رأيت. كانت المرّة الأولى في حياتي التي أدخل فيها مدينة ملاهٍ. تسمّرت في مكاني عند رؤيتي عجلة الهواء الضخمة أو ما يعرف في السوريّة الدارجة باسم "القلّيبة" أو شيءٍ من هذا القبيل. ربما كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي وربما الوحيدة التي لم يزعجني فيها الضجيج القوي في المكان، لأنّني ببساطةٍ لم أكن أسمعه إطلاقًا. كنت مشدودًا لذلك الجسم العملاق بكل حواسي، أراقب كيف ترتفع الكبسولات بالناس عاليًا ثم تهبط بهم مجدّدًا، ويتكرّر الأمر بينما هم يضحكون بقوّة، أو يصرخون برعب. كانت أغلب الضحكات تصدر من الذكور، والصرخات من الإناث. سألت نفسي في البداية، ما الممتع في الموضوع؟ ولكن تأمّلت لاحقًا: "ألم يكن الطيران والارتفاع في الهواء دائمًا في مخيلة البشر هاجسًا للشعور بنشوة الحرّيّة؟ كأنّهم يتحرّرون من الأرض، يتحرّرون من ذنوبهم التي اقترفوها في الأسفل، وهكذا كان الناس في عجلة الهواء تلك، لا تكاد تهبط كبسولاتهم حتّى تتبدّل وجوههم تائقين للعودة إلى الأعلى. حتّى أن منهم من يعيد اللعب مرّاتٍ ومرّات. لربما هم هؤلاء بالذات الأكثر رغبةً في الصعود من الأسفل إلى الأعلى. الأكثر رغبةً في المغامرة، وما المغامرة إلّا رغبة في الانعتاق من

وزر كوننا بشرًا، وما المغامرة إلّا تحدٍّ للخوف ورغبةٌ للتحرّر منه ومن قوانين الطبيعة، تحدٍّ لطبيعة كوكبنا الجاذب وأجسادنا مضخّات الأدرينالين". لقد أردت التجريب أيضًا، ولكنّني وجدت الفكرة تافهة. أنا ابن هذه الأرض الخطّاء. لم أكن أريد هذا الصعود اللحظي المصطنع والمؤقت، بل أريد صعودًا أسمى، صعودًا يطهّر داخلي من وزر الهرب والجبن، والأدرينالين أيضًا. لم أكن أريد رفض قواعد الأرض في تلك اللحظات، لم أكن أريد صعودًا مقتصرًا على الجسد، بكل بساطة، بل شعرت برغبةٍ في غرس رأسي في التراب، أمام عاري الخاص.

تابعت جولتي فوصلت إلى لعبةٍ فيها عرباتٌ على شكل حيواناتٍ، تجري فوق سكّةٍ تشبه سكّة القطار. في العربة الأولى كان يجلس رجلٌ عجوزٌ ذو شعرٍ أبيضَ تمامًا ويُجلس حفيدته في حضنه، يشدّها إليه بقوّة بينما يضحك الاثنان. أشعلتُ سيجارةً وأمعنت النظر، "لعلّي أجرّب لعبة السيارات الاصطداميّة؟" قلت لنفسي، وفي تلك اللحظة رنَّ الهاتف.

كلّمني رجلٌ كبيرٌ في السن. لم أستطع من لهجته تحديد إذا ما كان سوريًّا أو فلسطينيًّا. أخبرني بنقطة اللقاء التي عليّ التواجد فيها في اليوم التالي عند العاشرة مساءً ودلّني على شخصٍ أودع لديه النقود ولا يسلّم هذا الشخص المال للمهرّب قبل وصولي اليونان، وهناك بإمكانه مساعدتي في التواصل مع أحد معارفه الذي سيساعدني في الوصول إلى حيث أشاء لو أردت، ولكن الموضوع مكلفٌ كما قال، فأجبته بأن المال ليس مشكلة. كان المال الذي أعطاني إيّاه مراد بمثابة إنقاذٍ لي. يا إلهي، كم كنت ممتنًّا له.

عدت إلى الفندق، نمت حتّى الصباح وعاودت الخروج في اليوم التالي وقمت بجولةٍ أخرى في مدينة الفنادق. شعرت حينها كم فوّتُّ على نفسي في إسطنبول، حيث قضيت كل وقتي في الشرب. شعرتُ باشتياقٍ غريبٍ للحانات هناك بشكلٍ أو بآخر. قمت بعدّة جولات تسكّعٍ يتخلّلها أربعة فناجين قهوةٍ شربتها في مقاهٍ مختلفةٍ في الجوار، وكلّها كانت غير لذيذةٍ أبدًا ولم أستمتع بها. كنت متوتّرًا وحسب. "سأواجه البحر هذه الليلة"، هذا كل ما كان يدور في رأسي. كنت من جهةٍ أشعر أنّ هذا قد يكون إيجابيًّا وقد أهزم ذلك الخوف من الماء عند مواجهتي له! عدت عند السابعة مساءً إلى الفندق، حملت حقيبتي وذهبت بعدها إلى المكتب الذي سأودع كلفة الرحلة إلى اليونان لديه، فطلب منّي الرجل هناك رمزًا سريًّا بيننا، فأعطيته رقم هاتف دارين الذي كنت لا أزال أحفظه غيبًا حينها. تسكّعت بعد ذلك قليلًا محاولًا التغلّب على قلقي، ثم عند التاسعة والنصف قصدت النقطة التي كانت تُدعى بشكلٍ طريفٍ "تجشمي" والخوف يملأ فؤادي. بالكاد كنت أحافظ على رشدي واتزاني.

7

إذًا، كان عليّ مواجهة ذلك الوحش الأزرق المرعب في تلك الليلة. قبل إبحارنا بقاربنا الصغير بليلةٍ واحدة كان قد غرق قارب يحمل على متنه عشرين مهاجرًا قبالة السواحل الإيطاليّة، عشرين نسخةً منّي، عشرين مهزومًا وخائبًا، معظمهم من النساء والأطفال. غرقوا ببساطة في عرض البحر دونما ضجيج، هكذا، بمنتهى البساطة. الأرقام كانت قد تبدّلت قيمتها. عشرون غريقًا ليسوا كعشرين مثلهم قبل عشرة أعوام. وعندما يتم الحديث عن سبعين ضحية قضوا بعد غارةٍ جوية، فهم لا يساوون سبعين إنسانًا قُتلوا قبل عشرين عامًا. فالبشر، بشكلٍ مشابهٍ للعملات، تنخفض قيمة حيواتهم وأرواحهم مع الوقت. تنخفض كلّما انخفضت القدرة على مساعدتهم أو عندما يزداد تردّد موتهم بشكلٍ شبه يومي، أو ربّما عندما يبعد موقع حتفهم الجغرافي عن بلدان صناعة القرار والعالم الأول والدول الرأسمالية.

رائحة الماء المالح ملأت أنفي بينما كنّا نمشي على الصخور محاولين الحفاظ على توازننا وعدم التزحلق بالطحالب. البحر هو الآخر كان غير هادئ. لعنة الطبيعة لحقت بنا إلى هناك كما كان يبدو. البعض تحدّث عن أنّه كان يجدر بالمهرّب أن يؤجل الرحلة لو كان يأبه لأرواحنا، ولكنّه يريد مالنا فقط، ونحن لا خيار آخر لنا. كان البعض قد

تركَ عائلته أو عائلتها في سوريّة أو تركيا ليلحقوا بهم بعد وصولهم برّ الأمان. راحوا ينظرون نحو الضفّة الأخرى بأمل، الضفّة الأخرى للعالم.

كان علينا الإبحار منتصف الليل دون أن نثير الانتباه. وقفتُ أمام ذلك القارب الأسود الصغير الذي كانت تهزه الأمواج يمينًا ويسارًا، ونظرت إليه بتمعّن. أنا لا أجيد السباحة. "هل يجب أن يكون رعبي مضاعفًا لهذا السبب؟"، سألت نفسي. ولكنني فكّرت بأن هذا أفضل لي في حال انقلب القارب بنا في منتصف الطريق. عندها لن يكون عليّ أن أتكبّد عناء المقاومة، ولن يكون عليّ السباحة لساعاتٍ طويلةٍ إلى أن تخور قواي باحثًا عن شاطئٍ أقف عليه على أقدامي، وسأستسلم غالبًا للموت في النهاية بقلبٍ مملوءٍ بالشفقة على نفسي. ستكون السباحة خيارًا إجباريًا في حال كنت أجيدها. حينها قد لا يقتلني الغرق، بل ستقتلني الخيبة على الأرجح، ستقتلني ربما دموعي وصراخي وعضلاتي التي ستخذلني بينما لا أرى حولي أي ميناءٍ في أيٍّ من الاتجاهات. نعم، هذا هو الخذلان الأكبر، عندما تخذلنا أجسادنا وتعجز عن المواصلة، أو تنطفئ وتتوقف عن العمل فجأة، وترمينا بقايا بشرٍ في منتصف الطرقات. بالطبع، لن أحاول النجاة في تلك الحالة، لن أحاول تحدّي الطبيعة التي ستحاول جاهدةً سحبي إلى الأسفل، لن أحاول مقاومة التيارات والأمواج، بل سأنصاع لها تمامًا، للطبيعة وقسوتها، وهي ستتكفّل بخلاصي الأخير. تذكّرت أثناء وقوفي أمام ذلك القارب أنني طالما استعملت فكرة الغرق كتعبيرٍ عن الموت في مذكّراتي

ونصوصي. لطالما اعتبرت أن الغرق يمثّل قمّة الهزيمة والألم، والحب أيضًا.

كنت طوال الساعات التالية التي قضيتها في وسط البحر المعتم أدعو وأصلي جميع الصلوات التي أعرفها، رغم أنني لست متديّنًا. رحتُ أفكر حينها أنه لا بدَّ من وجود قوةٍ ميتافيزيقيةٍ علويّةٍ قادرة، بل تريد نجدتنا ولا تريد تركنا لأنياب الغرق، حتّى عندما بلغ خوفي قمّته بدأت أردّد: "يا رب، لا أريد الغرق. لن تكون نهايتي غريقًا هنا".

بأملٍ طفقنا ننظر في كل الاتجاهات علّنا نلمح الشاطئ أو سفينةً ما تكسر ظلام البحر. تلك السفن القليلة التي كانت تجوب البحر لإنقاذ المهاجرين قد تمَّ تجريم عملها بشكلٍ كاملٍ اليوم. هي ممنوعة تمامًا، ومن يجرؤ على إنقاذ مهاجرٍ واحد من الغرق سيتعرض لخطر حكمٍ بالسجن وبغرامةٍ ماليةٍ تصل إلى مئات آلاف الدولارات. هل يمكن تصور شيء كهذا؟ إنقاذ البشر بات ممنوعًا، بينما لا ترى هذه الشريعة مشكلةً مع نيرون ومن لفّ لفيفه ومع ملايين الضحايا.

تحوّل ذلك البحر اليوم إلى مقبرةٍ جماعيّةٍ ضخمة، يغص قعرها بالآمال في النجاة والأحلام بالمستقبل وعشرات آلاف الجثث الفقيرة، وبوحشٍ كبير، مات غرقًا هناك، مع تجاهل موت أول إنسان، وحشٍ لطالما تنكّر بالأقنعة الجميلة التي غطت وجهه القبيح، وحشٍ كان يومًا يدّعي أنه حمل وديع، اسمه الإنسانيّة.

وهكذا لم تعد تلك المساحة المائية الضخمة مجرد بحيرةٍ كبيرة تفصل بين قارات العالم القديم، بل صارت برزخًا يفصل بين عالَمين

مختلفَين عن بعضهما تمامًا، برزخًا يفصل بين جحيم الأوطان المتهالكة وجنّة الأمان المنشودة، برزخًا يفصل بين الموت والبعث.

كان إلى جانبي في الرحلة امرأةٌ تحملُ بين يدَيها طفلها الرضيع، وكلّما اشتدّت الأمواج وتخبّط القارب في عرض البحر، ضمّت صغيرها إلى صدرها مرتجفةً متمتمةً بكلماتٍ غير مفهومة. كما كان يجلس في آخر القارب رجلٌ في الخمسينات من عمره ومعه زوجته وولدٌ يافعٌ وبنتٌ صغيرةٌ يطالبهم بين الفينة والأخرى بالتشبّث بقوّةٍ بالمركب، كما كان إلى جانب الشباب السوريّين الثلاثة الآخرين شابان أفغانيان وآخران أفريقيان.

شابٌّ مغاربيٌّ كان مكلّفًا بقيادة القارب والواضح أنّه بالكاد كان يعرف كيف تتم إدارة المحرّك ولا يميّز بين الاتجاهات إلّا بصعوبةٍ بالغة، يخرجُ هاتفه وينظر إليه ثم ينظر في وجوهنا متفحّصًا بطريقةٍ غبيّة. على الرغم من أن جزيرة كيوس اليونانيّة لا تبعد عن الساحل التركي أكثر من 15 كيلو مترًا إلّا أن قائد القارب قد ضلَّ الطريق على ما يبدو، فقضينا خمس ساعاتٍ هائمين على وجوهنا في عرض البحر، كنا ندور في مكاننا على الأرجح ونراقب الأمواج الثائرة تارةً والمحرّك الذي كان ينعق بقوّةٍ تارةً أخرى، راجين الطبيعة والعلم معًا رحمتنا.

بعد قرابة ساعةٍ على إبحارنا فقد أحد الشابّيَن الأفريقيَّين وعيه فجأةً بعد أن كان مذعورًا متمسّكًا بصاحبه الذي راح يتحدّث بالفرنسيّة مع قائد القارب. تصاعدت نبرة هذا الأخير وبدأ الغضب يبدو على وجهه الذي تحوّل إلى اللون الأحمر. بدأ الشاب الأفريقي يصرخُ هو

الآخر بينما يبكي ووجّه ضوء مصباحه إلى عين سائق الزورق، ما استفزّه بشدّة ودفعه لمهاجمة الشاب الأفريقي ومحاولة رميه في الماء. تدخّل الرجل الخمسيني وخلّص الشاب من بين يدَيّ قائد القارب وراح يشتمه بلهجةٍ فلسطينيّةٍ وعندما احتدَّ الوضع بين الرجلين تدخّل الشابّان السوريّان إلى جانب الرجل الفلسطيني وهدّدوا قائد المركب برميه هو في الماء إن لم يترك الشاب الأفريقي وشأنه. هذا كلّه لم يستطع تشتيت انتباهي وتخليصي من خوفي قليلًا. كنت أراقبُ كل ذلك بنفاد صبرٍ ورغبت أن أصرخ في وجوههم بأن عليهم الصمت الآن فقط والصلاة لكي نصل سالمين، لأن الأمواج لن ترحم منّا أحدًا.

هدأ بعدها الجميع وراح الشاب الأفريقي يرش الماء على وجه رفيقه دون جدوى، فتدخّلت المرأة أم الطفل الرضيع وقد كانت طبيبةً لمحاولة إسعاف الشاب، وقالت بعدها إنّه يتنفس بشكل طبيعيٍ ولكنّه يحتاج إلى مشفى.

كان البرد قارسًا، وشعرتُ أن عظامي على وشك التجمّد، فأخرجت السيجارة الأخيرة من العلبة وأشعلتها بعد عدة محاولات. شعرت بأن رائحة السيجارة وطعمها أقوى من المعتاد. لقد كانت ببساطةٍ كل حواسي متيقّظةً أكثر من اللازم. بشرتي كانت تتحسّس الهواء البارد المحمّل برذاذ الماء المالح بشكلٍ أكبر، كما أنّني شعرتُ أن وجوه الناس حولي واضحةٌ لي في الظلام وأصواتُ الأمواج تتداخلُ مع صوتِ المحرّك وتزعجني جدًّا، لكنّني كنت بالطبع ممتنًّا لتلك الضجّة جدًّا، فتوقّف المحرّك عن إصدارها كان يعني الموت هناك. لقد كان الجميع

خائفين ومتوترين، بمن فيهم قائد المركب، وهذا لم يكن بالأمر الذي يبعث على التفاؤل أبدًا. أنهيت سيجارتي ورميت عقبها في الماء مع اشتداد شعوري بالغثيان، فتقيأت من فوري وبدأت أشعر بأنّني عاجزٌ حتّى عن تحريك أطرافي التي أصابها الخدر.

قبل الفجر بقليلٍ لمحنا الساحل أخيرًا، فبدأ قائد الزورق بالرقص والغناء ببلاهةٍ بينما خوفنا لم يتناقص، وقبل أن يحطَّ قاربنا رحاله على الشاطئ قفزَ قائد المركب وراح يركض في الماء ويصرخ كالمجنون ثم أخرج سكينًا من جيبه وراح يهاجم بها القارب المطاطي ممزّقًا إيّاه بينما النساء يسقطن في الماء ويصرخن، والشاب الأفريقي يحاول الإمساك بصاحبه الذي بدأ يصحو، وسحبه إلى الساحل.

كان الشاطئ مقفرًا تمامًا. ترجّلنا هناك وشرعنا نبحث عن بشرٍ في تلك الجزيرة دون جدوى، مع أن معرفتي عنها تقول إنّها جزيرةٌ سياحيّةٌ آهلةٌ بالسكّان. مشينا بهدوءٍ على صخور الساحل وصعدتُ مع شابّين آخرين تلّةً صخريّةً وصرنا نحاول لمح أي معلمٍ من معالم الحياة خلف التلّة. كان الظلام دامسًا وبدأ ما تبقى من بطارية هواتفنا والمصابيح التي كنا نملكها ينفد، كما أنّنا لم نكن نملك المزيد من ماء الشرب فقرّرنا المشي بمحاذاة الشاطئ. مشينا بضعة كيلو متراتٍ قبل أن نصل مع شروق الشمس إلى ميناءٍ حجريٍّ صغير، تتجمّع عنده قوارب صيدٍ خشبيّةٍ بالية. إلى الأمام قليلًا كان هناك بيوتٌ ريفيّةٌ جذّابةٌ محاطةٌ بالزهور من كل الجوانب. دخلَ الفرح والأمل قلوبنا، قد يمكننا على الأقل الحصول على الماء ومعرفة الطريق الذي يجب أن نأخذه. على متن قارب صيدٍ بجوارنا

كان صيّادٌ عجوزٌ يرتدي بنطالًا قصيرًا وقميصًا دون كمّين، يضع قبّعةَ قشٍّ على رأسه، يقفز حافيًا في المركب برشاقةٍ ويجهّز نفسه على ما يبدو لرحلة صيدٍ ما. توجّهت إليه سريعًا مع عدّة شبّانٍ وطلبنا الماء منه بعد أن قلنا له إنّنا مهاجرون ومعنا أطفالٌ ونساء، فأعطانا بعضًا منه واتصل بالشرطة لتأتي لأخذنا بناءً على رغبتنا. جلسَ الجميع على الأرض وأخرجت والدة الرضيع ثديها لإرضاعه، فقد كان يبكي طوال النصف ساعة السابقة، بينما راح الأفريقيان يتحدّثان سويًّا بالفرنسيّة وقد بدا على الشاب الذي فقد وعيه علامات التحسُّن. تلفتُّ حولي فلم أجد الرجل المغاربي. لقد اختفى ببساطةٍ عندما سمع بالشرطة على الأرجح.

تقدّمت باتجاه الصيّاد العجوز وصعدت قاربه وابتسمت له بلطفٍ وسألته ما اسم المكان الذي نحن فيه فأجابني: "لانكادا". ترددت كثيرًا قبل أن أقول له بالإنجليزية: "المعذرة. هل عندك سيجارةٌ؟" فمدّ العجوز لي بكيس تبغٍ وأوراق سجائر مبتسمًا. خجلت أن أقول له إنّني لا أجيد لفّ السجائر، فصرتُ أحاول يائسًا لفّها إلّا أن يدَيّ كانتا ترتجفان بقوّة، فأخذ الرجل الكيس منّي عندما لاحظ ارتباكي، ولفَّ لي ثلاث سجائر أعطيت منها سيجارةً لأحد الشابَّين السوريَّين وكان اسمه شادي. دخّنت سيجارتَين على التوالي قرب مركب الصيّاد العجوز الذي كان يراقبنا بفضولٍ ولكن بشكلٍ لطيف. بدا شخصًا بسيطًا جدًّا ووادعًا، ضخم الجثّة حليق الرأس واللحية، ذا بشرةٍ حمراء وأنفٍ أحمرَ وكبيرٍ جدًّا.

أعادت لي السجائر مع نسمات الصباح العليلةِ بعض صفاء الذهن ولكن البرد كان شديدًا، ما دفعني للتعجّب من الصيّاد العجوز كيف لا

يشعر بالبرد! قفز الصيّاد من المركب وهو ينفض يديه كإشارةٍ بأنّه أنجز عمله واقترب منّي ومن شادي وسألنا من أين نحن فأجبناه، فقال: "حسنًا جيّد أنكم وصلتم إلى هنا بخير. أنا إسمي لاكوبوس، معروفٌ هنا في لانكادا بلقب بوسايدون(*). عملتُ عندما كنتُ شابًا في البحرية اليونانيّة وقد زرت سوريّة عدّة مرات. إن احتجتم مساعدةً منّي فأنا سأبقى هنا بالقرب حتّى قدوم الشرطة. هذا هو منزلي"، وأشار بيده بعيدًا إلى بيتٍ صغيرٍ جميلٍ جدًّا يعتلي وحيدًا درجًا حجريًّا يؤدّي إلى الساحل.

بعد ربع ساعةٍ توقّفت سيارة شرطةٍ صغيرة بالإضافة إلى سيّارة حافلةٍ صغيرةٍ أمامنا وتحدّث الضابط إلينا بلطفٍ قبل أن يطلب منّا الصعود إلى الحافلة لنقلنا إلى قسم الشرطة في كيوس. شكرنا الصيّاد لاكويوس أو بوسايدون على مساعدته لنا قبل أن نمضي. استغرق الطريق حتّى مدينة كيوس قرابة النصف ساعة. كنت أشعرُ بتعبٍ شديدٍ ولكن الطريق كان ساحرًا إلى درجةٍ يصعب وصفها. كانت الحافلة تسير بمحاذاة البحر والشمس قد أشرقت، ورحتُ أسرح في خيالاتي. خطر لي أن معظم الناس الذين يعرفونني لا يعلمون أين أنا الآن. لم أكن قد أخبرت عمّي هشام وياسمين بسفري، لم يخطر لي حتّى أن أخبرهما. لقد كان ذلك اليوم هو اليوم الأول الذي أتذكّر وجودهما فيه، كأنّني كنت قد نسيتهما تمامًا خلال الفترة السابقة.

وصلنا قسم الشرطة وكان بناؤه يشبه البيوت البسيطة المحيطة به، مسيّجًا بسورٍ حديديٍّ أبيض تغطّيه أزهار الياسمين. تمَّ اقتيادنا إلى غرفةٍ

(*) هو إله البحر في الميثولوجيا الإغريقيّة.

فارغةٍ من أي أثاث وطُلبَ منّا الانتظار. بعد نصفٍ ساعةٍ صار يتم أخذنا واحدًا تلو الآخر إلى غرفة رئيس القسم وتبصيمنا على أوراقٍ كثيرةٍ لم نكن نفهم ما كُتبَ فيها ثم يُسلّموننا ما يُسمّى بـ "الخارطيّة"، وهي ورقةٌ مسجّلٌ عليها بيانات الشخص الخاصة وتخوّله التنقّل في اليونان لفترةٍ محدّدة. تمَّ بعدها إطلاقنا وكان علينا التوجّه في اليوم التالي إلى العاصمة اليونانيّة أثينا. اتفقنا جميعًا على السفر معًا إلى أثينا في الباخرة في اليوم التالي وذهبنا بعدها بسيارات أجرةٍ أمّنها لنا رجال الشرطة إلى أحد الفنادق.

8

فنـدق "كيمـا" المطـلّ علـى البحـر في كيـوس ربمـا كـان مـن أجمـل الأماكن التي تواجدت فيها خلال رحلتي. بناء الفندق بسيطٌ إلّا أنّه مهيبٌ في آن. الفندق مبنيٌّ بشكلٍ كاملٍ من الحجر، ما يعطيه طابعًا تقليديًّا أصيلًا. لقـد كـان لا يشـبه أيًّـا مـن فنـادق إزميـر الفـاخرة، حيـث لا يرغـب المـرء بالمكوث أبدًا. يقضي الليل ثم يقفل هاربًا إلـى الخـارج. الأمـر في الفنـدق اليوناني كان مختلفًا جدًّا، المرء يقيم فيه ويشعر وهو بداخله في الوقت ذاته بأن الجزيرة كلّها بجمالها وبهائها في متناول يده. فوق باب الفندق الخشبي القـديم كُتـب "1917". "إذًا، تأسّـس هـذا الفنـدق في عـام انتصـار الثـورة البلشفيّة في روسيا"، كان هذا أول ما خطر ببـالي عند قـراءة ذلـك التـاريخ. نوافذ الفندق كانت خشبيةً مطليّةً بالأحمر وتذكّرني كثيرًا بنوافذ منزل العـم الياس، وكان للفندق شرفاتٌ واسعةٌ تطلّ مباشرةً على البحر. لا أعتقد أنّـه كـان يوجـد مكـانٌ أفضـل مـن ذلـك الفنـدق في العـالم لأقضـي بـه تلـك الساعات الثقيلة، وعلاوةً على ذلك رفـضَ صـاحب الفنـدق أخـذ أي مـالٍ منّا لقاء مبيتنا تلك الليلة. عند دخولي غرفتي الفخمة المجّانيّة تلك، نمتُ من فوري بعمقٍ حتّى قبل المغيب بقليل.

نزلت بعد نهوضي إلى الأسفل وكنت بـأمسّ الحاجـة إلـى القهـوة. شعرتُ بصداعٍ فظيعٍ في جبهتي يزداد مع تحريكي لبؤبـؤ عينَـي. اشـتريتُ

فنجانًا من القهوة السوداء وعلبة سجائرٍ وخرجت إلى الشرفة التي كانت تطلُّ على بحر إيجة. كانت الشرفة خاليةً من الناس فجلست أراقب الشفق ومياه البحر التي طلاها الغروب باللون الأقحواني. أشعلتُ سيجارةً وتنفّست عبقها عميقًا جدًّا وصرت أغمض عينَيّ بقوّةٍ بشكلٍ لا إراديٍّ لمقاومة الصداع. كانت رائحة البحر حادّةً جدًّا، إنها تثير حنيني لأيامٍ لم أكن فيها مدركًا الحياة بعد، أيامٍ لا أذكرها، لشخصَين لا أذكر حتّى أنّني نظرتُ إليهما بعينَيّ يومًا. تابعت التدخين وعيناي مغمضتان، كان المنظر أمامي فاتنًا، ولكن الأكثر فتنةً كان طيف أمي وأبي اللذين كنتُ ألاحقهما على شاطئ ورديٍّ في مخيّلتي.

سمعت صوت اقتراب أحدٍ منّي، لقد كان شادي. جلس الفتى بقربي واستأذنني لأخذ سيجارةٍ، فمددّت له العلبة والولّاعة.

- شادي، شكلك مو على بعضك. تعبان شي؟ - سألتُ صاحبي الغريب وهو يضع الولّاعة على الطاولة ويعبّ من السيجارة نَفَسًا طويلًا.
- مين فينا مو تعبان؟ - أجابني.
- صحيح، معك حقّ.
- ما قدرت نام ولا دقيقة. مع إني حاسس قلبي رح يوقف من التعب.
- ليش ما نمت؟ بشو عم تفكّر؟

لم يجبني.

- طيّب. إذا ما بتحب تحكي، براحتك - استطردتُ وأنا أسحب سيجارةً من العلبة.

- خايف!
- من شو خايف؟ ظلّ شي نخاف عليه؟ بعدين نحنا شباب لحالنا، أكثر شي ممكن يصير إنّه نموت.
- خايف ما أقدر شوف أمّي - قال لي والدمعة تلمع في عينه.

ارتبكتُ قليلًا ودلقتُ ما تبقّى من القهوة دفعةً واحدة في فمي.

- أمّي بالسويد مع بيت أختي، وأنا كنت معتقل وطلعت من فترة - استأنف الشاب.

حسنًا. لربما كان يجدر بي سحب جملتي الأخيرة: "لو كان لدي أمٌّ تنتظرني لخشيت الموت كي لا أحزنها"، قلت في نفسي.

- إن شاء الله بتوصل لعندها بالسلامة، والحمد لله إنّك طلعت من جوّا.
- ما بظن أوصل. ما بقي معي مصاري يكفّوني، وأمّي وأختي بعثوا لي كلشي معهن، هي غير المصاري اللي دفعوها لرئيس الفرع ليطلّعني وأقدر أهرب ع لبنان.

فكّرت في نفسي حينها بأنّه لربما يمكنني، بل يجدر بي مساعدة ذلك الشاب ليصل إلى أمّه. حسنًا، لو تعلّق الأمر بأي شخصٍ آخرٍ في العالم ربما كان الأمر بالنسبة إليّ سيّان، ولكنّها أمّه، وقد كان الشاب معتقلًا. حينها خطر لي أن أسأله عن العم الياس وفوّاز ودارين.

- فيني إسألك سؤال؟ بس بتوعدني إنّه إذا كان مزعج بتسامحني!
- بوعدك. تفضّل.
- وين كنت معتقل؟

- بسجن المزّة العسكري.
- طيّب مر عليك كتير مساجين؟
- إي، لأنّي بقيت سنة ونص محبوس.
- بتعرف رجّال إسمه إلياس إبراهيم؟

فكر شادي قليلًا قبل أن يجيبني بالنفي.

- طيّب فوّاز الأحمد؟ - سألته وكلّي أملٌ بأن يجيبني بنعم.
- كمان لا. بيقربوك؟
- رفقاتي.
- أنت من وين آدم؟
- أنا؟ - فكّرت مليًّا. من أين أنا؟ لم أُسأل هذا السؤال في حياتي قبلها أبدًا ولم أفكّر به مرّةً واحدة.
- ما بعرف. أنا من الشام - أجبته بتردّد.
- إي بس من وين من الشام؟ أنا من الميدان.
- تشرّفت فيك. بس أنا عنجد من الشام. وما بعرف من وين من الشام، يمكن لأني عشت فيها متل الغريب.

تعجّبتُ حينها بأنّني أبوح لغريبٍ بشيءٍ كهذا، ولكنّني شعرت بقربه منّي وشبهه بي. هو شريكٌ في المعاناة على الأقل وقد تجرّعنا معًا وباقي أبناء الثورة القهر والذل علقمًا من ذات الكأس. عرضت على شادي أن يرافقني وقلت له إنّني سأتقاسم المال الذي أملكه معه إن أراد مرافقتي. كان ما تبقّى معي على أي حالٍ بالكاد يكفيني ولكنّني أردت فعل ذلك، ربما لأنّني كنت بحاجةٍ إلى رفيقٍ يشاركني درب المصاعب

ذاك. وهكذا اتفقتُ مع شادي أن نتقاسم المال والألم، وحتّى خوفه. ربما لم أكن في حالٍ يسمح لي بمساعدة الآخرين ولكنّني شعرتُ بإحساسٍ دافئٍ لذلك العمل وشرعتُ أصلّي لكيلا أفقد شادي كما فقدتُ كل رفاقي على درب الجلجلة المخضّب خلف الحدود.

خرجتُ معه لشراء خطوطٍ للهاتف وتناول الطعام والتفرّج على الجزيرة قليلًا. اتصلتُ بعدها بالمكتب الذي أودعت عنده النقود في إزمير وأخبرته بوصولي الأراضي اليونانيّة، وبإعطائي الرمز السرّي له صار بإمكانه تسليم النقود للمهرّب. حدّثني صديقي الجديد عن مشاركته في الثورة في دمشق، وزادني قربًا منه اكتشافنا بأنّنا كنّا سويًّا في إحدى المظاهرات. تمازجت أصواتنا حينها لتصبح أقوى دون أن نعرف بعضنا، ولم نكن نعلم بأنّها ستتمازج مرّةً أخرى على شاطئ إيجة، ولكنّها هذه المرّة لن تعلو كثيرًا، إلّا أنّها ستكون قويّةً بما يكفي لجعلنا نبكي، ونتعانق بحرارة.

سهرنا على شرفة الفندق نغنّي أغاني الثورة ونردّد شعاراتها ونتبادل الأحاديث حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من الليل. لم يعد شادي في النهاية قادرًا حتّى على النهوض من شدّة التعب. تمنيتُ حينها لو أنّني تعرّفت إليه في إسطنبول، ربما كان حالي أفضل.

قصدنا في صباح اليوم التالي مع باقي المجموعة الميناء الذي كان يقع على مقربةٍ من الفندق وحجزنا من هناك أمكنةً على متن باخرةٍ كبيرةٍ إلى أثينا. لحسن الحظ كانت الباخرة ستنطلق بعد ساعتين فقط، فقضينا الوقت المتبقي أنا وشادي نتمشى حول الميناء.

أمضينا على متن الباخرة سبع ساعاتٍ كاملة. كان البحر رائقًا جدًّا وفاتنًا في آنٍ معًا، كما كانت المياه صافيةً وشفافةً تلمع تحت شمس ظهيرة ذلك اليوم. سألتُ نفسي، لماذا لم يكن كذلك حين كنّا على متن قاربنا المطاطي الصغير؟ هل الطبيعة تلعبُ معنا؟ لا، ربما الأمر ليس كذلك، ولكنّ الأمواج الصغيرة التي كانت كفيلةً بقلب قاربنا وتحويلنا إلى براز أسماكٍ في نهاية المطاف، لا تقوى بكل الأحوال على هزّ هذه المركبة العظيمة التي كنّا متوجّهين على متنها إلى عاصمة الإغريق أثينا. لطالما ارتبطَ كبر الحجم بالقوّة، وسيبقى هذا الاعتقاد سائدًا حتّى نهاية العالم على الأرجح. أليس لهذا شيّدت القلاع الضخمة والمباني العظيمة؟ لتواجه الطبيعة التي تستقوي على الضعيف وتهاب الضخم العظيم. أعادتني أفكاري تلك إلى طفولتي، تمامًا إلى اللّحظة التي كنتُ فيها مستلقيًا رغمًا عنّي تحت كومة أجساد الصبية الضاحكين. إلى استضعافهم لي وتنمّرهم على صغر حجمي وقصر قامتي وهزالة بنيتي. كنت حينها أنظر إلى يدَيّ وأتمنى أن أكبر، أو أن آكل نبتةً تحوّلني إلى ولدٍ ضخم فتصير يدي كبيرة، لأصفعهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر. كنت دائمًا ما أخلع ثيابي أمام مرآة غرفتي، أنظر بشكلٍ مطوّلٍ إلى الوحمة على صدري، وأبدأ بعدّ ضلوعي البارزة من تحت جلدي، وعندما أصل إلى رقم عشرة أكون قد بدأت بالبكاء. فكّرت على ظهر السفينة بأن جسدي ربما ليس بذلك السوء. ميسون ضاجعتني في المرّة الأولى ورأت الندبة على جسمي بينما كنت سكران، في المرّة الثانية عادت وحاولت خلع ملابسي أيضًا. ألا يعني هذا أن جسدي ليس دميمًا كما

أعتقد؟ ولكن لم يكن ذلك بالدافع الكافي الذي يجعلني على قناعةٍ بجسدي، فبقيت على حالي السابق ذاك.

تقدّم شادي منّي وسألني إن كنت أرغب بتناول القهوة فأجبته بالإيجاب. أثناء شربنا القهوة تساءل شادي كيف سنتابع رحلتنا. فقلت له إنّني سأتّصل بالمهرّب في إزمير وأسأله. حاولت الاتّصال برقم ذلك الشاب رائد الذي التقيت به في إسطنبول دون جدوى. الرقم الذي اتصلت به في إزمير لا يجيب أيضًا، ورقم المكتب الذي أودعت لديه نقودي مغلق: "اللعنة! لقد انتهى عملهم معي على الأرجح!". طمأنت شادي بأنّنا سنجد طريقةً نتابع بها طريقنا حتمًا. شعرت بمسؤوليةٍ كبيرةٍ تجاهه، وتجاه شوقه لوالدته!

9

فور وصولنا إلى أثينا عند حلول المساء توجّهت مع شادي إلى ساحة أمونيا كما أخبرنا الرجل الفلسطيني. قال لنا إنّنا هناك سنجد العديد من المهرّبين ومعاونيهم ولكن علينا الانتباه من المحتالين واللصوص، وتجّار الأعضاء. تجّار الأعضاء! أصابني الذعر واجتاحت القشعريرة جسدي عند سماعي ذلك. لقد تخيّلت نفسي حينها مسجّى على سريرٍ ملوّثٍ بالدماء، في غرفةٍ أشبه بالمسلخ، تعبق برائحة الكلور والكحول، بينما مباضع تجّار الأعضاء غير الحادّةٍ تفتح صدري بشكلٍ عشوائي وبصعوبةٍ كبيرة، تبدأ من فوق الندبة إلى اليمين قليلًا، تفتحُ قفصي الصدري لتنتشل قلبي الذي يأبى التوقف عن الخفقان بقوّةٍ، فينبض بين أيديهم ويسقط أرضًا ويهرب بعيدًا. تخيّلت أعضائي موزّعةً على الطاولة الحديديّة، دماغي، كبدي، رئتَيّ السوداوين، كليتَيّ، خصيتَيّ. وأنا؟ لم يكن قد تبقّى مني سوى كومةٍ من الجلد والعظام والدماء مرميّةً في زاوية الغرفة.

لم أرد إضاعة الوقت، خاصةً أن كل دقيقةً لها ثمنٌ ونقودي قد لا تكفيني وشادي لقطع نصف الطريق فتوجّهنا من فورنا إلى ساحة أمونيا.

لم يكن الميدان كما توقّعته. كان يشبه ميادين دمشق الكبرى إلى حدٍّ ما، ما أعاد إليّ الكثير من الذكريات. كان من السهل التوصّل إلى

المهـرّبين هنـاك، لأنهـم هـم مـن يـأتون إلـى الأشـخاص ويعرضـون خدماتهم، الأصعب كان الوثوق بهم من عدمه. في البداية كنّا نتهرّب من الأشخاص ونعاود الدوران في الساحة، حتّى تحدّث إلينا شابٌّ بلهجةٍ عراقيةٍ لطيفة:

- سوريّين يا شباب؟ - سألنا الشاب.
- إيه - أجابه شادي.

نظرت إلى شادي باستغرابٍ وبنظرةٍ فيها من التوبيخ بعض الشيء، فانبرى الشاب لي:

- لا تخاف أخي. أني غريب مثلكم وحابب أساعدكم. تريدون تطلعون من هنا؟
- إي. بس كيف بدنا نوثق فيك؟
- معك حق. هنا أكو نصابين كتير. أني أخوكم علي، من العراق. خلونا نروح شي محل وبخليكم تحكوا مع معلمي.

مشينا برفقة الشاب العراقي الأسمر إلى أحد المطاعم القريبة، حيث لم نكن أنا أو شادي قد تناولنا أي طعامٍ بعد. تحدّثنا معه في العديد من الأمور الجانبيّة أثناء الأكل وقد كانت طريقته لكسب ثقتنا وودّنا مكشوفةً ومبتذلةً بالنسبة إليّ. اتصل الشاب بـ "المعلم"، كان رجلًا يتحدّث لهجةً سوريّة. قال لنا المعلم إنّه لن يأخذ منّا أي مالٍ قبل وصولنا أوروبا وسيرافقنا علي خلال طريقنا حتّى نصل حدود النمسا. كان عرضًا جيّدًا طالما أنّنا سنكون ضمن مجموعةٍ من المهاجرين، كما أن الشابّ لم يكن يبدو كتجّار الأعضاء، كان يبدو كمحتالٍ صغيرٍ في

أسوأ الأحوال. قبلنا العرض وكان علينا الانطلاق بعد يومَين أمضيناهما في أحد فنادق أثينا. بدت لي أثينا كما بدت لي إسطنبول سابقًا. كانت العراقة بلا روح، فعرفت حينها أن المشكلة كانت لدي أنا، إنّني أكره العواصم وحسب.

لقد عشت في دمشق سنين طويلة، ربما أحببتها، ولكنّني لم أتعلّق بها. ربما تعلّقت بأفكارٍ ربطتني بها، ولكنّني وجدتُ نفسي في ريفها، وهناك أزهرت روحي. بين الأشجار والأزهار، لا بين الأبنية العملاقة ولا في الشوارع المهيبة. كما أنّني فضّلتُ إزمير على إسطنبول - رغم أن إسطنبول ليست العاصمة التركيّة الرسميّة، إلّا أنّها تأبى إلا أن تبدو كعاصمة - وأحببتُ جزيرة كيوس في حين لم تعجبني أثينا.

10

حجزنـا مـن محطـة لاريـزا في أثينـا رحلـةً بالقطـار بعـد الظهـر إلـى ثيسالونيكي في الشمال، حيث سنلتقي بباقي أفراد المجموعـة المتوجّهـة إلى أوروبا الغربيّة. حسب ما أخبرنا المهرّب فهو لديـه طريـقٌ بـريٌّ آمـنٌ إلى أوروبا وأنّه سيرافقنا في كـل خطـوةٍ وسيكون مسـاعدوه في "الشـبكة" المتوزّعون على كـل البلـدان التـي سنمرّ بهـا في خدمتنا ولـن نبـات ليلـةً واحدةً في العراء. والسعر الذي طلبه كـان معقـولًا جدًّا ومغريًا. نقـودي كانت كافيةً لإيصالي وإيصال شادي إلى السـويد بـل سيتبقّى معي مبلـغٌ كبيرٌ أيضًا، ما جعل الرحلة تلك تستحقّ المجازفة.

بعد سفر ست ساعاتٍ في ذلك القطار القديم، وصـلنا ثيسـالونيكي ثـم استقلّينا سيارة أجرةٍ إلى ضـاحية أوريوكاسـترو، حيـث التقينا على أطـراف البلـدة بسـيارة نقـل ركّـابٍ قديمـةٍ تحمـل على متنهـا سـتة أشـخاص. شـابٌّ سوريٌّ في مقتبل العمر لم يتجاوز الثامنة عشرة غالبًا، ورجـلٌ وقـورٌ وزوجته مع ابنتهما ذات السبع سـنوات بالإضـافة إلى شـابّةٍ سـوريّة، والسـادس كـان الشاب العراقي الذي التقينا به في أثينا والذي كان يجلس بفخـرٍ كالطـاووس قرب السائق العجوز الذي لـم يتفوّه طوال الطريق بكلمةٍ واحدة.

سارت بنا الحافلة الصغيرة حتّى قرية كاميلو الحدوديّة، ومن هنـاك توجّـب علينـا المسير تحـت الظـلام سـاعتَين قبـل الوصـول إلـى نقطـة

إيـدوميني الحدوديّـة. تبعنـا الشـاب الـذي كـان يتلقّـى التعليمـات عـبر الهاتف ويستخدم خـرائط غوغـل أحيانًـا. بـدا علـي لا يفقـه عـن الطريـق شيئًا، ما زاد ارتباكي وريبتي منه. مشينا بعد وصـولنا إلى إيـدوميني على سـكّة قطـارٍ في عمـق الأراضـي المقدونيّـة حتّـى مدينـة غيفغليـا. كانـت الساعة قد شـارفت علـى الواحـدة بعـد منتصـف الليـل. وجـدنا بانتظارنـا قـرب البلـدة شـاحنة نقـل لحـومٍ صـغيرةٍ تحمـل لوحـةً مقدونيّة. صـعدنا العربة الخلفيّة غير المجهّزة أصلًا لنقل البشر وجلسنا تقريبًا فوق بعضـنا البعض. كانت العربة من الداخل مظلمةً جدًّا وكريهة الرائحة للغاية. بعد أن انطلقـت العربـة بسـاعةٍ تقريبًـا بـدأتُ أشـعر بضـيقٍ في صـدري، فشـعرَ شادي بانزعاجي وسألني ما الخطب: "ما في شي.. متضايق شوي بـس"، قلت له.

بعد نصف ساعةٍ توقّفت العربة على طرف الطريق في منطقـةٍ ترابيّـة وسُـمح لنـا بـالتنفّس والتـدخين دون الابتعـاد عـن الحافلـة أو إثـارة الضوضاء. كما لم يكن من المسموح لنا التحدّث إلى السائق المقدوني. نزلتُ من السيارة وتنفّست الصعداء كمن خرج لتوّه إلى الحيـاة مجـدّدًا: "كـل رحلتنـا بكفّـة والقعـدة بهـالقبر بكفّـة" قلـت لشـادي الـذي يمـد إلـيّ ولّاعته، بينما يقول: "هانت. عم نقرّب".

كـان شـادي لا ينفـكّ طـوال الطريـق ينظـر ناحيـة الصـبيّة السـوريّة المحجّبة. الفتاة النحيلة بدت حزينـةً جـدًّا وخائفـة ولـم تكـن قـد نطقـت خلال الرحلة بكلمةٍ واحدةٍ بعـد. نظـرَ شـادي طـوال فـترة التـدخين إليهـا بينما تتمشّى وحيدةً جيئةً وذهابًا قرب الشاحنة.

- روح حاكيها - قلت لشادي الذي ارتبك بشدّة.
- نعم؟ حاكي مين؟ - أجابني بخجل.
- البنت المحجّبة. واضح إنّك معجب فيها.
- لك يا زلمي. أنا ما بعرف عنها شي أبدًا، كيف بدي كون معجب فيها؟ بعدين مو شايف وضعنا؟
- عادي. بيكفي تكون مستلطفها لتروح وتحاكيها!
- لو كنت مكاني كنت حاكيتها؟ سألني شادي.

أطلتُ الصمت ثم أجبته:

- إذا البنت لفتت نظرك، حاكيها وبس. واعرف إنّه ما رح تخسر شي أبدًا، هي إذا كان عندك شي تخسره أساسًا - قلت لشادي بلجهة تهكّمية.

أشعل شادي سيجارةً أخرى وراح يدور في المكان. ثم قال لي: "معك حق. رح حاكيها". مشى شادي باتجاه الفتاة وعاد بعد دقائق إليّ. "شو صار؟" سألته بحماس. "بحكي لك بعد شوي" أجابني ببرود.

نادانا الشاب العراقي للصعود إلى الشاحنة بهدوء فصعدنا وتابعنا رحلتنا حتّى الحدود المقدونيّة - الصربيّة التي وصلناها عند الرابعة صباحًا تقريبًا. كنت طوال الرحلة بالكاد أستطيع التنفّس. كما كان قلبي ينبض بشدّةٍ واضطررت للتقيؤ مرتين. عند نزولنا من الشاحنة كنّا منهكين تمامًا، ساعد الشبّانُ السيّدات والأطفال، ولكن كان علينا اجتياز الحدود قبل شروق الشمس. نبّهنا الشاب العراقي لخطورة العبور قائلًا إن علينا العبور بهدوءٍ شديدٍ وأن نبقى متباعدين عن بعضنا فالنقطة

مراقبةٌ من قبل الشرطة الصربيّة، ولكنّه طمأننا في الآن ذاته بأن الجنود لن يطلقوا علينا في حال لم نثر الانتباه. كان علينا العبور من قرية لوياني المقدونيّة إلى قرية ميراتوفاك داخل الأراضي الصربيّة والتي يقطنها بشكلٍ أساسيٍّ مواطنون ألبانيون سابقون. هذا الطريق الحدودي كان قد تمَّ إغلاقه بعد انهيار يوغوسلافيا عام 2006 بشكلٍ كامل. مشينا بحذرٍ مسافة ساعةٍ عابرين التلال التي تفصل البلدَين عن بعضهما، وعند وصولنا نهاية الطريق المشجّر كانت بانتظارنا شاحنة نقل بضائعٍ عبرت بنا الطريق المظلم دون أن تشعل أضواءها وأوصلتنا إلى بيت صغير قرب مدينة بريشيفو الصربيّة الواقعة على الطريق الدولي بلغراد - أثينا.

دخلنا البيت الذي كان يحوي في حديقته الخلفيّة غرفة متطرّفة تبدو كالسجن قربها مرحاضٌ شرقيٌّ(*) مغطىً بالتوتياء وفيه برميل ماءٍ أزرق، وقد كان في المنزل ثلاثة رجال، اثنان منهما ملامحهما سلافية والثالث يحمل ملامح قوقازيّة. أخذ الرجال هواتفنا منّا وأخبرونا بإنجليزيةٍ رديئةٍ أنّهم سيقومون بشحنها ريثما نرتاح لأن الغرفة لا تحتوي على كهرباء. كنّا جميعًا لا نريد أكثر من النوم والهدوء فأعطيناهم الهواتف وحسب.

انسدح الجميع في الغرفة على الأرض. كان يتوسّط سقفها المقشّر مصباحٌ أحمر أشبه بالذي يُستعمل في غرف التحقيق للضغط النفسي على المتّهمين. كانت رائحة الغرفة تشي بأنّه قد تمَّ طلاء جدرانها للتو، ولكن السقف بالٍ وقديم، كما كان العفن واضحًا على زواياه. لحسن الحظ كانت مساحة الغرفة واسعةً بحيث لم ننم ملتصقين ببعضنا

(*) مرحاض القرفصاء.

البعض، وكانت الأرض قد فُرشت بقطعٍ من الإسفنج مخصّصٌ للنوم.

- هذا هوي المبيت اللي وعدنا فيه هالعرصة؟ - قلت بغضبٍ لشادي الذي صنع من معطفه وسادةً لرأسه، بعد أن تفحّص الوسادة الموجودة فوق الإسفنجة، والتي كانت كالحجر في صلابتها.
- إيه. يمكن هاد يُعتبر خمس نجوم، والله هالمخدات خرج الواحد يتقّل فيهن حلّة محاشي - أجابني شادي بنبرةٍ حزينة.
- ما رح تقلّي شو حكيتوا؟
- ما قدرت أعرف إلّا إنّه اسمها عبير.
- إي؟
- إي ما حكت معي ولا شي تاني.
- يمكن طبيعي ما توثق فيك بسرعة.
- آدم. أنت حبيت من قبل؟
- يمكن إي ويمكن لأ. ما بعرف شو بيحس الإنسان لما يحب عنجد - أجبتهُ وأنا أدير رأسي للجهة الأخرى وأضفت: "تصبح على خير".
- أصلًا هلأ الصبح. قلّي، شو هوي الحب؟
- قلت لك تصبح على خير شادي - أجبتهُ بحزم.

لم أفكّر قبل ذلك اليوم ولا لمرّةٍ واحدةٍ أن أسأل نفسي ما الحب! هو شعورٌ غريبٌ بالانجذاب إلى شخصٍ آخرٍ بشكلٍ محيّر. وهذا ما لم أشعر به من قبل. لربما هو سيلٌ من المشاعر تجاه أحدهم لا يمكن

تفسيره وهذا لم يكن حالي يومًا. هو الأمان والثقة، مجتمعين مع الرغبة بالخلود إلى جانب ذلك الإنسان، أو الموت على ذراعيه. لربما هو شيءٌ مبهمٌ وغير قابلٍ للتأويل طالما هو قائم، فأي عاشقٍ سيأبه لإيجاد تعريفٍ أدبيٍّ أو فلسفيٍّ أو علميٍّ لأحلى شعورٍ قد يدخل قلب الإنسان؟ وهل سيضيّع أثمن وقتٍ في حياته في مثل هذه الترّهات؟ شعرت حينها برغبةٍ كبيرةٍ بالحب. ليتني استطعتُ أن أحبَّ دارين، أو ريما أو حتّى ميسون. ربما كنت قد أجبتُ صديقي الصغير الحيران، ولم أنهرهُ لينام.

- الأنثى هي أروع شي بالحياة يا شادي - قلت له بصوتٍ خفيض وببطءٍ شديدٍ قبل أن أغمض عينَيّ.

11

عند الثانية ظهرًا دق باب الغرفة التي لا تحتوي على أي نوافذ والتي كانت باردةً كثلّاجة، وكان نصف أفراد المجموعة لا يزالون يغطّون في نومٍ عميق. فتح علي الباب فإذا بالرجل القوقازي يسلّمه أكياسًا كثيرةً، فصرخ الشاب العراقي: "يالله يا إخوان المعلم بعثلنا غدا". هممت بالنهوض بينما كنت أشعر بأوجاعٍ في كل عظامي وأدمدم: "الله يلعن هالسيران". اقتربتُ من شادي ورحت أوقظه: "قوم جابولك محاشي". فاستيقظ شادي، وكان الطعام دجاجًا مشويًّا. رفضَت عبير تناول الطعام وقالت إنّها غير جائعة، فاقترب شادي منها ليدعوها للأكل فرفضت بشدّة وأخرجت من حقيبتها بعض الكعك واكتفت به. أكلت قليلًا ثم استدارت صوب الجدار وكأنّها تخبئ شيئًا ما وكان واضحًا أنّها تناولت حبوبًا ما، فطفق شادي يمطّ رأسه بفضولٍ ليرى ما تفعل. "عيب يا ولد!" همست له فعدّل جلستهُ وتابع طعامه.

- بدّي إطلع دخن – صرختُ متوجّهًا بحديثي إلى الشاب العراقي.
- ما نقدر نطلع من هنا قبل ما تغيب الشمس.
- طيّب اختنقنا بهالقبر!
- يا معوّد أني مثلي مثلكم. حتّى أني ما اقدر أطلع برا. دخّن بمكانك وبلا مشاكل.

أشعلت سيجارةً ونفخت دخانها في الجو. اقترب الشاب العراقي منّي وجلس بقربي وسأل:

- شلون جانت نومتكم يا شباب؟
- ممتازة! خمس نجوم! - أجبته.
- لا تنسون أنتم لحد هسه ما دفعتوا ولا دولار واحد!
- إي. أنت شو شغّلك هالشغلة؟ من إيمت بتشتغلها؟ آسف، إذا سؤالي بيزعجك إنساه.
- مو من زمان. هاي ثالث مرّة اطلع بيها، وآخر مرّة - همس كلمته بصوتٍ خافتٍ جدًّا بالكاد سمعته.
- وليش آخر مرّة؟
- لأنّو أريد أعيش يمعوّد. هالمرّة رح أقدّم لجوء على شي دولة. أني مثلي مثلكم، أريد عيش وبس.

نفدَ قبل المساء ما كان معي من سجائر، فأخبرت الشاب العراقي الذي مدَّ لي ثلاث سجائر من علبته قائلًا: "خذ دبّر حالك وبلا ما ناخذ ونعطي مع الرجال اللي برا".

عند الساعة الخامسة تقريبًا بدت عبير متعبةً جدًّا. كانت تمسك بطنها بكلتا يديها وتئنّ من الألم. استندَتْ على الجدار محاولةً النهوض فاقتربت منها السيدة السوريّة وساعدتها في الذهاب إلى المرحاض. كانت عبير تمسك ذراع المرأة وتكتم حاجتها إلى الصراخ كما كانت منهارة القوى تمامًا. عادت الفتاة والمرأة بعد عشر دقائق وقد بدت عبير شاحبة اللون وغير واعيةٍ كما يجب، فاستلقت ونامت.

دُق الباب عند الثامنة والنصف، فنهض الشاب العراقي وقال: "يالله نمشي". نهضَ الجميع وساعدت السيدةُ عبير على النهوض، اقترب شادي وعرض على السيدة أن يحمل عبيرًا إلى الخارج، وحملها على ذراعَيه الصغيرتَين فعلًا. استلمنا هواتفنا من الرجال، وفي الخارج كانت السيارة المقدونيّة الخاصة بنقل اللحوم ذاتها بانتظارنا، ما زادني حنقًا وامتعاضًا. لقد كان علينا تحمّل شحّ الأكسجين والرائحة المقزّزة تلك لساعاتٍ ريثما نقطع الأراضي الصربيّة من جنوبها إلى شمالها ونصل الحدود الهنغاريّة.

أول استراحةٍ لنا كانت بعد الانطلاق بساعتَين. نزلنا جميعًا من الحافلة وكانت عبير قد استعادت شيئًا من نشاطها ولكنّها لم تكن ترغب بالنزول، فاقترب منها شادي وتحدّث إليها ثم نزلا معًا واقتربا منّي وعرّف شادي عبير إليّ بزهو:

- هاد رفيقي آدم من الشام. ما بعرف من وين من الشام بس هوي طيّب كتير. هو هلّأ مزعوج لأنّه ما معنا دخّان. آدم، هي عبير.
- أهلًا عبير اتشرّفت بمعرفتك - قلت لها مبتسمًا.
- شكرًا - قالت بخجل.

كنّا على سفح جبلٍ مطلٍّ على قريةٍ صغيرةٍ، فأدارت عبير وجهها نحو الجبل ولفّت يدَيها حول جسدها، فاقترب شادي منها عارضًا عليها معطفه فرفضت:

- إنتِ منيحة؟ سألها شادي.

- تعبانة شوي.
- عم يوجعك شي؟

التفتت الفتاة صوب الشاب الواقع لتوّه في الحب وابتسمت بسخرية، ثم تابعت نظرها نحو القرية.

- أنتِ من وين؟ - سألها شادي.
- من سوريّة.
- بعرف. بس من أي مدينة؟

لم تجب الفتاة وتابعت النظر.

- عبير! نحنا ولاد بلد متلك. خلينا نساعدك - قال لها شادي.
- أنا بدّي أبقى لحالي وبس - قالت الفتاة دون أن تنظر إلى شادي، وصعدت الشاحنة من جديد وهي ترتجفمن البرد.

تابعنا بعدها رحلتنا وقضيتُ الساعات كلّها غارقًا في توتّري، الذي حاولت إخفاءه قدر المستطاع، ورعبي ممّا هو قادم. نام شادي على كتفي، لقد كان حزينًا جدًّا ولا يعرف إلى قلب عبير سبيلًا. لم نحصل بعد تلك الاستراحة على واحدةٍ أخرى. كانت الشاحنة تتوقّف كل ساعةٍ دقيقتين أو ثلاثًا يتم فيها فتح باب العربة الخلفيّة التي تحملنا لنتنفّس بعض الهواء النقي. استمرّت رحلتنا عشر ساعاتٍ كاملةٍ وكان الشاب العراقي يجلس على يساري في عربة نقل اللحوم ولم يُسمح له بالجلوس قرب السائق هذه المرّة. كان يتلقّى سيلًا من التساؤلات من الجميع وفي كل مرّةٍ كان يجيب ببساطةٍ: "ما بعرف". خاطبت الشاب همسًا لأنشغل عن شعوري بالغثيان:

- من إيمتا تارك العراق؟
- زمان. من جنت جاهل صغير. الحرب طشرتنه وأخذت أخواني الاثنين.
- أنا آسف ما كنت بعرف!
- ولا يهمج حبيبي. أني هم جنت عايش بسوريّة ترى. ورجعنا بعدها تشرّدنا وخسرت والدي. ومن يومها عرفت إنّي إنسان ما انخلق حتّى يستقر بمكان واحد. لازم أبقى أتحرّك وأتنقّل حتّى ما يحاصرني الموت بزاوية. بس هسا تعبت هوايا.
- يمكن معك حق.
- تدري. من كثر ما شفت مصايب الناس، صارت مصيبتي سهلة. تعاملت ويه هوايا لاجئين، كل واحد بيهم شايل بقلبه بحر من الوجع. أحيانًا أباوع حواليه وأقول، معقولة هذولة انخلقو للعذاب بس؟

صمتُّ ولم أتابع الحديث بينما صرت بالكاد أستطيع مقاومة التقيؤ. عبير المسكينة لم تنعم بدقيقة هدوءٍ واحدةٍ هي الأخرى، لقد كانت تتعرّض لآلام في البطن وتتقيأ دون أن يخرج من بطنها شيء. كانت الفتاة في حالةٍ يُرثى لها.

أثناء نزولنا طلبت عبير من شادي مساعدتها، الأمر الذي قلب تعابير وجهه كليًّا. كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحًا ولم يخفِ الشاب العراقي عنّي خوفه من كوننا سنعبر الحدود المجريّة في وضح النهار. اجتزنا الأسلاك الشائكة بعد أن قصصناها وقد كان من المفترض

أن حافلةً في انتظارنا على المقلب الآخر لأخذنا إلى زيجيد المجريّة. كنتُ خائر القوى تمامًا، والشعور بالغثيان والإعياء لم يفارقاني طوال المسير. وصلنا أخيرًا إلى منطقةٍ ريفيّةٍ وشرع الشاب العراقي يحاول عبثًا الاتصال بمعلّمه. "الخط مسكّر!" قال لنا بخوف. اقترح أحد الشبّان الاستراحة بين الأشجار ريثما نتوصّل إلى المهرّب، فوافقنا. أسندتُ رأسي إلى إحدى الشجرات الكبيرة التي تمتلئ بها تلك الغابة وبدأت أفكّر كم هو صغيرٌ عالمنا بحيث قطعت كل تلك المسافات في عدّة أيام، وكم هو كبيرٌ في الوقت نفسه بحيث علينا الاختباء بين الأشجار من حرس الحدود. كانت السماء ممتلئةً بالغيوم على نحوٍ يشير إلى أنّها ستمطر خلال الساعات القادمة. حتّى الغيوم كانت تبدو وكأنها تضيق ذرعًا بالماء الذي تحمله، وهكذا بدأت تمطر بشدّة. جاء شادي وجلس بقربي وتنهّد بعمق.

- كيفك؟ - سألتُ شادي.
- معها سرطان - أجابني بحزن.

لم أدرِ كيف أجيبه.

- انشالله دغري بس نوصل منشوف دكتور.
- تعبانة كتير يا آدم.. لازم نوصل بسرعة - أجابني الشاب بصوتٍ مرتجف.

بعد أن عجز علي عن تلقّي أي ردٍّ من المهرّب. قررنا متابعة المسير معتمدين على خبرته إلى إحدى القرى القريبة من المكان. خرجنا من تلك الغابة باتجاه طريقٍ سريع، تبيّن لنا في الجهة الأخرى منه

محطـة وقـودٍ، فـاقترح الشـاب أن يـذهب ليشـتري السـجائر وبعـض الحلويات والماء على أن ننتظره بهدوءٍ حتّى يعود. عادَ بعد دقائق بالفعل حاملًا الحاجيات وعدنا للمشي بمحاذاة الطريق بين الأشجار. لـم نكـد نقطع مسافة كيلومترٍ واحدٍ حتّى بدأنا نسمع صافرات سيارات الشرطة. حاولنا الاختباء والهرب دون جدوى، لقد تمَّ إلقاء القبض علينا جميعًا.

12

أُزيلت العصائب عن أعيننا فوجدنا أنفسنا مكبّلين في غرفة تحقيقٍ رائحتها تشبه رائحة السمك المتعفّن. تمَّ فصل النساء عن الرجال في زنزانتَين وتجريد الرجال من ملابسهم، كما تمّت مصادرة أموالنا وهواتفنا وأوراقنا السوريّة واليونانيّة. نبّهنا الشاب العراقي بأن لا نتفوّه بأي كلمةٍ للشرطة. حاول الضابط المجري استجوابنا بشكلٍ جماعيٍّ وسألنا إلى أين كنّا ذاهبين وكيف اجتزنا الحدود بينما استمرّينا بالتظاهر بأنّنا لا نجيد الإنجليزية. بدا غاضبًا وبدأ يصرخ بالمجريّة ثم ذهب وأغلق الزنزانة تاركًا إيانا مكبّلين أرضًا. عاد بعد ساعةٍ مع رجلٍ مصريٍّ أسمر طويل القامة عبوس الوجه. راح المصري يعيد علينا الأسئلة بالعربيّة بصوته الثخين ونحن صامتون وحسب. يئس الرجل منّا وخرج مع الضابط ودخل بعد عدّة دقائق ثلاثة رجال شرطةٍ بدأوا بضربنا ضربًا مبرحًا باستخدام عصيٍّ مطاطيّة. بعد قليلٍ عادَ الضابط مع الرجل وقال إن النساء قد اعترفن بكل شيءٍ وأنّنا سندفع الثمن غاليًا. "معنا بنت مريضة"، قال شادي للرجل المصري الذي ترجم ذلك على الفور للضابط الذي تجاهل الأمر بعدم الإجابة.

تمَّ نقلنا بعدها إلى زنزانةٍ صغيرة، خمسة رجالٍ كان علينا قضاء وقتنا في زنزانةٍ أشبه ما تكون بمقصورة مصعدٍ كهربائي. قضينا اليوم

الأوّل في حبسنا ذاك، مسلوبي الحرّية والحق في التحرّك أو حتّى إفراغ ما في جوفنا، ولم نأكل خلال النهار سوى وجبة واحدة مؤلّفةً من خبزٍ مقليٍ وقطعة مرتديلا صغيرة. كان من المسموح لنا بالخروج إلى المرحاض مرّةً واحدةً في اليوم فقط. خرجتُ عندما جاء دوري وكنت أعاني من الكتمان الشديد، لكن رجال الشرطة سحبوني من داخل المرحاض بعد عدّة دقائق، قبل أن أتمَّ الأمر.

كنتُ أشعر بالعطش الشديد وقد حاولت دقّ باب الزنزانة مرارًا دون جدوى. نمتُ أخيرًا من شدّة الإرهاق وأنا جالسٌ أمسك كلتا ساقَيّ وأشدّهما إلى بطني لأوفّر مكانًا للآخرين، بينما شادي يبكي بقربي بصمت.

* * *

كان الماء ينسكبُ من خرطومٍ يتدلّى من سقف الزنزانة الانفراديّة. نظرتُ حولي فوجدت نفسي وحيدًا. السقف كان عاليًا والغرفة مغلقةٌ من جميع الجهات وضيّقةٌ جدًّا، بالكاد كنتُ أستطيع الوقوف فيها. لقد كان الضيق ذاته الذي لا أنساهُ وأنا داخل السيّارة المقلوبة، والذي عاودني حين طفق الأطفال يقفزون فوقي صانعين تلّةً من البشر أرزح تحت ثقلها باستسلام. بدأ الماء يغطي كلتا قدمَي ويرتفع تدريجيًا. مددتُ لساني تحت خيط الماء المناسب لأشرب، لقد كان ماءً مالحًا جدًّا، بل مُرّ! قبل أن يصل الماء إلى ركبتَي بدأت أشعر بالبرد يسبقهُ إلى ذراعَيّ اللتين شلّهما الخدر. بدأت أنادي وأنادي طالبًا النجدة فاختلطت

صرخاتٌ بعيدةٌ بنداءاتي. توقفتُ عن الاستجداء وشرعتُ أنصتُ للصرخات البعيدة. لقد كان صوت دارين، في زنزانةٍ ما بقربي! كانت تناديني: "آدم. آدم" وتصرخُ طالبةً منهم أن يتركوها. لقد كانوا يقومون باغتصابها بالتناوب، واحدًا تلو الآخر وهي تصرخ. رحتُ أنا الآخر أزعق ليتركوها، والماء يملأ الغرفة رويدًا رويدًا وكان قد دنا من عنقي حين بدأت أرفع رأسي إلى الأعلى وأحاول القفز دون أن أتوقّف عن الصراخ. راح الماء المالح يدخل فمي وأذنَيّ وغابت أصوات دارين عنّي، وغرقت قدرتي على الصراخ مع امتلاء مجرى تنفُّسي بالماء والملح.

استيقظتُ من كابوسي ذاك على صراخٍ من الزنزانة المجاورة حيث كانت النساء. كان من الواضح أنّها عبير تتألّم. كانت تصرخ دون جدوى، وكأن أحدًا لا يسمع صرخاتها. بدأ شادي بالطرق على الباب الذي حاولنا جاهدين كسره دون فائدة. راح الشاب يبكي ويصرخ بأن يفتحوا الباب له، بعد نصف ساعةٍ فُتح شبّاك الزنزانة من قبل أحد رجال الشرطة وبدأ شادي يصرخ في وجهه من خلف القضبان أن فتاةً مريضةً تتألّم في الزنزانة المجاورة وهي بحاجةٍ إلى طبيب. عادَ الشرطي لإغلاق الشبّاك وازدادت الصرخات فعاد شادي لرفس الباب بكل قوّته، فما كان من الشرطي إلّا أن دخل وحاول سحب شادي الذي سدّد لكمةً إلى أنف الشرطي، تدخّل رجال الشرطة الآخرون وسحبوا الشاب بينما نحاول تخليصه من أيديهم. حاولنا بكل ما في وسعنا أن نساعده فانهالَ رجال الشرطة علينا بالضرب. هاجم الشاب العراقي رجال الشرطة وقد

عجزوا عن إلقائه أرضًا في البداية. تمَّ سحبه هو الآخر بعد أن ضربوه على رأسه بالهراوة ففقدَ الوعي، ولم أرَه ولم أرَ شادي منذ ذلك اليوم.

قضيتُ ما تبقّى من الليلة غارقًا في أفكاري بين كابوسي ومصير رفيقَي. هل فقدتهما أيضًا؟ يا إلهي كم كانت تلك الزنزانة بشعة، كانت جحيمًا ضيّقًا وغير محدود. كم هو بشعٌ أن تُسجن، دون ذنب. كم عدد المعتقلين في هذا العالم؟ كم هو عدد الناس الذين أُغلقت في وجههم أبواب الحرّية وحُشروا في زنازين مظلمةٍ ليقاسوا الضيق والألم؟ دون أحذيةٍ ينتعلونها ولا أرضٍ يدوسونها. دون أقلامٍ ولا أوراق. وحدهم والذاكرة والجدران المتقاربة. وحدهم مع أمسهم بألمه وأوزاره، يعاركونه ويهزمهم. ما الذي يشغلنا عن التفكير بالماضي؟ الحركة، حركة الحاضر، والأمل بالمستقبل. ماذا لو جُرّدَ المرء من حاضره وحُبسَ في قفصٍ أسود، دون حكمٍ ولا قاضٍ؟ سيموت بالتأكيد هناك، في ماضيه السحيق، حيث كان حريًّا به أن يموت، لو لم يسرقه القادم من نفسه وضميره، بكل تأكيد. وحده العاشق سترتفع آماله أعلى جدران القلاع والأقبية. هو الوحيد الذي سترنو أنظاره وتقفز فوق الأسوار وتقطع المسافات لتغازل عشيقته، أنثاه الحيّة. قد تكون امرأةً أو فكرةً أو ثورةً، أو حرّيةً مجرّدة. ولكن أنا ماذا؟ لن أطرق على هذا الباب مهما طال بي الزمن هنا. ستتقهقر أحلامي لدى اصطدامها بأول جدارٍ أو بندقية. لن ترتفع آمالي عاليًا، ستعاود السقوط لدى معانقتها سقف الزنزانة. فلستُ اليوم لا عاشقًا ولا ثائرًا ولا أحمل في رأسي حتّى أيّة أفكارٍ أو أحلام. أنا حطام، ولا أكثر من مجرّد حطام. ابن ماضٍ بائسٍ وحُلمٍ ممزّق، وكثيرٍ من الزلّات.

تمَّ ترحيلنا في اليوم التالي في طائرةٍ صغيرةٍ إلى أثينا. أخبرتنا النساء أنّه قد ساءت حالة عبير بشكل مأساويٍ وقد عانت من آلامٍ في البطن وتقيؤٍ مستمرٍّ وتمَّ نقلها بعد منتصف الليلة السابقة إلى المشفى بعد أن عاينها طبيبٌ في الزنزانة. وهكذا اختفت عبير وشادي وعلي من حياتي، بسرعةٍ وسلاسة، كما دخلوها حالمين بالحرّية والأمان والحب، قبل عدّة أيام.

القسم الرابع

الحياة تتأرجح كالبندول بين الألم والملل.

آرثر شوبنهاور

1

وصلتُ إلى مطار فيينا قبل أكثر من سنتين قادمًا من اليونان بواسطة جواز سفرٍ إسبانيٍّ مزوّر. كنت أريد مواصلة طريقي إلى السويد أو ألمانيا لطلب اللجوء هناك، ولكنّني قرّرت عند خروجي من مطار فيينا تسليم نفسي للشرطة وطلب اللجوء في النمسا. لم أكن قادرًا على الترحال أكثر من ذلك، وكانت كل الأماكن بالنسبة إليّ سواسية. أقمتُ حينها في مجمّعٍ خاصٍ باللاجئين قرب دبلينغ أحد أقاليم فيينا، إلى حين البتّ بطلب لجوئي. الكوابيس كانت لا تفارقني، وداريـن لا تنفكّ تزورني في أحلامي راجيةً منّي النجدة، حتّى صرتُ بالكاد أنام وأصبحَت صحّتي في تدهورٍ مستمرّ.

كنت أكتفي بالتجوّل في دبلينغ. مكاني المفضّل كان يقع شرقي المنطقة ويطلّ على بلدةٍ اسمها كالينبيرغردورف، وعلى نهر الدانوب المجاور الذي يقطع فيينا إلى قسمَين، وهو عبارة عن طريقٍ للمارّة بين الجبال الخضراء، مرتفعٌ وبعيدٌ عن النهر بحيث لا أشعر بالخوف من الماء. كنت في بادئ الأمر أذهب إلى هناك عدّة مراتٍ في الأسبوع أصطحب معي مشروبًا وأقضي وقتي في الاستماع إلى الموسيقى.

عند اكتشافي ذلك المكان للمرّة الأولى نظرتُ نحو الأسفل وفكّرت في رحلتي الجوّيّة الخطيرة إلى فيينا. حينها كانت العاصمة

النمساوية جديدةً ومثيرةً للاهتمام بشكلٍ كبير بالنسبة إليّ. كنت أستمع إلى إحدى الأغنيات الكلاسيكيّة التي بثٌّ من معجبيها مؤخّرًا: سارة فون، جسد وروح (*).

الجو البارد جدًّا جعلني أندم لإحضار البيرة وليس الفودكا، لكنّني أردت البقاء في الأعلى، لم أرد النزول مجدّدًا. بعد احتجازي ليومَين في أحد السجون في أثينا تمَّ إطلاق سراحي لأستطيع الحصول أخيرًا على جواز سفرٍ عائدٍ لشخصٍ إسبانيٍّ يشبهني نوعًا ما. ما كان عليّ فعله كان ببساطةٍ حلق لحيتي بالموسى والتظاهر بأنّني غربي، كما تدرّبت بعض الشيء على نطق الإنجليزية بلهجةٍ إسبانيّة.

صعدتُ الطائرة دون مشاكل، وفور إقلاعها ضغط التوتّر على أنفاسي فصرتُ أختنق. كنت أجلسُ قرب النافذة أنظر إلى الأرض تبتعدُ عنّي، لا، بل أنا من كنتُ أبتعد عنها شيئًا فشيئًا. لقد كنت أصعد عاليًا. بدأت أشعرُ بالاختناق فتحدّثت إلى الفتاة الشقراء التي كانت تشغل الكرسي الملاصق لي:

- عذرًا، هل تتحدّثين الإنجليزية؟
- نعم، قليلًا - أجابتني بابتسامةٍ ساحرة.
- أنا آدم من إسبانيا، أقصد أنّني من سوريّة - قلت لها بارتباك.
- سعدتُ بلقائك. أنا كاتارينا، من أيسلندا، وأعني أنّني من هناك - قالت مبتسمةً بخباثة.
- كاتارينا. هل هذا يعني بأن عليّ مناداتك بـ "كاتي"؟

(*) Sarah Vaughan - Body and Soul.

- لا. هذا لا يعني أي شيء. ليس عليك شيء. بإمكانك مناداتي كيفما شئت على أيّة حال - قالت بينما تقلّب صفحة المجلة الفنّيّة التي بحوزتها.

صمتُّ برهةً بعد أن شعرتُ بأنّني أزعجها، ونظرتُ من النافذة لأرى أنّنا قد ابتعدنا جدًّا عن سطح كوكبنا. لقد صرنا فوق الغيوم:

- عذرًا، أنا متوتّرٌ قليلًا. أتمنى أنّني لا أزعجكِ بحديثي إليك.
- على الإطلاق - قالت بينما تغلق المجلة.
- هل أنتِ مهتمّةٌ بالأزياء؟ أم أنّه الملل فقط؟
- الاثنان معًا. أتدري، لم يثر اهتمامي أيٌّ مما هو في هذه المجلة اللعينة ولا أدري لماذا انحدر الذوق الأوروبي إلى هذه الدرجة.
- ولكنّني أراكِ ترتدين ملابس دارجة. بنطالك الممزّق على سبيل المثال.
- حسنًا، هل تريد منّي صعود الطائرة بفستان كوكتيل؟ - قالت بينما تقهقه بصوتٍ مرتفعٍ بعض الشيء.
- هل يروق لكِ هذا النوع؟
- هو أكثر راحةً على الأقل من الجينز. أتدري، أنا أكره الملابس بالعموم. لقد بدأت الملابس كوسيلةٍ للوقاية من البرد وعوامل الطبيعة، ولكنّها أصبحت وسيلةً للتعبير عن الوفاء للشريك، ذات ارتباطٍ وثيقٍ بالجنس، كما تحوّلت مع الوقت لتعطينا قيمةً إضافية، قيمةً لا أحتاجها بالضرورة.

- هذا مثيرٌ للاهتمام. ولكنّه برأيي ليس سببًا كافيًا لنبذ الملابس والتخلّي عنها.
- ربما لسنا مجبرين على التخلّي عن شيءٍ بقدر ما نحن اليوم مجبرين على تغيير نظرتنا إلى بعض الأمور. الجنسانيّة قبيحةٌ جدًّا، بل العنصرية بشكلٍ عام. هل لديك استعدادٌ للذهاب معي إلى سهرةٍ وأنت ترتدي فستانًا؟
- بالطبع لا - قلت لها ضاحكًا.
- حسنًا، هل كنت لتتحدّث إليّ لو كنتُ داكنة البشرة أحمل ملامح إفريقيّة؟ أو كنتُ رجلًا مثلًا؟
- أعتقد ذلك. سبب حديثي إليك كان كامنًا لدي أنا، وليس لديك.
- حسنًا. أنت تقول ذلك الآن. ربما، لمَ لا؟ سأذهب إلى الحمّام قليلًا.

لم أفهم أي شيءٍ ممّا قالته تلك الفتاة. ماذا كانت تحاول أن تقول؟ عدتُ للنظر خارج النافذة، فشعرت أن قلبي قد سقط. شعرتُ ببرودةٍ مفاجئةٍ في أطرافي ثم بسخونةٍ في جسدي: "اللعنة!".

عادت كاتارينا بعد دقائقٍ شعرت بها كما لو كانت ساعاتٍ من الحمّام، وجلست قربي بصمت، فأكملت الحديث معها:

- كنتُ لأكلّمكِ ولو كنتِ ما كنتِ. أنا متوتّرٌ للغاية، وأحتاج ربما أن ألهي نفسي عن توتّري بأي شيء - كان صوتي يرتجف بشكلٍ ملحوظٍ جدًّا

- هل تعطيني يدك؟ - قالت لي، فمددت لها يدي.

نظرت إليها قليلًا، ثم قالت دون أن ترفع نظرها:

- هل شاهدت الحرب؟
- لا أود التحدّث عن هذا. أكرهُ لعب دور الضحيّة واستجداء التعاطف.
- أتسمح لي بمساعدتكِ للتخلّص من توتّرك؟ أنا أعمل في صالون مسّاج.

لم أكن أريد إلّا المساعدة، ولو كنت أجهل ماهيتها. كنت محتاجًا إلى مَن ينقذني مِن خوفي المنهِك. من يحرّرني من الصور التي يتم عرضها في رأسي بشكلٍ متكرّر دون أن أستطيع السيطرة عليها، أو طردها منه.

- بالطبع - أجبتها.
- إذًا أغمض عينَيك - همست لي وهي تنظر حولها وتضغط بيدها الصفيحة المعدنيّة الخاصة بحزام بنطالي وتفتح بعدها الزر العلوي، لتفسح مجالًا ليدها أن تغوص هناك، تحت سروالي الداخلي: "استسلم ببساطة" همسَت في أذني بنبرةٍ وديعةٍ وقد كادت تلصق شفتيها بها، فقد أحسست بأنفاسها قريبةً جدًّا.

أبقيتُ على عينَيّ مغمضتَين بينما يدها هناك جامدة. بقيت على ذلك عدّة دقائق قبل أن تبدأ بتحريكها. كانت حركاتها بطيئةً جدًّا، ولكنّها كانت بالقدر ذاته مُركّزةً لتنسيني أين كنت. شعرتُ بأناملها تطوّق كياني،

تمامًا كما كانت نظراتها تطوّق وجهي، بينما أغرق أكثر وأكثر داخل مقعد الطائرة.

كان من الواضح أنّها لا تريد الإسراع، كأنّها تستمتعُ هي الأخرى بالقدر نفسه. قبل النشوة بقليلٍ شعرت بزيادة إفراز اللعاب وبطعمٍ حلوٍ في فمي، كأنّ ريقي صار عسلًا، وبدفءٍ في عروقي، كأن دمي صار خمرًا. فتحتُ عينَيّ ورحت أنظر إلى عينَيها الخضراوين زامًّا شفتيّ وعاقدًا جبيني ثم ملتُ بوجهي على كتفها وأمسكت يدها بقوّةٍ بينما أشعر برعشةٍ خفيفةٍ تطوف في جسدي دون أن تجد سبيلها للخروج. طلبتُ من كاتارينا السماح لي بالمرور للذهاب إلى الحمّام. غسلتُ وجهي ونظرتُ إليه في المرآة. شعرتُ بندمٍ كبيرٍ، لكن توتّري كان قد زال إلى حدٍّ كبير.

هكذا أفقدُ السيطرة على نفسي في كل مرّة. ما نفع إرادتي إن لم أرفض الأشياء التي لا أراها صحيحة؟ أشعر أن أناي العليا في تلك اللحظات تتراجع إلى الصف الأخير فاسحةً المجال لغرائزي أن تتحكّم بسلوكي. لربما كانت مبادئي هشّةً لدرجةٍ لا تجعل منها قادرةً على المواجهة. "لكنّني أردت التخلّص من خوفي وتوتّري"، طفقتُ أبرّرُ لنفسي، ما أزاح عنّي شيئًا من الندم. فكّرتُ بأنّ عليّ عدم إشعار كاتارينا بانزعاجي، لقد كانت تريد مساعدتي ويجب ألّا أمرّر لها مشاعري السلبيّة تجاه نفسي وتجاهها.

عدتُ إلى مقعدي وكانت هي قد عادت لتصفّح المجلة:

- هل لديك حبيبة؟ - سألتني دون أن تنظر إليّ.

- لا أعتقد – أجبتها باقتضاب.
- كيف؟
- لا أعرف ما هو الحب. لم أجرّبه من قبل.
- أمّا أنا، فلديّ.
- هل هو في أيسلندا؟
- هي، أجل هي هناك.
- هي؟ هل أنتِ في علاقةٍ مع فتاة؟
- هل ما زلتَ متأكّدًا بأنّك ستحادثني لو كنتُ رجلًا؟ حسنًا، ماذا إن عرض عليك رجلٌ المساعدة التي عرضتها عليك؟
- سأرفض قطعًا. أنا لا أميل إلى الرجال!
- هذا يعني بأن كوني مثيرةً هو ما جعلك تقذف؟ لقد كنت تغمض عينَيك طوال الوقت!
- أجل. لكن لا. لن أقبل أن يمدَّ رجلٌ يده نحوي! صمتُّ مطوّلًا ثم استأنفت: لقد تعرّضتُ للتحرّش عندما كنت طفلًا من رجالٍ كبار.
- يؤسفني سماع ذلك. أسحبُ كل تساؤلاتي اللعينة – قالت لي وقد لمسَت في نظرتها التعاطف والأسف لوصولنا إلى تلك النقطة.
- لا عليكِ. هذا جرى قبل سنواتٍ طويلةٍ وأنا نسيته بالكامل.
- لا أظن ذلك. هل تحدّثتَ عنه من قبل؟ – سألتني بحذر.
- لا. لماذا أتحدّث عنه؟ – "بل كان عليّ أن أقول: مع من أتحدّث عنه؟"، قلتُ في نفسي.

- لكـي تتعـافى منـه، أنـت تحتـاج أن تخـبر أحـدهم. ألـم تخـبر أبوَيك؟
- لا، لم أخبرهمـا - "هـا أنـا أكـذب مرّةً أخـرى بـدافع الهـرب"، تابعـتُ مونولـوجي. ولكـن ذلـك الجـواب خـرج رغمًا عنّي. يبدو أن عقلي الباطن هو من كان يريد الكذب، ليجنّبني مزيـدًا من الألـم.
- يبدو أنّك لا تحب الحديث عن الموضـوع. هـا هـي حبيبتي - قالت وأخرجت هاتفها من حقيبتها لتريني صـورة فتـاةٍ شـقراءٍ بالكاد تبدو قد تجاوزت العشرين.
- تبدو جميلة. هل تشتاقين إليها؟
- لا أعلـم. لقـد هجرتنـي قبـل أشـهر بعـد أن اكتشـفت - حسـب زعمها - أنّنا بنتان من عمَّين من الدرجـة الثانيـة، لكنّنـي لا أراه سببًا يجعلها تنفر منّي، يبدو أنّ السأم قـد جعلهـا تكرهنـي قبـل أي شيءٍ آخر. هل أعتبر أنّني قـد خنتهـا للتـو؟ - كانـت تسـأل نفسها، لا تسألني.
- لا أدري.
- لا أعتقد. فأنا فعلـتُ ذلـك دون أي دافـعٍ جنسـي. فأنـا لا أميـل إلى الرجال أيضًا.

كانت الفتاة بالنسبة إليّ ككتابٍ لا أفهم من لغته كلمةً واحدة. لكـن فضولي تجاه الفتاة كان كبيرًا جدًّا. طرحـتُ سؤالي الـذي كـان يضـرب دماغي ببساطةٍ وارتباك:

- هل كنتِ لتنامي معي من باب الشفقة أيضًا؟
- لا. هذه ستكون خيانة بنظري - قالت دون أن تفكّر طويلًا.

"حسنًا. إذًا لن أخبرها أنّني ضاجعتُ امرأةً متزوّجةً بدافع الشفقة وهي تصرخ باسم حبيبها السابق"، فكّرت في داخلي.

- بمَ تفكّر؟ سألتني.
- لا شيء أبدًا. أشكركِ حقًّا، كاتارينا!
- لماذا؟ على تحريك يدي لمساعدتك؟ - سألتْ وهي تضحك وتتابع تقليب المجلّة.

"ما هذه الفتاةُ غريبة الأطوار؟"، سألت في نفسي. لم تعجبني أفكارها، ولو أنّ قناعاتها تلك هي ما دفعها إلى مساعدتي، لكنّني لم أكن أريد منها سوى أن تحادثني، هي من عرضت عليّ مساعدتها الجسديّة.

- لماذا أنتِ ذاهبةٌ إلى النمسا؟ - سألتها بعد لحظاتٍ من الصمت.
- لزيارة أختي. أختي تعمل في مصرفٍ في فيينا. وأنت؟
- أنا؟ ربما لإيجاد بدايةٍ جديدة، أو ربما لأجد نفسي.
- فهمت عليك - قالت، ثم صمتت حتى نهاية الرحلة.

حطّت الطائرة رحالها في مطار فيينا الدولي حوالي الساعة العاشرة صباحًا. افترقتُ عن كاتارينا في المطار. عانقتني وهي تقول: "أنت تبدو شابًّا رائعًا، فلا تترك الحزن يأكلك من الداخل. ارمه عند أوّل فرصةٍ وتابع حياتك كما لو أنّك نجوت للتو من حادث سير، كن بخير". قالت ذلك ومضت تاركةً إيّاي في أشدّ لحظات استغرابي وضياعي.

خلّفت تلك الفتاة أثرًا في داخلي لا أستطيع تفسيره. اعتقدتُ في البداية بأنّني قد وقعتُ في حبّها وندمت لعدم سؤالها عن رقم هاتفها. ربّما أعجبني تمرّدها ونظرتها المختلفة إلى كل شيء.

بحثتُ عن اسمها عبثًا في كل منصّات التواصل الاجتماعي، حتّى أنّني كلّما مررتُ بقرب مصرفٍ في فيينا قلت في نفسي: "علّ أختها تخرج الآن وتكون تشبهها فأتعرّف إليها".

2

مع الوقت صار فرانتس شوبرت صديق رحلاتي الوحيد إلى ذلك الجبل. أبدأ ببعض افتتاحيّاته المسرحيّة التي كان تأثيرها يفوق تأثير الكحول بمراحل، فأجدُ نفسي بالتدريج غارقًا في موسيقاه الصالونيّة الرباعيّة، حيث كنتُ قد وجدت في الإنترنت تسجيلًا يجمعها كلّها. كنتُ أسألُ نفسي دومًا، لِمَ يطربني الضرب على بعض الأوتار المشدودة؟ لماذا تجعل بعض الأصوات الناتجة عن تحريك الأوتار جسدي يرتعشُ بتلك الطريقة، وكأنّني أختبر النشوة لمراتٍ متتالية؟ كيف تلامس تلك الألحان أطراف روحي وتداعبها فأبتعد عن عالمي هذا؟ هل سرّها هو الانسجام؟ أجل! هو بالتأكيد أحد أسرارها. لا تكون مجموعةٌ من النغمات موسيقى إن لم تكن منسجمةً مع بعضها بتسلسلٍ فريدٍ ومضبوط، كالكون الذي نحيا فيه. كأنّها تعيد ترتيب العالم بإيقاعٍ متناغمٍ مع قوانين الطبيعة، ودون ذلك التسلسل الصارم لن تكون القطعة سوى ضجيج. ربما حاول معظم الفنّانين - على اختلاف أنماط الفن التي مارسوها - صبّ حزنهم في قوالب ليقدّموها إلى الناس، منهم من جسّدها في نصوصٍ أدبيّة، ومنهم من اختار نحتها أو رسمها أو إبرازها في بناء شيءٍ ما. لكن الموسيقي لا تضيف إلى الكون شيئًا ماديًّا كالبقية، بل تسمو إلى ما هو فوق الماديّ، إلى شيءٍ ما ورائي، غير مرئي، يعيد إنتاج زمنٍ جديدٍ خاص به، يخترق أرواحنا ليرمي

حزنه هناك، في أعمق نقطةٍ. ولكن أليس من المازوخيّة استمتاعنا بما هو حزين ومؤلم؟ لا، ربما تلك البهجة تنتجُ عن إحساسنا بكوننا بشرًا قادرين على تلقّف حزن الفنان في قلوبنا، والشعور بألمه دون أن نعرفه أو نراه.

قلتُ حينها في نفسي: "مثيرٌ أنّني وبعد كلّ السنوات العجاف ما زلتُ قادرًا على الحزن، على التعاطف، لم تتحجّر مشاعري ولم تتحول عيناي إلى صخورٍ جافةٍ أو نبات صبّار، بل ما زالت نديّةً قادرةً على ذرف الوجع خارجًا". ربما هو شعورٌ ممتعٌ بإسقاط حزن الفنّان على ذكرياتنا، استحضار خيباتنا والرجوع إلى آلامنا عبر حزن الآخرين. هو الشعور بوحدة الحزن الإنساني. هو حاجتنا إلى المأساة، التي تعادل حاجتنا إلى السعادة، بل ربما تتفوّق عليها. هكذا كنتُ أذوب مثلًا في وحدة شوبرت وعشقه في سيمفونيته الثامنة (السيمفونيّة الناقصة) التي لم يقدّر له إتمامها - ولو أنّها أكثر أعماله كمالًا برأيي - في مدينته التي وُلد وتوفّي فيها. كنتُ أقضي ساعاتٍ في محاولة تخمين ما أراد شوبرت قوله لي شخصيًّا من خلال ألحانه تلك، دون جدوى. لم أكن أعرف عن حياة ذلك الإنسان الذي عاش قبل أكثر من مئتَي سنة أيّة تفاصيل، ولكنّني كنت واثقًا تمام الثقة بأنّ حزنًا عظيمًا ما كان يعتريه، حزنٌ لم يكن له أن يحاربه إلّا بتحويله إلى تردّداتٍ تنتقل ليس عبر الفضاء وحده إلى الآخرين، بل عبر الزمن. لقد كان عزاؤه بالتأكيد يتجسّد في عملية توثيق مأساته ونفخ الروح في الألم الذي يمزّق قلبه وتحويله إلى شيءٍ قابلٍ للتمرير. أليست هذه أيضًا مهمّة كل فنّان؟ أي صفع الناس على وجوههم للفتِ نظرهم إلى الحزن، لسرقتهم من لحظات سعادتهم البلهاء وطلب التعاطف مع الألم بتحويله إلى جمال؟

أليس هذا في الوقت ذاته محاولةً للسمو؟ للترفّع عن كون الفنّان إنسانًا عاديًّا؟ أليس محاولةً للتشبّه بالآلهة؟ محاولة خلق شيءٍ جديد لتكون المشاعر عابرةً للشخوص والأجساد وغير مقتصرةٍ على الفنّان وحده؟

لم أتأكّد من كل تلك التصوّرات والفرضيّات إلّا بعد تعرّفي إلى الأغنيات التي لحّنها شوبرت. في تلك الدقائق القليلة التي امتزجت فيها لغتان معًا، اللغة المحكيّة بالموسيقى. حيث صارت موسيقى شوبرت أقل تجرّدًا وأكثر قربًا إلى نفسي. كان ذلك دافعي الأوّل لبدء تعلُّم الألمانيّة. ما زلت أذكر أن أوّل الكلمات الألمانيّة التي تعلّمتها كانت كلمات أغنية الغراب(*) التي كتبَ كلماتها الشاعر الألماني فيلهيلم مولر ولحّنها شوبرت. حيث تقول كلمات الأغنية إن غرابًا يلاحق الراوي لدى خروجه من مدينته بينما يعتقد هو أن الغراب يريد افتراسه ويشرع يحدّثه كصديقٍ ويطالبه بالوفاء حتّى الموت. بعد انتهائي من ترجمة النص الألماني على أحد مقاعد ذلك الطريق الجبلي بدأت أنظر فوق رأسي، للتأكّد ما إذا كان هناك غراب ما يطاردني أنا الآخر، فلم أرَ سوى أغصان الأشجار العارية.

* * *

قمت في منتصف أسبوعي الثالث في النمسا بالتوجّه إلى مقبرة فيينا المركزية. أثناء ذهابي إلى هناك اشتريتُ ثلاث زهورٍ بيضاء، ولا أدري لماذا ثلاث، ربما ليكون الموقف مشابهًا لرحلتي إلى قبر جدي حين حملت له ولوالديّ الأزهار البيضاء الثلاثة. دخلت المقبرة التي تحوي

(*) Die Krähe.

بقايا أجساد أكثر من ثلاثة ملايين شخصٍ من المدخل رقم 2، فرأيت من بعيدٍ كنيسة كارل بوروموير المهيبة بقبّتها الخضراء وأعمدتها البيضاء. لوهلةٍ ظننت نفسي أمام تاج محل. كانت المدافن جميلةً بشكلٍ يدفع الإنسان للرغبة بالموت ليُدفن هناك. تماثيلٌ بديعةٌ في كل مكانٍ، كما كانت مدافن بعض العائلات بهيّةً جدًّا وترتفع فوقها الأسقف الحجريّة محمولةً على أعمدةٍ مزخرفة.

كان قبر شوبرت يحمل الرقم 28 وإلى يساره مدفن بيتهوفن الذي يحمل الرقم 29 في المجموعة الشرقيّة رقم (32 أ) في المقبرة: "حسنًا، هذه المرّة لن أعود والزهور في يدي"، قلت في نفسي عندما وجدتُ القبر. تأمّلت النصب الذي نُحت عليه وجه شوبرت إلى جانب امرأةٍ رجّحت أنّها كانت آلهةً يونانيةً تحملُ بيدها اليسرى قيثارةً وبيدها اليمنى طوقًا من الغار ترفعه لتتوّج رأس شوبرت به، وإلى جانبهما طفل صغير. وضعت الزهرة البيضاء الأولى بين الزهور التي كانت تزيّن القبر المهيب، ووضعتُ الثانية على قبر بيتهوفن ذي الشكل الهرمي، وقد رُسم عليه هو الآخر قيثارةً وفراشةً ذهبيتَين. المرأة ذاتها كانت مجسّدةً في تمثالٍ كبيرٍ قبالة القبرَين، إنّها على الأغلب رمز الإلهام بالنسبة إلى الموسيقيين. رحتُ أبحث بعد ذلك بين الأسماء الأخرى المشهورة عن اسمٍ أعرفهُ دون جدوى. فعدتُ بالزهرة الثالثة إلى "الكامب" حيث كنتُ أسكن. لأكون صادقًا، لقد وددت الاحتفاظ بها وحسب.

3

ابتداءً من صبيحة اليوم التالي لزيارتي المقبرة بدأت أشعر بتراجعٍ صحّي كبير. كنت أشعر بإعياء مستمر، كما كنت كسولًا لا طاقة لي على فعل شيءٍ أبدًا، وكأن شتاء تلك المدينة العظيمة كان قد استهلكني تمامًا.

فكّرتُ مرارًا بزيارة الطبيب ولكنّني تردّدت، حتّى أنّني سألتُ جاري الألباني العجوز في الغرفة، أنس، عن طبيبه، حيث كان الرجل يتردّد على العيادات لمعاناته من السكّري وارتفاع ضغط الدم.

قرّرتُ التواصل حينها مع عمّي هشام، وليتني لم أفعل. لقد علمت حينها كل ما جرى. تمَّ إطلاق سراح دارين قبل وصولي فيينا بأسبوعَين، دون طفلها. كان قد مات آدم الطفل في المعتقل، حيث وُلد. قضَت دارين بعد إطلاق سراحها أسبوعًا كاملًا في غرفتها لا تحدّث أحدًا. لم تنطق حرفًا واحدًا. حاولَت ياسمين الوصول إليّ علّني أستطيع المساعدة دون جدوى. لقد ظن الجميع بما فيهم دارين أنّني قد رحلت، وقد رجّحوا فرضيّة موتي ليلة الهجوم الكيماوي. وفي ليلة الخامس عشر من تشرين الأوّل 2013 اختارت دارين أن تعلّق نفسها بين السماء والأرض، حيث وُجدت في غرفتها منتحرة.

***

انتحرت دارين، ولم تنتظر حتّى خروج العم الياس الذي تمَّ إطلاق سراحه هو الآخر بعد عشرة أيامٍ على انتحارها مصابًا بالسلّ الذي لم يبقِه على قيد الحياة لفترةٍ طويلة، حيث توفّي قبل أن يزول ختم "سجن صيدنايا" عن معصمه.

العم الياس، ذاك الرجل البسيط النبيل، قد رحل بعيدًا، إلى السماء حيث تعانق الأرواح خيوط الشمس كل صباح. لا أزال حتّى يومي هذا أرفض فكرة موته، كما أرفض فكرة موت أصدقائي الذين رأيت جثثهم هامدةً بأمّ عينَي. لا أستطيع تصور أن تلك الوجوه الجميلة التي كانت تنبض حياةً وأملًا قد استحالت إلى عظامٍ جافّة انتفت منها كل معالم الحياة. ولكن لا، بعد الموت تختفي كل أحزاننا، وتشرق شمس السلام الأبدية، يصير كل ما تمنيناه واقعًا، وننسى كل خيبةٍ وكل دمعة. لن يكون هناك دموعٌ سوى دموع الفرح. سيموت الخوف، وسيمحق الظلم، وسنلعن من قبورنا جور هذا العالم التافه.

كان على دارين الاختيار ما بين الهرب والمواجهة. إمّا الهروب نحو الأعلى، عكس الطبيعة، وإمّا جرف كلّ ما عاشتهُ بمكنسة النسيان ورميه في وديان التجاهل ومتابعة الحياة. في هذه الحالة كان عليها التأقلم بطريقةٍ أو بأخرى مع واقعٍ فظيعٍ لا يمكن لها تصوّره، فقدان رفاق الثورة الذين توزّعوا ما بين القبور والسجون والمنافي، وتشتُّت العائلة وتغيُّر دمشق بشكلٍ كبير. ولمعرفتي بابنة عمّي، فهي لم تخلق لتتكيّف مع حاضرٍ ترفضه، بغضّ النظر عن كل ما مرّت به من صدماتٍ كافيةٍ لجعلها تختار الهروب إلى الأعلى بدلًا عن المواجهة، أو التجمّد.

تساءلتُ لأيامٍ عديدة، كيف صعدت دارين إلى الأعلى ثم تخلّت عن الكرسي الذي كان يرفعها لتستبدله بالهواء. هل تردّدت؟ بماذا كانت تفكّر في آخر لحظاتها؟ تراها كانت تفكّر بطفلها الذي سبقها إلى السماء؟ أم كانت تفكّر بالثورة؟ أم تراها كانت تفكّر بإحدى صديقاتها اللاتي تعرّفت إليهنّ في السجن؟ أم بجدوى مواصلة الحياة؟ أم بالرغبة في الغياب وحسب؟ كنت أوّد سؤالها لو سنحت لي الفرصة قبل انتحارها: "ألا يمكن الاستعاضة عن قرارك ذاك بجولةٍ في عجلة الهواء يا عزيزتي، أو بقبلة؟". هل فكّرت بعد تخلّيها عن الكرسي بالتراجع لمرّةٍ واحدة؟ لا أعتقد ذلك. دارين لا تتراجع. تعاندُ العالم في سبيل قرارها وإرادتها، ولا شكّ لدي أنّها عاندت في النهاية رغبتها الملحّة في استعادة الكرسي، في الارتفاع أكثر والانعتاق من الجاذبية التي تسحبها نحو الأسفل منهيةً حياتها، في تحريك عقارب الساعة دقائق إلى الوراء. لم تفعل!

كنت أحاول تخيّل شكلها معلّقةً بجميع الوسائل الممكنة. تارةً أبحث في الإنترنت عن صور أناسٍ معلّقين، وتارةً أحاول رسم الغرفة وكأنّني أقف عند بابها ودارين معلقة في وسطها، بقربها الكرسي المقلوب الذي ربما رفَض السقوط في بادئ الأمر. لقد كانت في كل صورها في خيالاتي ساحرةً جدًّا، إلى حدٍّ يجعلني لا أستطيع تصوّر وجهها دون روح، فكنتُ أرسمها دومًا معلّقةً من عنقها والابتسامة تعلو وجهها بينما تنظر إلى جهة باب الغرفة، حيث أقفُ. كان يصعبُ عليّ تخيُّل وجهها بملامح الموت الباردة. لم أكن أستطيع تخيُّل صوتها قد خفت، وأسكتهُ الغياب، لم أستطيع تخيّلها لا تصرخ بينما تتأرجح في فضاء الغرفة بين الأرضيّة والسقف: "حرّية".

نعم، لـم تكن تلك مشنقة لها، بل كنت أرسمها دون إرادةٍ منّي طفلةً تجلس على الأرجوحة وتطلب منّي أن أهزّها، لتشعر بنفسها حرّةً أخيرًا.

لم أتكلّم لأي إنسانٍ ولا كلمة واحدة بعد انتحار دارين. ولـم يكـن اتصال الخالة ميساء بي لإخباري بوفاة العم الياس بالنسبة إلـيّ سوى التأكيد الأخير أن ذلك الغراب الـذي حـامَ فـوق رأس شخصيّة مولر في أغنية الغراب حتّى موته في النهاية سيلاحقني إلى قبري أنـا الآخـر. كنت عند عـودتي مـن المقـبرة على يقـينٍ أن الـوردة البيضـاء الثالثـة سـتكون لقبري.

4

كان لدى شريكي العجوز في الغرفة موعد في المشفى، وقد كانت مراجعاته تلك تطول لساعات. حاول أنس مرارًا مساعدتي ودفعي للكلام، لقد كان قريبًا منّي ولكنّني كنتُ أنبذ كل محاولاته وأرفضها. فكّرت في الليلة الفائتة إن كان عليّ كتابة شيءٍ ما قبل تنفيذ ما كنت عازمًا على فعله، لكنّني لم أجد، أو بالأحرى لم أجرؤ حتى على محاولة الكتابة. نظرتُ حولي محاولًا إيجاد أي شيءٍ قد يعيدني عن قراري، لم أكن أريد الموت، ولكنّني كنت مضطرًّا لذلك. شعرتُ أن الألم لن يترك لي سبيلًا للعيش، وأنا لستُ شوبرت لأرمي به للناس، فاستسلمتُ أخيرًا، ورحتُ أتمنى ألّا يكون هناك حياة أخرى بعد الموت، رغم رفضي الداخلي لفكرة أن كل أصدقائي الذين فارقوني قد رحلوا إلى العدم، إلى اللامكان، إلى فراغٍ أسودٍ مملّ.

لم أرد الاستعجال، فصنعتُ فنجانًا من القهوة وطفقتُ أدخّن سيجارةً تلو الأخرى، وبعد مرور ساعةٍ من التدخين والبكاء حسمتُ أمري: "لا بدَّ أن تتجرّأ لمرّةٍ واحدةٍ على فعل شيءٍ أيّها الجبان" قلتُ في داخلي. لم أشعر في حياتي بالجبن كما شعرتُ به في تلك اللحظة، رغم أنّني لطالما رأيتُ نفسي جبانًا. كانت أطرافي ترتعشُ وكأن قوّةً ما قد سيطرت عليّ لمنعي من فعل ذلك. أحدٌ ما على هذا الكوكب ربما كان يصلّي ليعرقلني.

أمسكتُ الكيس البلاستيكي ووضعتُ رأسي داخله واستلقيتُ في سريري، لكن لا! كنتُ أفشل في إمضاء كامل الوقت حتى نفاد الأكسجين من الكيس. بينما كنتُ أفكّر وسط محاولتي الرابعة بأنّ عليّ أن أزيل الكيس عن رأسي قبل فوات الأوان، بدأتُ أشعر بخفّةٍ في جسدي، وكأنّني أسبح، أو أرتفع من قعر غرفة الماء التي رأيتها في الكابوس نحو السقف الذي صار بإمكاني رؤية السماء صافيةً من خلاله، وصوت دارين يقترب، لكنّها لم تكن تصرخ وتستنجد، بل تضحك. أغمضتُ عينَيّ دون إرادتي كمن غلبهُ النعاس. رأيتُ وجوههم جميعًا: أبي، أمّي، جدّي، دارين، العم الياس، فراس، ريما، عبير.

رأيتُ وجوه أطفال الغوطة تبتسم، رأيتُ المقابر وقد تحوّلت إلى مدن ألعاب، ليرتفع الأطفال عن الأرض ويتمكّنوا من العودة مجدّدًا. رأيتُ الأعمدة الخشبيّة التي تحملُ الخيام تتحوّل إلى مشانقٍ عُلّق عليها القتلة. رأيت السجون تصير معارض ومتاحف لتنبّه الأجيال بأن يتعلّموا من ماضينا، ألّا تسامح مع العبوديّة. رأيتُ نيرون يسقط، فتأكلهُ النار التي أوقدها بينما الأطفال الذين سرق حياتهم يرقصون ويضحكون ويلعبون. رأيتُ العدالة التي لن نحياها على كوكبنا هذا، هناك، في السماء.

فتحتُ عينَيّ بعد يومَين في غرفة العناية المركّزة، لم تكن إلّا خيبة أملٍ جديدة.

5

قضيتُ الأشهر الثلاثة التالية في أحد مراكز الرعاية النفسيّة وتمَّ إخراجي بعدها كـ "متعافٍ"، كما وصفني المختصّون. لقد ظنّ الجميع أن قضاء ساعاتٍ من التحدّث عن كل ما جرى لي كافيًا لمحوه تمامًا من ذاكرتي. كنت أبتلع يوميًا أصنافًا مختلفةً من الحبوب المضادة للاكتئاب والمهدّئات في محاولةٍ لعلاجي من "اضطراب ما بعد الصدمة" كما شخّصني الأطباء حينها.

عرفتُ بعد خروجي من المصحّ بأنّه قد تمَّ ترحيل أنس إلى ألبانيا، وحصلتُ في وقتٍ لاحقٍ على حقّ اللجوء السياسي في النمسا. كنتُ أود متابعة دراستي ولكنّني تكاسلتُ عن ذلك ببساطةٍ واتجهتُ إلى العمل في أحد المصانع الكبرى. لم تربطني أي علاقة صداقةٍ بأحد. أقضي الاستراحات في التدخين وعطل نهاية الأسبوع في القراءة وكتابة اليوميات والقصائد الفاشلة. أعجبتُ بالعديد من الفتيات ولكنّني لم أكوّن أي علاقةٍ مع إحداهنّ، إلّا مع واحدة.

كانت ليلةً هادئةً ودافئةً جدًّا. الدانوب ساحر، النسماتُ الصيفيّة لطيفةٌ وتبعث في نفسي شعورًا نوستالجيًّا. لم يكن أي شيءٍ يشوب هدوء ذلك المكان سوى أصوات موسيقى بعيدة، إلّا أنّها كانت تضفي على المشهد رومنسيّةً كبيرةً جدًّا. بالمناسبة، لقد كنتُ قد تغلّبتُ على خوفي من الماء أيضًا.

شرعتُ أمشي ببطءٍ شديدٍ مغمضًا عينَي أستنشق هواء الليل بعد أسبوعٍ طويلٍ من العمل. بدأتُ أسمع صوت إحداهنّ تتحدّث على الهاتف، فرحتُ أسترق السمع. لقد كانت فتاةً عربيّة، تتحدّث بلهجةٍ دمشقيّةٍ لطيفة. دنوتُ وإذا بي أرى الفتاة هناك. كانت ترتدي فستان سهرةٍ أسود قصيرًا، يُبرز رشاقة خصرها، وتنتعلُ حذاءً ذا كعبٍ عالٍ يزيد قوامها جمالًا، تبتسم بطريقةٍ أخذتني بعيدًا، فتظاهرتُ بأنّني أتجوّل في الأرجاء، منتظرًا إيّاها لتنهي مكالمتها. كنتُ مصرًّا على محاولة التعرّف إليها، شعرتُ بالانتماء إلى صوتها بشكلٍ مفاجئ. لم تنتظر الفتاة حتّى إكمال المكالمة، بل اقتربت منّي بينما كنتُ أنظرُ إلى النهر وأدخّن طالبةً منّي بألمانيّةٍ متقنةٍ ولّاعةً لتشعل سيجارتها، فأجبتها بالعربيّة بشكلٍ عفويٍ ودون شعور: "أكيد، تكرمي!" ومددت الولاعة عارضًا عليها إشعال السيجارة لها. ابتسمت لي بلطفٍ مبرزةً أسنانها اللامعة وهي تكمل حديثها على الهاتف وتستدير مبتعدة. تسمّرتُ في مكاني على أمل أن تعود، وعادت بعد خمس دقائق ووقفت بجانبي قبالة النهر:

- اسمي ليلى، وأنت؟ - قالت لي الفتاة ذات الشعر الكستنائي القصير.
- أنا آدم - قلت لها وأنا أدير رأسي صوبها.
- ساكن بفيينا؟
- إي، من تلت سنين، وأنتِ؟
- إي، بدرس هون من أربع سنين.
- شو بتدرسي؟

- ماجستير كيمياء عضويّة. أنت شو بتعمل؟
- أنا بشتغل بمعمل.
- عيونك حلوين - قالت لي.

طفقتُ أنظر إليها مبتسمًا بخجلٍ شديدٍ وأنا أهمس: "شكرًا".

- تيجي معي؟ - سألتني ليلى.
- لوين؟
- في حفلة قريبة هون.
- إي، بروح!

مشينا باتجاه الموسيقى البعيدة. كانت مجموعةٌ من النساء والرجال يرقصون التانغو. استأذنتني ليلى للانضمام إليهم. أمسكت بيد أحد الشبّان وراح يراقصها. كان يمسك يدها اليمنى بيده اليسرى بمنتهى الرقّة والحذر، ويطوّق بيده اليمنى وسطها. راحا يحرّكان أقدامهما بطريقةٍ متناغمةً، كأنما خُلقا ليرقصا هذه الرقصة معًا، ثم طفقت تدور بين ذراعَيه كالفراشة. كنت متجمّدًا في مكاني أشاهد ذلك المنظر، لا أرفع نظري عن عينَيّ ليلى العسليتَيّن ولا للحظةٍ واحدة. هي الأخرى كانت تسترقُ النظر نحوي بين الحين والآخر بغرور، حتّى حجبتني الأجساد الراقصة عن نظرها. مشيت نحو الضفّة للتدخين، جلستُ على حافة النهر وأشعلت سيجارتي. توقّفت الموسيقى بعد دقائقٍ وعلت أصوات التصفيق، شعرت بطرق كعب حذاء ليلى على الرصيف خلفي، جلسَت بجانبي وأخذت سيجارةً من العلبة التي كنت أضعها بقربي:

- بتعرف ترقص؟ - قالت لي وهي تسرح بعينيها بعيدًا.

- لا!

- ولا مرّة جرّبت؟

- لا!

- أنا ما بقدر عيش بدون رقص!

- شو السبب؟

- ولا مرّة حسّيت لما بتسمع الموسيقى إنّك حابب تحرّك جسمك معها؟ - سألتني.

- كمان لا - أجبتها باقتضاب.

- شو الفرق بين الإنسان العايش والميّت؟

- التفكير؟ الميّت ما بيفكّر.

- يمكن. بس برأيي القدرة على الإحساس هي الفرق الأكبر. الإحساس بنفسك وبالناس. وأنا بستمتع بكل شي بعمله بإحساس، ومنّه الرقص.

- كلامك حلو. بس لسّاتني مصرّ إنّه القدرة ع التفكير هي الفيصل.

- يمكن. ولكن أنا بعتبر الرقص هو هروبي الخاص من التفكير نفسه. ومن كتير شغلات تانية.

- متل شو؟

- يمكن من الملل؟ أو من الماضي؟ يمكن لحس حالي حدا عايش؟ عايش ومقبول جسديًّا من الناس؟ من الجنس الآخر بالتحديد! هيك تعوّدت بفيينا، أرمي مشاكل العالم كلّه عند أول دعسة لكندرتي عالأرض بالرقصة.

- نيّالك! أنا بحسدك.
- هه على شو؟
- لقيتي حالك بالرقص.
- وأنت؟
- أنا شو؟
- ما لقيت حالك؟
- ما بعرف.
- شو بدك من حياتك؟
- ما بعرف.
- لوين بدك توصل؟
- ما بعرف.
- شو بتعرف؟ - قالت ساخرة.
- ما بعرف شي أبدًا، أبدًا - قلت لها.
- طيّب، بما أنّك ما بتعرف شي، أنا رح كمّل رقص - قالت وهي تنهض.
- وأنا؟ انتظرك ولّا روح؟
- إذا بدّك روح - قالت لي بتعجرف.
- طيّب!

انضمّت ليلى إلى الشاب الأشقر الذي كان ينتظرها على طرف ساحة الرقص الزجاجيّة، ومضيتُ أنا مبتعدًا بحزنٍ لكوني لم أستطع الإجابة عن أيٍّ من أسئلتها، بينما ترتفع الموسيقى خلفي وتشتعل أضواء المنصّة من جديد.

6

تمتدّ الأيادي إليّ من جميع الجهات، أيادٍ كثيرة، ترفع عني غطائي وتسحبني من سريري بقوةٍ وفظاظة. لقد انقضّوا عليّ كما ينقضّ قطيع من الذئاب الجائعة على أرنبٍ صغير لا يكاد يقوى حتّى على محاولة الهرب ولا يكاد بلحمه الضئيل وجسده النحيل يشكّل حتّى وجبةً خفيفة لثعلبٍصغير. فتحت عينَيّ على وقع أولى الصفعات لأرى وجوههم تحدّق بي بتغطّرسٍ وغبطةٍ كما لو أنهم بحثوا عني عقودًا. كانوا كلّهم بوجهٍ واحد. يحملون الملامح ذاتها، يملكون وجه الجزّار المجرم ذاته. حاولت الإفلات بحركةٍ سريعةٍ ثم ما لبثت أن قرّرت الاستسلام لمصيري بعد أن سلّمت بعبثيّة المقاومة، فالتمسّك بالحياة لم يخلق لأمثالي.

كم أكره ضعفي! كم أكره أنّني هشٌّ إلى درجة لا أرغب معها حتى في الدفاع عن نفسي أو الصراخ، أو حتى استجداء الرحمة. كان الكره ذاته الذي كنت أضمره لنفسي عندما كنت طفلًا. كنت أكره المرايا جدًّا ولكن وجوه هؤلاء الوحوش كأنها كلها مرايا. مرايا تعكس شكلي وتعيد إلى مخيلتي صورة ذلك الطفل الهزيل الذي لا يقوى على شيء، لا على مواجهة تنمّر الأطفال، ولا على التذمّر من ضرب مدير المدرسة له، ولا حتى على البوح بعدد المرات التي تعرض فيها لمحاولات التحرّش الجنسي من قبل البقّال في الحي والبستانيّ صديق جدّه.

عرّوني من ملابسي، فظهرت الوحمة التي ولدتُ بها على صدري ورقبتي، الندبة الحمراء الكبيرة التي تشبه وردةً جوريّة. تلك العلامة التي أكرهها والتي طالما خبأتها عن أعين الناس. جرّوني من سريري إلى باب الغرفة جرًّا بينما أنظر نحو الخلف إلى طاولتي العجوز التي أحبّها جدًّا والتي ابتعتها من متجرٍ للأثاث المستعمل. دائمًا ما أتخيل أن تلك الطاولة البالية تعود لفريدريش شيلر قبل أن تباع في مزادٍ علني ليتناقلها الناس حتى وصلت إلى غرفتي الصغيرة هذه. لطالما تخيّلت أيضًا أن شيلر كتب على هذه الطاولة قصيدته الشهيرة "إلى السعادة". لقد قضيت معظم وقتي منذ سكنت هذا المنزل وراءها. في تلك الأثناء صعدَت كمنجات موسيقى بيتهوفن بفخامةٍ مهيبة، وسمعت صوتًا عجوزًا يغنّي كلمات القصيدة بصوت عريضٍ بشكلٍ سريعٍ وأقرب ما يكون إلى العويل منه إلى الغناء:

"انعتاقٌ من قيود الطغاة

كرمٌ حتى للشرير

أملٌ على أسرّة الاحتضار

عفوٌ في المحكمة الأعلى

يجب أن يحيا حتى الموتى!".

ولكن هذا الانعتاق اليوم هو انعتاق العالم من التكلُّف والنفاق والمجاهرة أخيرًا بحقيقته القبيحة. هو فناء الذئب الذي طالما ادّعى أنه حملٌ وديعٌ، وظهور وحشٍ لا مشكلة لديه مع أنيابه وإظهارها إطلاقًا. هو انعتاقي من قيود التظاهر والأمان الكاذب إلى أحضان الطغاة. ولا

أمل اليوم، عزيزي شيلر، فقد صارت كل الأسرّة توابيت. وسيموت كل البشر الأحياء عارًا. عذرًا يا شاعري، طاولتك اليوم هي الشاهد على خيبتك. "إلى أين ستصير هذه الطاولة يا ترى؟" سألتُ نفسي.

وقعت عيناي بعدها على دفاتر يومياتي الكثيرة التي أداوم على الكتابة فيها كل يوم. أعاملها كحبيبةٍ تسهر معي كل ليلةٍ لأحكي لها عن الأشياء ذاتها التي أعيشها كل يوم بالتفصيل وبالتسلسل نفسه. ستُحرق هذه الدفاتر على الأرجح أو سترمى على رصيفٍ متّسخ، تتقاذفها أرجل المارّة أو تبعثرها رياح النسيان التي ستعصف بي أنا الآخر بعد قليل، كحال مذكّرات جدّي. وقع نظري على أوراقي المكدّسة التي تضمُّ كل محاولاتي الأدبيّة الفاشلة، حيث كتبت عن الغربة والوطن، عن زوايا اليأس الضيّقة وواحات الأمل الرحبة، عن جنّة الحب المتخيّلة وجحيم الوحدة. عن الثورة وسقوطي الأول من السماء وكل المرّات التي سقطت فيها بعدها. حيث دوّنت كل كرسيّ توقفت عنده للاستراحة وتدخين سيجارة. حيث كتبت عن كل فتاةٍ قابلتها وكل العاشقات العابرات. حيث رسمت بكلماتي الفجّة كل لحظات الهروب من الموت الذي أساق إليه الآن كنعجةٍ كهلةٍ يعجّل بنحرها قبل أن تقتلها مرارة الخذلان.

ألقيت نظرتي الأخيرة على الجدران الصفراء التي علّقت عليها صور رفاقي الراحلين لأنظر إلى عيونهم كلّما اقتربت من الاستسلام خطوة. نظرتي الأخيرة على سريري الذي احتوى جسدي المنهك كل ليلة والذي تحوّل رويدًا رويدًا إلى مرتعٍ للكوابيس ونوبات الجاثوم

والهلع. كان ذلك السرير يطردني في كل صباحٍ، ويعود في المساء لاستقبالي بعبوسٍ وتململ. نظرتي الأخيرة على شرفتي الصغيرة جدًّا حيث اعتدت كل صباح على شرب نصف فنجان قهوة وتدخين سيجارتين قبل مغادرة المنزل.

رمقتُ للمرّة الأخيرة حقيبتي السوداء، صديقتي السرمديّة الوفيّة، التي ستصير يتيمة وحزينة، كسفينةٍ اغتيل ربّانها للتوّ. كانت مرميّةً كيفما اتفق على الأريكة المزدوجة الزيتيّة التي بدت لي للمرة الأولى في حياتي بأنها مريحة وجذّابة، فسألت نفسي باستغراب: "لماذا لم يخطر لي ولو لمرة أن أجلس عليها؟".

أجبروني على أن أجثو على ركبتَيّ بعد أن قيّدوا يدَيّ خلف ظهري، رفعت رأسي بعدها فرأيت اثنين منهم ينقضّون على أثاث الغرفة وينبشونه بحثًا عن شيءٍ ما دون أن يبدو عليهم أنهم يبحثون عن شيءٍ معيّن. بدت حركاتهم بطيئة، إلّا أنها عبثيّة وعشوائيّة. لمعت عندها في رأسي فكرة أن أطلب منهم أن آخذ معي ولو شيئًا واحدًا من هذا المنزل، فشرعتُ أفكّر ماذا عساي أطلب! للمرة الأولى بدأت حقًّا بالتفكير في قيمة الأشياء بالنسبة إليّ بعد أن كان وجودها مجرد أمرٍ بديهيّ قد سلّمت به دومًا، ولكن الأهم والذي آلمني أكثر كان بديهيّة غياب الكثير من الأشياء ذات القيمة بالنسبة إليّ. راودني أنّني في حياتي لم أقتنِ ما كنت دائمًا أحلم باقتنائه بالإضافة إلى أنّني لم أجهد نفسي يومًا للحصول عليه. فأنا لم أجد خلال رحلة تمحيصي للغرفة أي شيء ذي قيمةٍ أطالب بأخذه معي، لا سيما أن الطلب قد يكلّفني لكمةً إضافيّةً على وجهي. فكّرت مليًّا في الكتب. قد أوّد أخذ أحدها معي،

ولكن ما الفائدة من ذلك الآن؟ جدّي تخلّى في السابق عن مكتبةٍ برمّتها طوعًا، ربما لأنه أدرك عبثية وجود كل شيء كما أدركه أنا الآن. كانت الكتب تلك وادعةً ومسالمة تشبهني، مستسلمةً لمصيرها مثلي تمامًا. فكرت في أن الكتب، على النقيض منّي، تمتلك دافعًا نبيلًا للهرب، فهي لديها ما تقدّمه للبشريّة. لكنها لا تفعل، بل تنصاع لأيادي الهمج الذين لم يقرأوا في حياتهم حرفًا واحدًا. لم تبدُ لي مذكراتي وأشعاري شيئًا ذا قيمة، رغم أنني كنت أعتدّ بها في يومٍ من الأيام. ثم لفّني الحزن واغتممت لفكرة أنّني لا أملك ما هو قيّمٌ أبدًا. لقد كنت غريبًا تمامًا، لا آلفُ شيئًا ولا أعتاد على شيءٍ أو أحد. أقضي وقتي كله في استرجاع ذكريات الألم وكارثة خسارة الوطن. أقارن كل خسارةٍ صغيرةٍ بفجيعتي تلك، فيهوّن ذلك الأمر عليّ، حتى فقدت كل شعورٍ بما هو حولي وانفصلت عن واقعي لأعيش الكمال في عالمٍ وهميٍّ بعيد، بعد أن شعرت أن عالمي هذا قد أثخنه النقص وقد بصقني بعيدًا، بعد أن مضغني تحت أضراسه المتسوّسة والمتعفّنة.

هذا إذًا ما كانوا يبحثون عنه؛ جواز السفر، وزر الميلادِ الذي نحمله معنا من أوطاننا البعيدة وراء الحدود والبحار، أوطاننا التي لم تتسع لنا سهولها ولا جبالها التي أنشدنا لها ليل نهار، فرمتنا وراء الآفاق السحيقة. جواز السفر الأزرق إذًا، هذه التهمة الملتصقةُ بنا أينما ارتحلنا. كان الشيء الوحيد الذي حملته معي من وطني إلى منفاي هذا. سيحتاجونه بالتأكيد لإعدامي بضميرٍ راضٍ، فهو الدليل الوحيد ضدّي، وهو الذي سيضفي على جريمة قتلي كلّ الشرعيّة، وسيصمت العالم عن استنكار إعدامي بمجرد إلصاقهم له على جبيني.

أخرجوني إلى الطريق، كانت الشمس لم تشرق بعد وكان الشارع مضاءً بمشاعل ناريةٍ منتصبةً على طرفَيه في جوّ جنائزي. على طرفَي الدرب اجتمع أناس من رجالٍ ونساءٍ بملامحَ متنوعةٍ جدًّا، شرقيون وأفريقيون وأوربيون وآسيويون. كانوا يراقبونني بصمت بينما أُجرّ إلى المجهول. كانت تبدو على وجوه بعضهم مشاعر الأسى والامتعاض، بعضهم كان يبدو غاضبًا وكثيرون كانوا يبتسمون ببلاهة، كأنهم انتصروا لتوّهم على عدوٍّ طالما أرهقهم. كانوا منقسمين في نظري بين النوعَين الوحيدَين من البشر اللذين أستطيع التفريق بينهما، الطيبين والأشرار، الأبيض والأسود. لم أعرف الرمادي في حياتي أبدًا. لقد كان اللون الرمادي يذكّرني بجدّي، يذكّرني بقبعته الصوفيّة، بخيبته وحزنه، وموته!

بدا الشارع طويلًا جدًّا لا أستطيع أن أرى نهايته، وكذلك الناس المصطفّون. كان طرفا الطريق كمزرعةٍ من الرؤوس اللامعدودة، عددٌ لا يُحصى من الجماجم المطأطئة! كان ذلك المشهد تراجيديًّا حد العويل.

لربما كان سيقتلني الشعور بالخذلان لو أنّني كنت أنتظر تعاطفًا من هؤلاء الناس. ولكن الأمر بالنسبة إليّ سيّان. كان ذلك الموقف هو التأكيد الأخير على أن الجنون قد استفحل في هذا العالم، حتى قضى على صواب البشرية تمامًا، فابتسمت بدوري ابتسامة المنتصر، فأنا لم أؤمن بذلك الجنس قط، ولم أكن أنتظر منه شيئًا آخر.

بعد ساعاتٍ من المشي كانت الشمس قد بدأت تصعد من خلف أُفُقٍ أسود، شمسٌ قرمزيّة بلون الخمر. فوجئت برجلٍ أسمر طويل القامة ونحيل الجسم، يرتدي قميصًا أبيض فضفاضًا، يتناول حصوةً من

الأرض ويرميني بها ويتبعها بشتيمةٍ هزّت كياني. كنت كلّما تقدمت في المشي ازداد عدد رماة الحصى التي كان يزداد حجمها تدريجيًّا هي الأخرى. ثم ما لبث أن أصبح كل الحاضرين تقريبًا يرمونني بحجارةٍ مختلفة الأحجام. هكذا انساب كثيرٌ من البشر في ليلةٍ واحدةٍ من حلف الطيّبين إلى حلف الأشرار. رغم شعوري بالدوار وسيلان الدم على عينَي، إلّا أنني بدأت ألمح نهاية الطريق تلوح من بعيد. نقطةً ما بعيدة لا جماجم فيها. اغتبطّتُ للحظة، فهذا يعني توقف سيل الحصى الذي يكاد يقتلني. أجلتُ نظري حولي وتفرّست في وجوه الأشخاص المختلفة. فجأةً عاد ذلك الصوت العجوز ذاته يغنّي متابعًا قصيدة شيلر بشكلٍ صار يشكّل مع وقع الحصى سيمفونية قاتلة:

"ساعة وداعٍ صافية
ونومٌ هانئ في الكفن
إخوتي، وجملةٌ ناعمة
تخرج من فم قاضي الموت".

رويدًا رويدًا ومع اقترابنا من نهاية الطريق اللعين صارت تُسمع صرخات بعيدة يزداد وضوحها وحدّتها بالتدريج أيضًا. كانت صرخات أناس يتم ضربهم وتعذيبهم، أصوات نساءٍ ورجالٍ وأطفال. منهم من يصرخ ومنهم من يبكي ومنهم من يتوسّل. ثم لاحت لافتةٌ من بعيد كُتب عليها بالخط العريض: "مملكة الموت ترحب بكم".

* * *

صحوتُ على صوت منبّهي لأجد أنّني بلّلت فراشي بعرقي. سعدتُ لكون كل ما حدث مجرد كابوسٍ انتهى عند فتح عينَيّ للتو. جلستُ على حافة السرير ونظرت حولي بتمعّن. تأملت رفَّ الكتب والطاولة والكرّاسات والأوراق والشرفة والجدار، لأجد كل شيءٍ على ما كان عليه بالأمس وأمس الأول، ولكن في عينَي لم يعد شيءٍ على ما كان عليه.

غسلت وجهي بماءٍ دافئ ثم توجّهت إلى طاولتي وبدأت بقراءة مذكراتي، وعندما وصلت إلى الصفحة الرابعة كانت القهوة قد فارت. قررتُ لسبب ما التخلُّص من تلك المذكرات والتوقّف عن كتابتها نهائيًا. كانت لدي رغبة بالتخلُّص من كل الأشياء التي لم أجد فائدة من أخذها معي إلى الموت في كابوسي. شعرت بأن الأشياء التي لا نرغب بأخذها معنا إلى كل مكان، وإلى المكان الأخير بشكلٍ خاص، لا قيمة لها على الإطلاق. ولكن، جدّي كان قد احتفظ بمذكراته حتّى النهاية، حتّى عندما تخلّى عن كل شيء.

تناولت حقيبتي بعد أن بدلت ملابسي سريعًا وخرجت من المنزل دون شرب القهوة كالمعتاد. لم أرد إلّا الهروب من الغرفة فقط، الهروب وحسب. كانت الشمس ساطعة بخجل، تختفي بين الحين والآخر خلف غيومٍ رماديةٍ تلبّد السماء. لقد قرّرت تناول القهوة في الخارج، أي في الشارع. الساعة كانت قد شارفت على العاشرة. بدت لي فيينا غريبةً أكثر من أي وقتٍ مضى. ينتشر على أطراف الطريق عازفون متجوّلون وفِرق موسيقية متواضعة تحرّك أيديها على الآلات دون مشاعر، ولا

تبدو على وجوههم أية ملامح، ومسنّون يرتاحون على كراسٍ خشبيّةٍ، منهم من يسند ذقنه على عكازه بملل ومنهم من ينبش جيوبه بحثًا عن شيءٍ ما. أعاد ذاك المشهد تذكيري بكابوسي الذي عانيت منه الليلة الفائتة فرحتُ أتأمّل كل شيءٍ محيطٍ بي في محاولةٍ مني لمقاربة المشهدَين، حتّى اصطدمت بسيدةٍ شقراءٍ في منتصف العمر. بالرغم من اعتقادي أنّني أنا المسؤول عن الاصطدام لشرود ذهني، لكن السيدة الجميلة ابتسمت لي واعتذرت بلطفٍ وتابعت طريقها. هنا كان عليّ التفكير، هل كانت سيدةٌ كهذه لتقف صامتةً على طرف الطريق بينما يتم اقتيادي إلى المقصلة؟ أعتقد أنها لن تكون من رماة الحصى ولكنها في أحسن الأحوال ستكون ممن يظهرون التعاطف بصمت. لا أعتقد أنها ستفعل شيئًا آخر. ففي مواقفَ كهذه وعندما يصمت معظم الناس وينقسمون بين جبانٍ ومتخاذل، يرضخ الطيبون القلائل للصمت بدورهم ويكتفون بالتعاطف الساكن.

أعادني الموقف مع تلك السيدة إلى صوابي بعض الشيء. ربما نحن نعيش في عالمٍ مجنونٍ صنع منّا غرباءً رغمًا عنّا. لربما ضاقت بنا السُّبُل إلى مكانٍ يؤينا ويحتضننا بآمالنا وأحلامنا وخيباتنا، ولكن العالم لا يزال يحتوي على الطيبين أمثال من كانوا يراقبونني بأسىً في كابوسي وأمثال تلك السيدة الجميلة، ولو أنّهم كانوا مسلوبي القدرة على التغيير أو التدخّل أو المساعدة في اللحظات العصيبة، ولكنّهم لم يرمونا بالحصى أو يبتسموا بنشوةٍ بينما نُقاد إلى مصيرنا. لربما كانت تلك السيدة أيضًا شاردة الذهن عندما اصطدمتُ بها وهذا ما دفعها إلى

الاعتذار منّي. تراها قد عانت هي الأخرى من كابوسٍ مشابهٍ بالأمس؟ ولكن لماذا تخشى سيدةٌ أوروبيةٌ سجّانًا ومقصلة، أو رماة حصىً متخاذلين؟ كانت عيناها تبدوان في قمّة تألقهما وجمالهما وبشرتها صافية كما لو أنها قد نامت طوال الليل دونما شيء يكدّر صفوها.

حملتُ كوب قهوتي البلاستيكي وجلستُ على أحد المقاعد الخشبيّة في حديقةٍ عامةٍ ورحت أراقبُ المارّة باهتمامٍ وأفكر في ما إذا كانوا يمشون إلى وجهاتهم بملء إرادتهم أو يُساقون إليها بشكلٍ أو بآخر كما حصل لي في الكابوس. هل اختاروا حقًّا الذهاب إلى حيث يمضون؟ أم دفعتهم إلى ذلك مقصلة الفقر والجوع والاحتقار الاجتماعي؟ أنا على قناعةٍ بأن لكلّ شعبٍ وكل أمّة وحتى لكل فردٍ مقصلته الخاصة التي تلاحقه في كوابيسه وتؤرق أجفانه ويقضي حياته يركض أمامها بينما تطارده بلا هوادة. قد تكون الملاحقة الأمنيّة، قد يكون الجوع، قد يكون الملل، وقد تكون الوحدة. كلها قاتلةٌ وتهدّد رقبة الشخص. الحرب والملاحقة الأمنية وخشية السجن؛ كلها رمت بي هنا، وراء البحار. وقد تكون مقصلة الفقر أو النبذ الاجتماعي قد رمت بأحد هؤلاء المارّة وراء مكتبه الذي يكرهه بالقدر نفسه الذي أكرهُ به غربتي هذه. قد تراود الحواجز الأمنيّة وأشكال التعذيب التي تقضّ مضجعي هؤلاء أيضًا، تتلوّن وتتشكّل بأشكالٍ أخرى في كوابيسهم، وقد أكون للبعض، أنا نفسي، الكابوس الذي يؤرق نومهم!

7

بحثتُ عن ليلى طوال الأشهر التالية. فجأةً تحوّلت فيينا بنظري إلى مدينةٍ ضخمةٍ من السهل أن تضيّع أحدهم فيها، بعد أن كنتُ أراها حفرةً صغيرةً من الملل والبؤس. شعرتُ بأنّني للمرة الأولى منذ زمنٍ بعيدٍ لا أعيشُ عبثًا، بل لدي هدفٌ ما، إيجاد ليلى. هكذا تحوّلت حياتي ببساطةٍ إلى حلقاتٍ طويلةٍ من البحث المضني عن شخصٍ لم أعرفه إلّا لبضع دقائق.

كم مرّةً وقعتُ في الحب خلال ربع القرن الذي أتممته على سطح هذا الكوكب؟ لطالما بحثتُ عن جوابٍ لهذا السؤال، وكنت دائمًا أصل إلى إجاباتٍ متضاربةٍ وغير مرضية، فإمّا أنّني كنت قد وقعت في الحب عشرات المرات من قبل، وإمّا أنّني لم أعرف عنه شيئًا إطلاقًا. لقد شعرتُ بالحب تجاه دارين في فترةٍ من الفترات ولكن لم ألبث أن غيّرتُ موقفي وصرت أرى فيها الأخت الكبرى والقدوة والمرشدة. ثم جاءت ريما التي عجزتُ عن تحديد مشاعري نحوها حتّى بعد رحيلها. ثم قدّمت لميسون كل ما يقدّمه العاشق لمحبوبته دون أن أشعر تجاهها بالحب. وقد أغرمت في فيينا بعشرات الفتيات؛ طبيبتي في المصحة، جارتي في المبنى المقابل، النادلة في المقهى الذي أحبّه، زميلتي في العمل، موظفة دائرة الأجانب التي لم أرَها تضحك يومًا، وعشرات

عابرات السبيل، وفي كل مرّةٍ كنت أظن نفسي قد وقعت في الحب إلى الأبد، ثم لا تلبث عيناي أن تريا امرأةً أشد فتنةً من سابقاتها، فيتلهّف قلبي للحديث إليها، دون أن أجرؤ على الإقدام على ذلك.

صرتُ أخرجُ يوميًّا من عملي إلى البيت لأستحمَّ ثم أنطلق مرتحلًا بين أزقة فيينا وعلى ضفاف الدانوب باحثًا عن حبّي، عن ليلى بالتحديد. اكتشفتُ في تلك الفترة مدينةً عظيمةً وأظن أنّني حفظتُ أشكال وجوه الكثير من السكّان والسيّاح، فقد كنتُ أنظر في كل وجهٍ على حِدة، على أمل أن يطلَّ وجه ليلى بين الجموع الغفيرة طالبةً منّي ولّاعة. كنتُ كمن يفتّشُ عن وطنه بين كومةٍ من الأوطان الغريبة والتي لا تعني شيئًا له أبدًا. كان لقاء عينيها وحده سينهي مأساتي تلك لأحكي لها عن كمّ الرسائل التي كتبتها لأجلها. لأقول لها إنّني أريد منها أن تساعدني لأجد نفسي، لترافقني في جولة رقصٍ عشوائيٍّ ليس الهدف منها سوى التخلّص من شعوري بأنّني مشلول، بأن الماضي يقيّدني، وكوابيسه لا تتركني وشأني.

ذات مساء هادئ مررتُ بحفل تانغو يُقام على رصيفٍ وسط فيينا. طفقتُ أحدّق بالسيدات بشكلٍ يثير الريبة غالبًا. لقد كنتُ أريد أن أجدها وحسب. خِلتُ أنّني رأيتها تبتسم لي وسط الجمع الغفير مادّةً يدها لي تدعوني للرقص. سرحتُ بأفكاري أكثر. كنت أراقصها بشكلٍ احترافي. ألتصق بها إلى درجةٍ أتمكّن معها من الشعور بأنفاسها الدافئة، وقبل أن أغرق في أحلامي تلك، بدأ الرجال والنساء التصفيق من حولي، فمضيت.

* * *

لقد كان لدي صديقٌ يكبر مع الوقت ويوطّد علاقته بي شيئًا فشيئًا، اسمه الملل. كنت كمن تاه في جحيمٍ من العذاب حتّى اعتاد عليها. صرتُ أنسى أحيانًا أن أبحث عن ليلى عندما أخرج للبحث عنها، فتراني أصارع الطرقات وأصبر على المشاهد المكرّرة حتّى ينتهي اليوم وأقفل عائدًا إلى منزلي بخفي حنين. هو شيءٌ متعبٌ حقًّا أن تعتاد الفشل، وتخرج إلى رحلتك للبحث عن حلمك دون أي أملٍ بإيجاده، حتّى تصبح رحلاتك المستمرّة تلك اعتياديّةً وغير ذات معنى وتتحوّل إلى واجبٍ أبله لا تدري ما يدفعك إليه، كحكمٍ بـ "البحث" المؤبّد.

لم أستطع التحكّم بمشاعري في ما يخصُّ ليلى. سألتُ نفسي عشرات المرات، لماذا أتعب نفسي في البحث عن فتاةٍ، ربما لم تعد تسكن هذه المدينة، أو ربما لم تكن موجودةً يومًا فيها ولا في أي مكانٍ آخرٍ على وجه الكوكب أصلًا، عن فتاةٍ ربما لا تذكر حتّى اسمي أو شكلي، عن فتاةٍ لا أعرف عنها سوى القليل، وأنّها تعتبر الرقص هو ما يميّز الإنسان الحي عن الميّت.

لم أكن أعرف الكثير عن تلك الفتاة ولكنّني كنت أعرف أنّني أنتمي بطريقةٍ ما إلى عينيها، وكلانا ينتمي إلى الحزن ذاته، والحلم المتهشّم ذاته. "لا يمكن أن يكون ما أشعر به تجاه تلك الفتاة حبًّا!" قلت في نفسي مرارًا وتكرارًا. ربما وجدت ما أبحث عنه، دراما جديدة تكسر ملل الحياة الغربية الرتيبة، فتاة أحلامٍ أكتب لها وأتخلّى عن الكتابة لبطلات الأفلام والروايات والشخصيّات التي أتخيّلها، وعابرات السبيل اللاتي أقع كل يومٍ في غرام إحداهنّ دون أن تكون قد ألقت بالًا

لي. كانت تلك الليلة بمثابة انتعاشٍ شعوري بكينونتي كإنسان، بمثابة بعثٍ جديدٍ لرغبتي في الحب، في تبادل الكلمات مع شخصٍ آخر، وربما في الحديث عن حزني وانكساراتي الكثيرة.

أثناء جولةٍ اعتياديّةٍ في شوارع فيينا ذات مساء، رحت أتمشّى بالقرب من كنيسة القدّيس بطرس، وإذا بي أُفاجأ بقطٍّ ضالٍ يدور في الأنحاء. كان ذلك المشهد كفيلًا لكي تنتكس حالتي مجدّدًا، بعد أشهرٍ ظننت فيها أنّني تحسّنت. كان كفيلًا بإعادتي إلى تلك الليلة السوداء في الغوطة. بدأتُ أحاول جاهدًا مقاومة نوبة "الفلاش باك" التي كنت قد تخلّصت منها إلى حدٍّ ما. نظرتُ حولي فلم أرَ أبنية فيينا الضخمة. لم أجد السيارات الكثيرة التي كانت تحيط بي. لم أعد أشعر بأنّني ما زلت متسمّرًا في مكاني، أمام الكنيسة. تحوّلت أصوات السيارات إلى صفارات إنذار، وأضواء المدينة إلى نيران صواريخ تنهمر، وهواؤها العليل إلى سارينٍ قاتل. كانت المدينة تضيق وتضيق، كأن الأبنية تقترب منّي شيئًا فشيئًا، ثم تنهار بحجارتها فوق جسدي. رحتُ أركض مختنقًا، أرجو الهواء، أرجو التنفّس. رحتُ أحاول الهروب، وما أصعب أن يسمّمك الهواء الذي تتنفّسه. ممّن تريد الهرب؟ أتهرب من نفسك أم من العالم؟ كيف ستهرب من نفسك وذاكرتك مثقلة بالخيبات والألم؟ كيف ستهرب من نفسك والنسيان مستحيل، وكيف ستنسى وأنت ما زلت أنت، وما زال كل ما في هذا العالم كما كان؟ كنت في الحقيقة أمشي، لكن الطريق أمامي كانت يتقلّص ونهايته تقترب بسرعةٍ كبيرة. ضوءٌ ما اقترب منّي، ولم أستفق حتّى تحوّل الشارع بفعل أصوات سيارات الشرطة والإسعاف إلى ما يشبه مسرح جريمة.

8

طبعًا لم يكن الرجل الذي صدمني بسيّارته يُلام أبدًا. أنا من كنت في حالةٍ من فقدان الوعي والسفر عبر الزمن كادت تكلّفني حياتي. لم أجرؤ على الاعتراف بذلك بل أصرّيت على قولي إنّني كنت مرهقًا من العمل وأريد الوصول إلى المنزل للنوم. أمضيت يومَين في مشفى الجامعة في فيينا وكانت إصاباتي تقتصر على بعض الرضوض والخدوش، إلّا أن أثرها الداخلي كان أعمق بكثير، فقد صرت أخاف الخارج، أخشى فيينا، وأمقتها.

شعرت أنّني لدى خروجي سأعود إلى الروتين القاتل ذاته في البحث عن شيءٍ ما، بالأمس كانت ليلى، غدًا، من يعرف ماذا يكون؟ لقد كانت حلقةً مفرغةً تهت فيها، منذ غادرتُ الغوطة. أنا أحب اللغة الألمانية جدًّا. مصطلح الحلقة المفرغة يقابله بالألمانية تعبير (Teufelskreis) وترجمته الحرفيّة: "دائرة الشيطان". قد أصاب الألمان قلب المعنى بهذا التعبير. حالي هذا يشبه حقًّا دائرةً يسكنها الشيطان ويوهمني بأنني إذا ما واصلت الدوران قد أصلُ إلى هدفٍ ما أو أنني قادر على الخروج من هذه الدائرة. فأدور وأدور وأواصل الدوران ولا أشعر أنني أعود في كل مرةٍ إلى نقطة البداية. وكم ماتت أحلامٌ وفنيت آمالٌ بينما أصحابها يطاردونها في دائرة الشيطان تلك.

ولكـن، لقـد كـان مـن السـهل أن أصـبح فجـأةً ممتنًّـا لأوجـاعي ورضوضي تلك، وللرجل الذي صدمني أيضًا. عند صبيحة اليـوم الثاني لي في المشفى أردتُ النزول للتدخين بعد أن تناولت الفطور. لقـد كنـتُ أشعرُ بتحسّـنٍ إلّا أن الطبيـب رفـض أن أخـرج إلّا في حـال تـوقيعي علـى ورقةٍ بأنّني خرجت على مسؤوليتي الخاصة، فجبنت. لجبنـي وللطبيـب ممتنٌّ أنا أيضًا.

تنبّهـت لـدى اقترابـي مـن الزاويـة الخاصـة للمـدخّنين لوجـود فتـاةٍ هناك، ولكن ليلى لم تخطر لي على بالٍ أبدًا. كان شعرها قد صار أطول. لم يلفت قدومي انتباهها فاقتربتُ منها بقلبٍ مرتجفٍ وعينَين سعيدتَين: "هل لي بولّاعة يا سيدتي؟" قلت لها بالألمانيّة مبتسمًا:

- آدم؟ شـو عـم تعمـل هـون؟ خيـر شـبها إيـدك؟ - قالـت وهـي تقترب منّي.

"إذًا، لم تنسني! لا تزال تذكرني! يا لسعادتي!"، فكرت في نفسي ثم أجبتها بابتسامةٍ حقيقيّةٍ جدًّا:

- ما في شي. حادث بسيط. وأنتِ شو جابك لهون؟
- عم زور رفيقتي. شو هالصدفة الحلوة؟
- آخر شي كنت متوقّعه إنّي شوفك هون!
- ليش كنت متوقّع تشوفني مرّة تانية؟ ووين كنت متوقّع تشوفني مثلًا؟
- ما بعرف. الدنيا صغيرة. ع الدانوب أو بشي حفلة تانغو. كنت أوقف عطرف المنصّة وحاول لاقيكي بين الناس، بس ما كنت

شوفك، فأرجع خايب. بس كنت مفكّر إنّه إذا ما شفتك بفيينا ممكن شوفك شي يوم بالشام!

- أوف. لهي الدرجة؟ - قالت بسخرية.
- إي.
- من زمان ما رقصت. كنت مشغولة بالدراسة ومرّت عليّ ظروف صعبة.
- طيب ما رح تعطيني قدّاحة؟ - سألتها مبتسمًا.
- معك قدّاحة - قالت ضاحكة.

صمتنا لبرهةٍ ثم استأذنتني للذهاب، فانبريت سائلًا إيّاها بشوق:

- ممكن شوفك مرّة تانية؟
- هممم. ممكن.
- طيّب بتعطيني رقمك وبس أطلع من هون وأتحسّن بحاكيكِ؟
- طيّب.

أعطتني رقمها وأنا أقاومُ ابتسامة الفرح، ثم مضت. أردتُ الصراخ. شعرت بسعادةٍ غامرةٍ لا توصف، ربما لم أشعر بها في حياتي من قبل. بدأت أعدُّ الثواني والدقائق لكي أخرج من المستشفى. صرتُ أكثر حيويّةً ونشاطًا وصار وجهي أكثر إشراقًا، وأدركت حينها، كم هي واهيةٌ أحزاننا على عظمتها، أمام الحب.

9

التقيتُ بليلى وتوجّهنا إلى مقهىً قريب تعرفه دون أن ننبس ببنت شفة. كان الجو في مقهى "لانتمان" وسط فيينا رائقًا جدًّا ذلك المساء. كل ما يحيط بنا يوحي بالأبّهة والعظمة، إلى حدٍّ أكرهه، ولكنّني أكذب إن قلت أنّه لم يعجبني. كان واضحًا أنه مقهىً للنبلاء، وكانت ليلى هي من اختارت المكان. جلسنا على أريكتَين متقابلتَين أمام طاولةٍ قرب نافذةٍ صغيرةٍ تطل على الترّاس، وكان على رخام النافذة ورودٌ ذات أوراقٍ كبيرةٍ كرزيّة اللون. خلف ليلى كان مصباحٌ ذو ضوءٍ برتقالي، يرمي أشعّته على ظهرها، فيملأ ظلّها الملاءة البيضاء التي تغطّي الطاولة. جلستُ أمامها ولم أنطق بكلمة، أو بالأحرى، عجزتُ عن النطق. بعد عدّة دقائق تكلّمت ليلى أخيرًا وأنقذتني من غرقي في صمتي ذاك:

- إيه؟ كيف صرت؟
- أحسن! أنتِ كيفك؟
- أنا منيحة - قالت وهي تبتسم لي كما تبتسم صبيّةٌ لطفلٍ صغير.
- ورفيقتك؟ تحسّنت؟
- إي كويسة.
- ممتاز!

عدتُ لصمتي مجدّدًا، فعادت ليلى بعد ثوانٍ لإنقاذي:

- شو حابب تشرب؟
- قهوة. وأنتِ؟
- شاي النعنع.

طلبنا المشروبَين ثم أطلنا النظر بخجلٍ في أعين بعضنا. أردت أن أقول لليلى إنّني لم أنفكّ أفكّر بها منذ اليوم الذي رأيتها فيه على النهر، ولكنّني جبنتُ كعادتي.

- أكيد ما طلبت منّي موعد لحتّى تسمّعني سكوتك صح؟ - قالت بغطرسة.
- لأ. بس متوتّر شوي.
- ما في داعي. قول اللي بدّك، ما رح آكلك! - عادت لتخاطبني كطفل!
- أدّيش عمرك ليلى؟ - سألتها، فقهقتْ.
- ليش عم تضحكي؟ - رفعت من نبرة صوتي بعض الشيء.
- لأنّه شي بيضحّك! أنت لوين بدّك توصل؟
- حابب أتعرف عليكِ أكتر.
- على أمل؟
- لأنّي معجب بكِ!

صمتتْ الفتاة لفترةٍ طويلةٍ وراحت تنظر إلى يديها اللتين ضمّتهما إلى حجرها ثم قالت:

- سألتني قبل شوي قدّيش عمري وما جاوبتك. أنت ما بتعرف حتّى عمري. كيف ممكن تكون معجب فيني؟

- هاد شعوري!
- أنا كنت بقدّر شعورك كتير لو بقدر صدّقه.
- يعني هاد جواب؟
- جواب لشو؟
- أنّه ما ممكن أتعرّف عليكِ!
- طبعًا ممكن! بس بدون ما يكون عندك نوايا مسبقة لسير العلاقة. غير هيك ما رح كون مرتاحة. فينا نبلّش من الصفر. مرحبا، أنا ليلى، عمري 25 سنة من الشام. وأنت؟ - قالت بلهجةٍ أقرب إلى السخرية.
- أنا آدم، عمري 23 سنة، ومن الشام كمان! - قلت بدوري دون أن أقتنع بجدّيّتها.
- من وين من الشام؟
- ما بعرف.
- يا سيّد "ما بعرف". أنت ما بتعرف أنت من وين؟
- لا. بعرف بس إنّي من الشام.
- كلمة "ما بعرف" بتستفزّني كتير على فكرة. يا ريت تلغيها.
- بحاول!
- لنشوف.

دارت بعدها بعض الأحاديث بيننا وكنتُ كثير التردّد والصمت.

كان من الواضح في البداية أنّني حريصٌ على إخفاء بعض الأمور، ما أثار استياء ليلى:

- أنا بحترم خصوصيّة حياتك كتير. بس بظن إنّه في شغلات إذا خبيناها بتخنقنا، بتقتلنا. أنت حرّ بالنهاية. بس الصراحة والثقة من شروط الصداقة بالنسبة إلي. ولا شو رأيك يا صديقي؟

أحسستُ باشتداد حدّة دقات قلبي وكأنّني هوجمت للتو من ذئبٍ ضارٍ ويتحتّم عليّ الهرب منه في الحال. شعرتُ بأنّني على وشك إفشاء كل أسرار حياتي، مقابل الحب، أو مقابل محاولة حبٍّ واحدة. هذه مخاطرةٌ كبيرة. ولكن، إن فتحتُ قلبي لليلى فاحتمال أن تحبّني أو تتقبّلني ضعيفٌ جدًّا، أمّا إن تابعتُ صمتيّ فاحتمال أن تتقبّلني معدومٌ تمامًا. كيف لأحدٍ أن يتقبّل شخصًا لا يعرف عنه سوى ملامح وجهه وبعض صفاته الخارجيّة؟ بينما لبناء صداقةٍ أو حبٍ فإنّه ينبغي علينا استشراف ما خلف تلك الملامح من مشاعرٍ كوّنها الزمن. ننتقل من حب البسمة إلى علم صناعتها. ومن الخبرة في الأفعال وردودها إلى المعرفة بدوافعها ومغازيها. ومن مغازلة الصفات الحسنة إلى تقبّل كل الصفات بجملتها وتفصيلها، بحسنها وقبيحها. حينها يكون الحب قد ذاب في قلوبنا كما أذابت ليلى العسل في كأس الشاي الخاص بها.

قاطعَت ليلى هدوء الجلسة الموحش بأن استأذنتني للذهاب إلى الحمّام وقد امتقع وجهها، غالبًا كانت الفتاة قد ضاقت ذرعًا بصمتي. أجلتُ نظري في المكان؛ كان المقهى يبدو كقصرٍ عظيم. الجدران المزخرفة والستائر الكلاسيكيّة تعطي إلى جانب المرايا التي تملأ الجدرانِ رونقًا إمبراطوريًّا، وكأن المرء قد سافرَ خارج الزمن إلى عشرينيات القرن الماضي. الثريات التي تتدلّى من السقف كانت تمنح

الخشب البني الغامق الذي يكسو بعض الجدران لمعانًا وبريقًا لطيفًا. كان الناس الذين يجلسون حولي يشبهونني نوعًا ما. لا تبدو أمارات الأرستقراطيّة على محياهم. هناك كان عليّ التفكير إن كان موقفي من المجتمع والطبقيّة ما زال صالحًا للعصر الذي أحيا فيه. هذا الأمر لم أفكّر به يومًا. أنا أكره الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال ولكنّني لا أعرفهم. لا أطيق صاحب المعمل الذي أعمل فيه وأعتقد أنّه ذو كرشٍ ضخمٍ وملامح فظّةٍ رغم أنّني لم أرَه يومًا ولا أعرف حتّى اسمه. أنا أمقته وأمقت كل أرباب العمل رغم أنّهم ينصاعون جميعًا لقانون الدولة. حسنًا، لقد كنت أمقت الدولة أيضًا. أمقت السلطة التي ستلوّث المال وستتلوّث به إذا اختلط بها. كلّ ما يختلط بالسلطة سيصير نتنًا بالضرورة. إن كان مالًا، معتقدًا، مذهبًا سياسيًّا، فكرةً أو حتّى قشّةً وحيدةً وسط روث خنازير في إسطبلٍ على طرف قريةٍ لم يسمع بها أحدٌ من قبل. ولكن اليوم كل شيءٍ مختلفٌ عن السابق، حتّى صورة السلطة والدولة. لم تعد الدولة إلّا مؤسّسةً مصرفيّةً وأمنيّةً كبيرةً ترعى شؤون الناس، خاصّةً الدول الكبرى والديمقراطيّات. حسنًا، ربما كان ذلك مجرّد تصوّرٍ مراهقٍ أبله لشابٍّ يعمل لدى شركةٍ تشغّل مئات الموظّفين الآخرين ويعتقد نفسه يعيش في القرن التاسع عشر وأن أحد العمّال في العالم يأبه بزميله ويتوق لثورةٍ عماليّةٍ لإقامة الأناركيّة أو ديكتاتوريّة البروليتاريا.

أثناء تفحصي للمكان شعرتُ بغربةٍ لحظيّة رهيبة وبشيءٍ من الخوف. ما هذا المكان؟ أين أنا؟ من هؤلاء الناس؟ ومن أنا؟ هذه اللحظات ليست غريبة عنّي. دائمًا ما يعتريني شعورٌ كهذا في فترات

متباعـدة ولا أدري إن كـان هـذا أمـرًا طبيعيًـا أم لا. هـو تمامًـا عكـس "الديجافو" الذي أشعر بـه أحيانًا والـذي أعرفـه. أشـعر للحظـة بـأنني لا أفهم أي شيءٍ مما يحيط بي ثم لا يلبث الشعور أن يزول مع أول حركة لعقرب الثواني. ذلك العقرب الذي ينسلّ خارجًا من ساعتي ليلدغني في مـؤخرة رأسـي أحيانًـا. هـذا الشـعور بـالوخز يرافقنـي خـلال لحظـات الانتظار التي أعيشها بشكلٍ يومي. أنا أنتظرُ دومًا حدوث شيءٍ ما، شيءٍ أجهله ولا أدري ماهيته. رغـم ذلـك أعـوّل عليـه في تغيير مجـرى حيـاتي بأكملهـا. لكنّني في تلـك اللحظـات في مقهـى "لانتمـان" كنـت أعـرف مـا أنتظر تمامًا، كنت ببساطةٍ أنتظر ليلى لكي تعود من الحمّام!

عـادت أخيـرًا، جلسَـت أمـامي بصـمتٍ وبـدأت تنظـر إلـى سـاعتها بقلق. شعرت أن عليّ إنقاذ الموقف وعدم خسارة ليلى إلى الأبـد. كـان صمتي يعطي فضولها سكّينًا ليذبح اهتمامها بي:

- إسمعي ليلى، أنا بدّي إفتح لك قلبي - قلت لها بتردّد.
- أنا جاهزة! - أجابتني على الفور.
- بس مو هون. عندك وقت؟ فينا نروح للنهر؟
- إي. ممكن.

مشينا قرابة العشر دقائق والصمت رانٍ تمامًا بيننا. عند وصولنا إلى النصب التذكاري لضحايا الهولوكوست نطقت للمرة الأولـى طالبًـا مـن ليلى التوقّف لبعض الوقت عند النصب.

- ليش الناس بتقتل بعضها؟ - سألتُ ليلى.

صمتت ليلى ولم تجب، فاستطردت:

- اليوم في مئات الناس عم تنقتل وما حدا عم يتحرّك ليوقّف الموت. بكرا منعمّر النصب التذكاريّة وفاءً لأرواحهم. وكأنّه هالأحجار رح ترجعهن عايشين.
- كون واقعي أكتر. اللي راح راح. أحيانًا ما منقدر نعمل شي إلّا الزعل. التاريخ ما بينسى واليوم الكل بيكره القاتل وبيمجّد الضحيّة.
- بتعتقدي إنّه في عدالة بعد الموت؟
- إي. أكيد في!
- لازم يكون في! لازم! - قلت لها.

* * *

وجدتُ نفسي أعانق ليلى وأرتجف باكيًا على ضفّةٍ حجريّةٍ للدانوب، بعد أن قصصتُ لها عن طفولتي:

- الصبح كانوا يخوفّوني بالمدرسة من غرفة الفيران، والمسا كنت مضطر نام بتختي لحالي لشوف الفيران بالمنام!
- طيّب جدّك؟ ما كنت تحكي له شو كان عم يصير معك؟
- مشان يقول عنّي أنّي ماني رجّال؟ الذكر بمجتمعنا مقموع متله متل البنت، بس بطريقة تانية. نحنا إمّا منكبر عنيفين أصلًا أو بيدفعونا للعنف دفع. ما بحب لوم جدّي على شي. هاد ذنب المجتمع كلّه، ما ذنب شخص بعينه! لنفس السبب ما كنت قول إنّي عم أتعرض للتحرّش من رفيق جدّي - قلت لها

وازددّتُ بكاءً على كتفها. بتذكّر لحد اليوم كيف كانوا إيديه كبار وقوايا، كنت حاول أفلت منّو بس بدون فايدة. مرّة خطر لي إنّي ما روح مع جدّي لعنده. وقلت له إنّي حابب ظل بالبيت. وقتها جبرتني بثينة إنّي إغسل لها كنادرها بالحمام. لمّا صرت شب أجت الثورة. الثورة اللي رجّعت لي روحي. لما طلعت مع الثوار طلعت مو ضدّ نظام سياسي وبس، طلعت مقهور من منظومة اجتماعيّة قائمة من عشرات السنين. طلعت لأنّه ما بدّي حدا يعاني المعاناة اللي عانيتها. بنت عمّي دارين كانت قدوة بالنسبة إلي. كانت شجاعة وحلوة كتير. حتّى لما انتحرت، ماتت ببطولة. وحتّى لمّا حاولت قلّدها القدر ما سمح لي!

ابتعدتُ عن ليلى ونظرتُ إلى عينيها الدامعتين، ورحت أعتذر منها:

- أنا آسف. أنتِ مانك مضطرة توجعي راسك بكل هي الأمور. أنا آسف عنجد.
- لا تعتذر. ما في داعي للاعتذار. أنا اللي وصّلتك لهون، لأنه كان بدي أعرفك أكتر.
- وعرفتيني هلّق؟

لم تجب ليلى.

- شكلك اتعلمتي السكوت منّي - قلت لها مبتسمًا رغم الدموع.

- لأ. بس ما بعرف شو لازم قول!
- إنسي. احكيلي أنتِ عن حالك! - قلت لها بينما كنت أعدّل جلستي وأمسح دموعي.
- أنا اتأخرت ولازم روح ع البيت، والجو صار بارد كمان.

نهضت ليلى وأنا أنظر إليها بحزن. كنت أمشي بقربها مرتجفًا من البرد والتوتّر.

- ليلى، ممكن إمسك إيدك؟!
- لا!

شعرتُ بالخجل الشديد من نفسي.

- أنت لازم تغيّر حياتك. لازمك حلم! - قالت لي لتلهيني عن أفكاري.
- لسّاته حلمي موجود!
- واللي هو؟
- الثورة!
- وأنت شو عم تعمل للثورة؟ عم تنتظر وتراقب من بعيد وتبكي على يلي راح؟

لم أجب. تابعت ليلى كلامها:

- لازم تتابع دراستك! فكّر بالموضوع منيح - قالت لي.

نظرت إليها متفاجئًا.

- بس أنا ما معي شهادات لغة ولا أوراق من سوريّة.
- فكّر وقرّر وأنا بساعدك، عمتي بتشتغل بوزارة التربية بالشام.

كانت الفكرة جذّابةً جدًّا، ليس لأنّني أود متابعة الدراسة، بل ربما يمكّنني ذلك من التقرّب إلى ليلى أكثر! دون تفكيرٍ وبمنتهى الحماقة أجبتها: "موافق".

10

شهران واستقلت من وظيفتي. التحقت بدورةٍ سريعةٍ للتحضير لامتحان اللغة في جامعة فيينا، من أجل الحصول على الشهادة التي تؤهّلني للدراسة هناك بشكلٍ رسمي. في الحقيقة لم أفكّر جدّيًا إن كنت سأعود لدراسة القانون أم أنّني سأنحو منحىً آخر في دراستي في النمسا. كانت حياتي خلال الشهرين اللذيَن سبقا التحاقي بالدورة قد تغيّرت نوعًا ما. صرت أكتب لليلى كل يومٍ الكثير من الرسائل ولا أجرؤ على إرسالها لها. خلال هذين الشهرين لم ألتقِ بها مرّةً واحدة، وكان تواصلنا يقتصر على الرسائل النصّية وقد كانت تتأخر ساعاتٍ طويلةٍ قبل الردّ على رسائلي. لطالما انتظرتُ الليل بطوله لتردّ عليّ دون فائدة، ولكنّني كنت سعيدًا بالقليل الذي كانت تمنحني إيّاه. كانت تشغل تفكيري كلّه، دون أن أعرف حتّى عن حياتها أي شيء. ربما لديها حبيبٌ، لكنّني لسببٍ ما كنت لا ألقي بالًا لتلك الأفكار وأعتبرها وساوس صبيانيّةٍ لا أكثر ولا أقل. أواصل أحلامي بأن أحصل على تلك الفتاة يومًا ما بالفعل، ويبدو أن ذلك الحلم بالذات، كان مستحيلًا.

صرتُ بعد بدء الدورة أقابلُ ليلى بشكلٍ شبه يوميٍ حيث كانت تقضي وقتًا طويلًا في مكتبة الجامعة وفي المختبر للتحضير لامتحاناتها. كان الصيفُ قد اقترب، فأصبحنا نلتقي بعد نهاية دوامي وقبل الانصراف

إلى عملي، كوني كنتُ قد بدأت العمل لعدّة ساعاتٍ مساءً في أحد المطاعم الصغيرة في فيينا. لقد تجرّأت أخيرًا على إرسال بعض نصوصي الأدبيّة والشعريّة لليلى، وقد نالت إعجابها بشكلٍ كبيرٍ. كان تعليقها مرضيًا يومها عندما أخبرتني بأنّني أجيد تحويل النهايات الحزينة التي أفضّلها إلى نهاياتٍ محتومةٍ لا مفرّ منها. كانت ليلى تحب النهايات السعيدة بدورها، ولهذا السبب كنتُ فخورًا بما قالته لي، بالإضافة إلى كونها لا تعرف الكذب والمجاملة.

بعد أسبوعٍ من بدء الدورة كنت معها نتناول طعام الغداء في الجامعة، فبادرتني بالسؤال:

- ما تعرّفت على أصدقاء جدد بالدورة؟
- لا. حابب أتعرف؟
- طبيعي تتعرّف.
- إي عندي رفيقة وحدة هون. بتكفيني.
- أها. ومين هيي؟
- أنتِ.

ضحكت ليلى وهي تتابع محاولة قطع اللحم أمامها:

- شو رأيك بالأكل؟

أردت أن أقول لها إنّني لا آبه بأي شيءٍ إلّا بها. لا يهمّني غيرها، ولم أعد أرى سواها بشرًا. أردت أن أقول لها ذلك في تلك اللحظات بينما ترفع الشوكة إلى فمها.

- أنا شبعت - قلت لها عوضًا عمّا كنت أريد قوله.

- كمّل أكلك. أنا بزعل إذا تركت شي بصحنك!

كانت لا تكف عن توجيه كلامها إليّ كأنّني طفلٌ وكأنّها أمّي. ربما هذا بالذات ما زاد تعلّقي بها أكثر وأكثر، رغم أنّه كان يثير حنقي. تابعتُ طعامي مرغمًا، ولكن بشهيّةٍ أكبر. بعد انتهائنا من الطعام قمت بدعوة ليلى لتناول المثلّجات في الخارج فوافقت. بعد انتهائنا من المثلجات جلسنا على الرصيف متقاربين، أخرجت من حقيبتي رواية ميلان كونديرا "كائن لا تحتمل خفّته" وأعدتها لها. تلك كانت رواية ليلى المفضّلة وقامت بإعارتي إيّاها فأنهيت قراءتها في يومين. أخذت ليلى الكتاب منّي دون أن تسألني إن كانت الرواية قد أعجبتني أم لا.

أشعلتُ سيجارةً ومددتها لليلى. كنّا قد اعتدنا تقاسم لفائف التبغ كونها لا تدخّن بكثرة. كان شعار ليلى في الحياة أن السعادة لا تتم إن لم نشاركها مع الآخرين. وهكذا كنّا نتشارك تقريبًا كل شيء، عندما نكون معًا.

أخذت ليلى من السيجارة نفسَين طويلَين ثم أعادتها إليّ:

- حابب قلّك شي - قلت لها وأنا أقرّب السيجارة نحو شفتيّ.
- تفضّل - أجابتني وهي تحدّق إلى السيجارة كأنّها تقول لي: "أعدها إليّ سريعًا".

تردّدتُ، ولكنّني نطقت أخيرًا دون مقدماتٍ تُذكر: "ليلى. أنا بعتقد إنّي مغرم فيكِ". تغيّرت ملامح الفتاة إلى الصمت، ولم تجب.

***

"اعذريني يا (صديقتي)، فقد أخفقتُ يوم أمس مرّةً أخرى أمام نفسي. أقسم أنّني حاولت جاهدًا إخفاء مشاعر الحب والإعجاب التي تعتريني تجاهك، ولكنّني فشلت. لم أستطع التزام الصمت وكبح جماح رغبتي العاصفة بإخبارك بكل ما يجول في خاطري. ربما كان ذلك خطًا كبيرًا منّي قد يكلّفني الكثير، ولكنّني أشعر بحالٍ أفضل الآن، فقد كانت تلك اللحظات بالأمس من اللحظات القليلة التي واجهت فيها خوفي وقلقي غير آبهٍ لما قد يحصل. هذا وحده كفيلٌ بالتخفيف عنّي إلى حدٍّ ما.

بدا ردّك باردًا وصادمًا في البداية، بينما كنت أعتقدُ أنّني أعني لكِ أكثر من ذلك بكثير. لقد صرتِ يا عزيزتي حلقةً جديدةً من حلقات طوق خيباتي الذي يكبر مع الزمن، وكلّما كبر وازداد طوله ضاق حول عنقي أكثر. لكنكِ حلقةٌورديّةٌ بين الحلقات الرماديّة الكثيرة، لا بل بيضاء، كياسمينةٍ دمشقيّةٍ أزهرت على كتفي، دون أن يحق لي لمسها، أليس هذا ما أردتِ قوله بالأمس عندما قلتِ لي إنّك لا تستطيعين أن تقدمي لي أكثر من الصداقة، قبل أن تمدّي يدكِ لي لمصافحتي؟ ولكنّني أصدقكِ القول أنّكِ نجحتِ بعد ذلك بإبعادي خطوتين عن حافة الهاوية عندما واسيتني قائلة: "أنت جميلٌ جدًّا. رائحتك تشبه رائحة الوطن، وسماركَ أيضًا!". لا أدري كيف يمكن لإنسانٍ أن يقتل إنسانًا آخر ثم يحييه بتلك السرعة! في تلك اللحظة بالذات اختلطت مشاعري كليًّا. شعرت بشيءٍ من الرضا، فلا يمكن لكلماتك تلك ألّا تكون حقيقيّة! لقد نطقتِ بها كما لو أنّك تنطقين بأكثر الحقائق تأكيدًا. كان تكذيب أن شمس حزيران

لا تسطع فوق رأسنا، أسهل عليّ من التشكيك في حقيقة كلماتك تلك. ربما لأنها أسعدتني.

أنا كما أنتِ يا ليلى، من أبناء تلك الأرض الطيّبة. ندفع كل يومٍ ثمن الولادة بمحض الصدفة هناك، ولكنّنا لا نستطيع ألّا نردّ كل ما هو جميلٌ إلى هناك. أنا أذكّرك بها، كما تفعلين أنتِ، يا صديقتي الغامضة. تعتقدين أنّنا لا نشبه بعضنا كما أفشيتِ لي البارحة، ولكنّك مخطئةٌ يا خيبتي الجميلة الشابّة. لقد تجرّعنا كأس الألم ذاتها. أنا أستطيع أن أرى ذلك في عينَيك وإن لم تخبريني به. أنتِ تجيدين الإنكار وتحفظين عهودكِ أمام نفسك. في هذا، نحن لسنا متشابهين أبدًا.

سأبقى على عهدي أمام نفسي هذه المرّة أنّني لن أخسركِ، ولو اضطررتُ للدفاع عن مشاعري تجاهكِ بأنيابي الهشّة ومخالبي المهترئة.

محبّك الصديق، آدم.

15 حزيران 2015".

كانت تلك أولى رسائلي التي أرسلتها إلى ليلى عبر البريد. لم أتواصل معها بعد حديثنا الأخير وهي أيضًا لم تتصل، كأنّها تتجاهلني تمامًا. هكذا هي دائمًا، لا تشعرني بالاهتمام أبدًا. انتظرتُ رسالةً منها فما كنت أستلم شيئًا إلّا مزيدًا من الحزن لغيابها، حتّى استسلمتُ في الأسبوع التالي وطلبتُ لقاءها.

تقابلنا في أحد المقاهي مساء السبت وأهديت ليلى شالًا أحمر كنت قد اشتريته لأجلها قبل ثلاثة أسابيع وقد ذبت في انتظار الفرصة المناسبة. كان الحزن يتجلّى في عينيها بشكلٍ لا يترك مجالًا للبس. اختارت شاي

النعناع مع العسل كعادتها وطلبتُ أنا الآخر المشروب ذاته:

- اليوم حاسّك ما طبيعيّة ليلى! - قلت لها.

نظرت إليّ بطريقةٍ غريبةٍ ثم قالت دون أن تحرّك جفنيها ولا عينيها، بمنتهى الجمود:

- ممكن تمسك إيدي؟ - وعرضت كفّها مفتوحًا أمامي على الطاولة.

مددتُ يدي إلى يدها بتوجّسٍ وأمسكت بكفّها وراحت أصابعنا تتشابكُ بينما يبعثر نسيم الليل شعر ليلى البني.

- قدّيش الساعة؟ - سألتني.

- عشرة إلّا عشرة - أجبتها بعد أن نظرتُ إلى ساعتي الجلديّة السوداء التي لا تفارق معصمي كقطعةٍ منه.

- تلعب لعبة؟ - قالت ليلى بابتسامةٍ خجولة.

- بلعب! - أجبتها بجسارة.

- نحنا منحب بعض، لمدّة ساعة!

- كيف؟

- منتعامل مع بعض وكأنّنا بعلاقة حب، لمدّة ساعة. يعني للساعة عشرة وخمسين دقيقة.

نظرتُ إلى عينيها نظرة تساؤلٍ وشكّ. هل تعني حقًّا ما تقول؟ هل قدّموا لها الفودكا بدلًا من شاي النعناع؟ لكنّني كنتُ أرى في عينيها الجدّية والإرادة، فوافقتُ بتردّدٍ تامٍّ:

- موافق - قلت لها، فشدّت على يدي وابتسمت بلطفٍ ودماثة.

لـم أنطق بأي كلمةٍ خلال الربع ساعةٍ التالية. بدأتُ أستاء حقًّا، بينما ليلى تحافظ على ابتسامتها ذاتها وكأنّها لا تأبه للوقت ولا تشعر به أصلًا. كانت كأنّها تسبح خارج الـزمن، في زمنهـا الخـاص، كموسـيقيّةٍ أبـدعت لتوّها مقطوعةً ساحرة، كما أبدعت هي تلك اللعبة العجيبة، وغرقت بين علاماتها ونغماتها. كنت حينها غارقًا في المقلب الآخر تمامًا. كنتُ أعـدُّ الدقائق وأرجو الساعة أن تبطء من عجلة سيرها بعض الشيء ريثما أفهم العالم من حولي. حسنًا، لقد كان عليّ تخيّل أن ليلى قد أعلنـت لـي عـن حبّها وأنّنا أصبحنا في تلك اللحظات حبيبَين.

المشكلة الأولـى كانـت في اسـتيعاب الأمـر برمّته، والمشـكلة الثانيـة أنّني كنت أجهلُ قواعد تلك اللعبة. لقد كنتُ كعطشانٍ رمى نفسـه في بركـة مـاءٍ لا يعـرف عمقهـا ولـم يـتعلّم السـباحة يومًـا. فإمّـا أن يشـرب ويخـرج سالمًا، وإمّا أن تسحبه المياه التي كان من المفترض بها أن تنقذ حياتـه إلـى القاع وتنساه هناك أبدًا. لم أجـرؤ علـى سـؤال ليلـى عـن تفاصـيل وقـوانين وحدود تلك اللعبـة. لـم أشـأ سـحبها مـن غرقهـا ذاك وإعادتهـا إلـى عالمنـا الحقيقي أو عالـم "خارج اللعبة"، ومن جهـةٍ أخـرى خجلـت مـن السـؤال. يا إلهي، لقد كنت تائهًا بين البقاء متجمّدًا في مكاني أو التحرّك. هل أجلس على الكرسي المجاور لها وأعانقها؟ هل أتجرّأ على تقبيلها الليلة؟ مضت نصف ساعةٍ لم تغيّر من نظرة ليلـى وملامحهـا أي شـيء. لقـد كانـت علـى الأرجح محترفة في ممارسة التأمُّل أو مـا شـابه. كانـت تنظـر طـوال ثلاثـين دقيقةٍ في عينيّ دون أن يرفّ لها جفن، لـم ألاحـظ خـلال تلـك الـدقائق أي تغيُّرٍ في ابتسامتها، سوى أنّني رأيتُ دمعةً تلمع في عينها:

- آدم. أنا ما عندي مشكلة مع الصمت، لا تحس حالك مضطر تقول شي! – قالت لي بلطف.
- ليش مدمّعة؟ – سألتها، فلم تجب.

قاطع نظراتنا تلك قدوم رجلٍ عجوزٍ يحمل ورودًا حمراء، ابتسمت له ليلى وأخرجت من محفظتها نقودًا واشترت وردة، فنظر الرجل إليّ وطلب سيجارة، فأعطيته وأشعلتها له:

- من أين أنتم؟ هل أنتم شرق أوسطيون؟
- أجل – أجابته ليلى بلطف.
- جميل.. – قال العجوز وتابع كلامه ناظرًا إليّ:
- ولكن هذا الشاب يبدو حزينًا!
- أنا؟ – سألته.
- نعم. اسمع يا صغيري. عندما تتعلّم تقبّل أحزانك بصدرٍ رحبٍ فإنّها لن تؤلمك كما تفعل الآن. اعرف دومًا أن الحياة التي أوجعتك يومًا ستحافظ إلى الأبد على قدرتها لإسعادك، كنْ متأكّدًا من هذا. أتمنّى لكما السعادة في علاقتكما "الفتيّة" – قال الرجل ومضى.

مدّت ليلى الوردة الحمراء نحوي، فنظرت إليها باستغراب، لقد كانت الأولى التي يهديني إيّاها أحدهم على الإطلاق. فأخذتها منها وأنفاسي تتسارع وأنا أبتسم بسرور. بعد دقائق إضافيّةٍ من الهدوء والصمت الموحش سألتني: "منمشي؟".

- لوين؟ – أجبتها بخوف.

- لازم روح ع البيت!
- بس لسّا الساعة ما خلصت.
- لبين ما نوصّل لمحطّة القطار بتكون خلصت - قالت لي بينما تجمع أغراضها من حولها وتحمل حقيبتها.
- طيّب - قلت لها وقد اكفهرّ وجهي.

مشينا حتّى محطّة القطار، لا تفوّهت بكلمةٍ ولا امتلكت الجرأة للإمساك بيد ليلى في الطريق. عند وصولنا المحطّة كان قد تبقّى خمس دقائق على نهاية وقت اللعبة:

- عندي تساؤل - قالت لي دون أن تنظر إلى وجهي.
- شو هو؟
- لإيمت ممكن تستمر صداقتنا برأيك؟

نظرتُ إلى ساعتي ثم قلت لها على سبيل المزاح:

- ثلاث دقائق متبقّية! - وابتسمتُ لها مداعبًا.

عانقتني ليلى مودّعةً، فنظرت إلى عينيها بينما القطار يقترب، لأرى الدموع تجري على خدّيها. بقيت دموعها في ذلك اليوم لغزًا لم أجد له حلًّا.

أخرجت هاتفي في طريق عودتي إلى منزلي وأردتُ إرسال رسالةٍ إليها، لأرى ما كنت توقّعته منها، لقد حظرتني من إرسال الرسائل إليها ومن الاتصال بها، فقضيت تلك الليلة في سريري محزونًا أحاول كتابة رسالةٍ لها بخط يدي.

* * *

"فأنتِ تنتمين لي، حتّى لو قدّر لي ألّا أراكِ ثانيةً أبدًا.." أعتقد أنّكِ قرأتِ هذه الكلمات من قبل، لقد رأيتكِ ذات مرّةٍ تحملين في حقيبتك نسخةً إنجليزيةً من رسائل كافكا إلى ميلينا وقد كانت تلك إحدى الجمل التي كتبها إليها في إحدى الرسائل. أنا أكتب إليكِ رسالتي هذه اليوم لأن فكرة عدم رؤيتك مجدّدًا تثير ذعري. أيعقل ألّا أراك بعد اليوم؟ لن أرى ضحكتكِ المحبّبة التي تختفي بها عيناكِ خلف السعادة الغامرة وتحل محلهما نجمتان تنيران الخواء المظلم في داخلي؟ لن أرى شامتك التي تلمع كقمرٍ وسط سماء خدّكِ الصافية؟ لن أرى غمازتكِ التي تجتاز وجنتك الورديّة كشهابٍ يخترق أعماق روحي المبعثرة مرورًا بكل خيبات حياتي؟

لقد أحببتكِ حقًّا، بكل ما أوتيتُ من قدرةٍ وبكل ما تبقّى لدي من مشاعر. أحببتكِ كما لم أفعل من قبل في حياتي. لقد كان تعرّفي إليك حدثًا نادرًا طالما ترقّبته في اللاوعي الخاص بي. لطالما شعرتُ أن النقص يعتري حياتي في جميع مراحلها، حتّى قابلتك! لقد كنتُ طوال الأشهر الماضية أبحث في غربتي عن وطن، أو عن شيءٍ يشبه الوطن، أو عن قطعة وطنٍ أعلّقها على جدار قلبي المتهالك فيزهر الربيع هناك، في داخلي. الانتماء! لقد قلت لكِ أن كل شيءٍ يدور حول شعورنا بالانتماء، وأنا اليوم أنتمي إليكِ، بكلّيتي.

اعذري رومنسيتي المفرطة يا عزيزتي، فأنا لا أنتمي إلى هذا الزمن، بل أنتمي إلى عصرٍ خارج العالم، أتواجد بجسدي هنا ولكن روحي تتوق إلى العيش هناك، حيث الحب والعدالة يخيّمان بجناحيهما فوق

العالم. لقد حدثتكِ سابقًا عن لحظة التنوير في الأدب، ولكنّني لم أخبركِ بأنّني عشتها معك واقعًا ملموسًا. فبينما كان شعوري تجاهك يسبح في المجهول، ضبابيًّا وغير واضح المعالم، خطرت لي كلمة "الحب" فبدا كل شيءٍ بكامل الوضوح. أنتِ الحقيقة في أصدق صورها وأتم تجلّياتها وأكثر أشكالها تطرّفًا.

بالمناسبة، عندما سألتني عن المدّة التي قد تحياها علاقتنا، أجبتك ممازحًا، ولكنّني في قرارة نفسي كنتُ أعرف أنّها لن تستمر طويلًا. ربما لشدّتها أو لسرعتها، أو ربما لطبيعتها المثيرة للسخرية، أو لأنّها حقيقيةٌ أكثر ممّا ينبغي، وصادقةٌ بالقدر نفسه.

ذات مرّةٍ سألتني، كيف كنت لأنهي قصّتنا لو كنت أنا من أكتبها، فأجبتكِ بأن قصّتنا لم تبدأ بعد، أو على أقل تقديرٍ هي لم تتطوّر إلى الحدّ الذي يمكّنني من إعطائها القفلة التي أحبّها، والأحداث لم تنضج بعد لكتابة النهاية التراجيديّة التي أجيد كتابتها حسب وصفك. هذا لم يكن تهرّبًا من الجواب، بل كان الحقيقة، نحن لم نعش معًا إلّا القليل، برأيي طبعًا. "سأجعلني أنتحر!" قلت لكِ بعد إصرار كبيرٍ منك على الإجابة. "لا! بل على العكس، عليك أن تجعل البطل - الذي هو أنت - يعيش يوميًا مع فكرة الانتحار دون أن يجرؤ على الإتيان به!" قلتِ لي. بدوري أعتقدُ أنّك راقصة تانغو تستحق الاحترام، لكن كتابة نهايةٍ لقصةٍ يعتبر أمرًا مختلفًا. الرقصة تنتهي عادةً حيث بدأت، أمّا القصّة فيجب أن تتطور وتمشي. الدوران في المكان قد يحرّك الدورة الدمويّة، لكنّه لن يحرّك القارئ من مكانه ليرمي بالكتاب على الحائط شاتمًا

الكاتب بابتسامةٍ تعترف له بالعبقريّة. لماذا لا تريدين لقصّتنا أن تتطوّر؟

حبيبان لساعة! كانت فكرتكِ تلك مجنونة جدًّا، ولكنّها كانت فرصتي أيضًا، لأشعر أنّك تحبينني ولو لساعة، كما أفعل أنا طوال الوقت. لقد حاولت خلال الستين دقيقة تلك ألّا أستغل اللعبة لفعل شيءٍ قد لا ترغبين به، رغم تأكّدي من أنّك في تلك الحالة ستوقفين اللعبة على الفور، فأنتِ أساسًا من اخترعها ووضع قواعدها دون إفشائها واستمرّ بإدارتها حتّى اللحظة الأخيرة. لكنّني كنت أحاول أن أكون العشيق الخفيف. هل ترين؟ نحن نعود لنقطة الخفّة والثقل دومًا. كونديرا ذاك رهيبٌ حقًّا. لقد حاولت أن أكون مقبولًا وغير منفر، رغم أنّني كنت أرغب بتقبيلكِ بشدّة، ولكن حتّى هذا لم ينفع. أدفع نصف عمري لأعرف ما كان يبكيكِ في تلك اللحظات. هل يعقل أن تكوني قد تشبّثتِ بيدي باكيةً دون أن تمتلكي أي مشاعرَ تجاهي؟ هل لي أن أصدّق شيئًا كهذا؟ لا. لا بدَّ أنّك تشعرين بشيءٍ ما جميلٍ تجاهي، إن لم يكن حبًّا، فليكن شيئًا يشبه الحب! أنا لا أدري إن كان هناك أشياءٌ تشبه الحب، أم أن الحب شيءٌ منزّهٌ قائمٌ بحدّ ذاته في فراغٍ سديميٍّ لا درجات له ولا أشباه. ولكنّني أشعر بأنّك عالقةٌ في زاويةٍ ما هناك، بين الحب وعدمه، تعجزين عن الخروج منها. أتمنّى أن تستقبلي كلماتي هذه بصدرٍ رحب. وإن رغبتِ العودة، فقلبي مفتوحٌ لك دومًا.

آدم".

تردّدتُ في إرسال تلك الرسالة أسبوعًا كاملًا، على أمل أن تعود إليّ ليلى دون الحاجة إلى أن تقرأ كل ذلك. لم أرَها خلال الأسبوع.

تجوّلت حول الأماكن التي تتردّد عليها عادةً وتظاهرت أنّني أمرٌّ من هناك بالصدفة، لكنّها لم تظهر. لقد اختفت ببساطة. لم يكن هناك تفسيرٌ آخرٌ لذلك. والأكثر بؤسًا أنّني لن أجرؤ على الذهاب إلى منزلها مهما حصل، فقد كانت منذ بداية علاقتنا حسّاسةً تجاه اقترابي من مكان سكنها، ما أثار استغرابي في الحقيقة.

حسمت أمري بعد أسبوعٍ وقرّرت النزول مساء الجمعة لأشتري السجائر ولأرمي المظروف في صندوق البريد، وفعلت ذلك فعلًا مساء الجمعة. عدتُ إلى المنزل حاملًا بعض الحاجيات وإذا بي أتفاجأ بليلى جالسةً على باب المبنى، لفّت عنقها بالشال الأحمر الذي أهديتها إيّاه ذات يوم:

- ليلى؟ - قلت لها مرتجفًا.

نظرتْ إليّ فتاتي بعينَين دامعتَين. جعلتها تنهض ودعوتها للدخول.

11

- أمسك أيدي اليمين بإيدك اليسار، ولف إيدك التانية حوالي خصري - قالت لي ليلى وهي تلتصق بي.

كنا قبلها قد تناولنا الطعام معًا وصنعت لها شاي النعناع، دون أن تحكي لي عن سبب مجيئها أو ما كان يبكيها. لم أخبرها بدوري عن الرسالة التي أرسلتها إليها، كان قد فات الأوان والرسالة في طريقها إلى صندوق بريد ليلى، على المقلب الآخر من المدينة. كانت ليلى قد شغّلت مقطوعة الموسيقي الأرجنتيني أستور بيازولا: "إلى اللقاء نونينهو"(*).

- هلّأ لازم نمشي سوا. أنت بتمشي لقدام وأنا بمشي معك. أنت اللي لازم تتحكّم بالرقصة.

رحت أتعثر بأقدام ليلى عند كل خطوةٍ ونحن نضحك معًا. الموسيقى تلك كانت ساحرة. بعد عدّة محاولاتٍ استسلمت فارتميت قرب ليلى على الأريكة الزيتيّة، فتذكّرت كابوسي:

- هي أوّل مرة بقعد على هي الصوفا - قلت لها.
- وليش حاويها ببيتك لكن؟ - سألتني ضاحكةً وهي تلهث من التعب والضحك.

(*) Ástor Piazzolla - Adiós Nonino.

تأمّلت عينَيّ ليلى قبل أن أقترب منها مقبّلًا شفتيها. مانعتني ليلى وأبعدتني عنها وراحت تنظر هي الأخرى في عينَيّ بينما تقول: "عيونك حلوين كتير"، فأكملت ما بدأتُ به أوّل مرّة. ظللنا على حالنا ذاك لساعةٍ ربما أو أكثر. كنت مستعدًّا أن أستمرَّ لأيامٍ أيضًا. كان طعم أحمر شفتيها ظاهرًا في البداية، ثم اختفى ذلك الطعم ليحلَّ محلّه طعم النعناع والعسل.

لم أكن أقبّل شفتَي فتاة، بل كنت أقبّل سعادةً ورضىً طالما صبوت إليهما. كنت أقبّل حياةً أشتهيها. ما من شيءٍ كان يروي عطشي من تلك الفتاة التي لم يحيّرني شيءٌ آخر في العالم أكثر منها. كانت السهل الممتنع. تحرقني بيدها اليمنى وتعيد إطفائي بيدها اليسرى. تعاملني كشريكٍ في رقصة التانغو لا تنصاع له بالكامل ولا تترك يديه وترحل. كانت الغرابة والغموض اللذين يلفّان هذا العالم، والتناقض الذي يحكمه. كانت ببساطةٍ تجسّد الحياة بجميع جوانبها، بالإضافة إلى أنّها كانت أفضل من ألهمني في حياتي ودفعني للإبداع والرغبة في الحياة.

- يا ريت لو تستمر هاللحظات للأبد! - قلت لها.
- ما في شي بيستمر للأبد. بس فينا نستغل الوقت. صح؟
- نستغله بشو؟

لم أكد أكمل سؤالي حتّى انهالت ليلى على وجهي تقبيلًا. بدأت تحاول أثناء ذلك خلع قميصي بينما أتمنّع، وعندما ألحّت بحركاتها ابتعدتُ عنها بعض الشيء:

- شو؟ - سألتني باستغراب وهي تمسح شفتيها بكفّها.

- ما بعرف. ما سبق وشلحت قدام حدا!
- أوف.

أنزلت ياقة قميصي لترى ليلى الندبة على صدري.

- هاد الشي اللي ما بتحبه؟ أنا ما شايفته بشع؟ بالعكس، هاد شي مميّز!
- أي ما بعرف. أنا من طول عمري بكره هاد التميّز. بحسه نقص.
- وين النقص بالموضوع؟ شو بتأثر هي الوحمة على حياتك؟
- ما بعرف. كبرت وأنا بكرهها وبس.
- طيّب إسمع...

دنت ليلى برأسها من ياقة قميصي وشدّتها للأسفل بقوّةٍ وراحت تقبّل الندبة وأنا أنظر إليها وأنفاسي تتسارع، بينما أشتمّ شعرها الذي كان يعبق برائحة الفانيلا والليمون. أزالت قميصي أخيرًا، قبل أن أحملها مبتعدًا بها، إلى عالمٍ آخر غير عالمنا الذي أعرفه.

12

صباح السبت

نهضتُ باحثًا عن ليلى. لقد غفَت على ذراعي ليلة البارحة. لم يكن السرير وحده ممتلئًا، بل حياتي بأسرها. أين هي يا ترى؟ بحثت عنها في المطبخ وعلى الشرفة، ليست في الحمّام أيضًا. عدتُ لألحظ أن ثيابها ليست هنا. إذًا ذهبت!

أشعلتُ سيجارةً وتوجّهت إلى مكتبي، عليه كان شال ليلى، فعرفت أنّها رحلت إلى غير رجعة. بجانبه وُضعت ورقةٌ مطويّةٌ طياتٍ كثيرةٍ تحمل رائحة عطر ليلى. تردّدتُ في فتح الورقة. رفعتُ عينيّ إلى صورة أمّي وأبي على الطاولة، وفوقها على الجدار صورةٌ لدارين، واحدةٌ للعم الياس، صورةٌ تجمعني مع فراس وأخرى مع شادي. لقد كنتُ كثيرًا ما أشعر بأنّهم ينظرون مباشرةً إلى عينيّ، عندما كنت أتفرّس في صور وجوههم، بعمقٍ داخل عينيّ. حتى عندما أتجوّل في الغرفة أو أدير ظهري لهم خجلًا منهم كنت أشعر أن نظراتهم لا تفارقني. ها هي صورهم معلّقةٌ منذ زمنٍ طويلٍ على حائطي هذا. لقد اعتدت وجود صورهم كما لو كانوا يسكنون الغرفة معي ويشاركونني إقامتي فيها. صورهم في الحقيقة هي الشيء الوحيد الإنساني في هذه الغرفة، الشيء الوحيد الذي يدلُّ أن بشرًا آخرين يعيشون معي على الكوكب ذاته أو

سبق لهم أن عاشوا، فأنا لا أملك أي شيءٍ يخصّ بشرًا آخرين في هذه الغرفة، سوى تلك الصور، رسالة ليلى، وشالها.

لقد كانت الليلة الفائتة هاربةً من كوكبٍ آخر. لقد سرقتني تلك الفتاة خارج الكون وأخذتني في جولةٍ بين عوالمٍ لا أعرفها، كنّا نتنقل بينها معًا بمنتهى البطء والأناة. نفرد لكل عالمٍ منها وقته الخاص، ولم تنتهِ رحلتنا قبل طلوع الشمس.

دمعت عيناي بقوةٍ أمام وهج الولّاعة بينما أحرق رسالة ليلى، دون فتحها. لم أكن أريد معرفة ما كتبت. خشيت أن تخرّب القراءة ذكرى الليلة الفائتة. للمرّة الأولى أود الاحتفاظ بشيءٍ ما في ذاكرتي بكامل بريقه، كما حصل، ولا أريد نسيان لحظةٍ واحدةٍ منه.

هرعت إلى غرفة نومي، تناولت قرصين من الحبوب المنوّمة وارتميت فوق سريري، بينما لا تزال رائحة ليلى عالقةً على وسادتي.

"النهايات غالبًا ما تشبه البدايات، ولكن الزمن يسلب منها ألوانها فتبدو أقلّ بريقًا". هذه الفكرة كانت لا تفارق ذهني. إعلان ولادتنا كان صرخةً يحيط بها الفرح، ويوم رحيلنا هو صرخةٌ يمحو الحزنُ صداها. غفوت.

13

نمت أربعًا وعشرين ساعة كاملة! حسنًا، لن يخطر على بال أحدنا أن يستيقظ يومًا ليجد الدنيا من حوله قد انقلبت رأسًا على عقب، أليس كذلك؟ من الصعب علينا تصوّر أن نستفيق ذات يومٍ لنبدّل ثيابنا ونخرج إلى عملنا فنرى الجحيم تحيط بنا من كل الاتجاهات. لدى خروجي من المنزل صباح اليوم التالي لم تكن محطّة الباص موجودة. "إذًا لا داعي لانتظار الحافلة"، قلتُ في نفسي وأردت المشي فقط. ولكن في أي الاتجاهات أمشي؟ كل الاتجاهات هنا متطابقة! نظرتُ حولي، كنت وسط دائرةٍ من الخراب، دائرة بما تحمل الكلمة من معنىً. درتُ ودرتُ محاولًا العثور على أثر بشر! كانت رائحة الخرسانة تملأ الجو، كما كان الهواء مغبّرًا، كما لو أن الحي لم يمضِ على انهيار أبنيته بعد سوى بضع دقائق.

كان الطريق ذاته الذي رأيته في كابوسي السابق، ولكن لم يكن هناك بشرٌ على طرفَيه، والمشاعل الناريّة كانت مقلوبةً أرضًا، والأرض بدورها ممتلئةً بالحجارة. للمرّة الأولى أشعر بأنّني أريد رؤية الناس! سائق الحافلة والركّاب الذين أراهم ذاتهم كل صباح. صاحب البقالة الذي آخذ قهوتي من عنده عندما أستيقظ متأخّرًا. كلب الجيران الذين ينبح عليّ كل يوم! أريد أن أشمَّ رائحة البهارات التي تنبعث من نافذة جارتي الهنديّة.

بقيتُ في حالةٍ من الدوران حتّى غياب الشمس. بدأ التعب ينال منّي. صرتُ مع غروب الشمس أسمع صوتًا بعيدًا، لقد كان صوت بكاءٍ ليس بالغريب عنّي! حاولت متابعة الصوت ورحت أصرخ: "هل من أحدٍ هناك؟".

ظهرت ليلى أمامي من بين الأنقاض واتجهت نحوي:

- ليلى. شو صار؟
- حذّرتك في رسالتي!
- ما قريتها! حرقتها، شو كان فيها؟

انفجرت ليلى بالبكاء:

- ماتوا الكل. ما ظل حدا!
- شو قصدك؟ مين مات؟
- خلص. ما ظل حدا غيرنا. أنا وأنت - وراحت تنتحب بحرقة.

لم أرد إنقاذ الجنس البشري! لو رجع الأمر لذكوريّتي لكنتُ اتخذتُ قراري بعدم إنقاذ البشرية، لكن ليلى أرادت ذلك. قالت إن الجبن بعينه أن نترك أنفسنا للانقراض بينما نحن نستطيع أن نؤسِّس لحضارةٍ جديدة. كان من المضحك أن أشعر بأن مصير البشريّة متعلقٌ بعضوَينا التناسليَّين. فكّرت عندها بأن الأمر لن يكلّفني أكثر من مضاجعة فتاةٍ طالما أرادت التواجد في السرير معها، وفعلت ذلك ليلة الأمس حقًّا. ولكن لا، لم أرغب بمضاجعة ليلى. لقد شعرت أن فعلًا كهذا سيكون بمثابة خيانةٍ لحبّي لها. ما معنى أن أمارس الجنس مع حبيبتي من أجل الإنجاب؟ سأكون خجلًا أمام متعتي التي قد تجيء

بالويلات على أجيالٍ كثيرةٍ وعلى ملايين البشر.

- لا. ما بدي أعمل هاد الشي! - قلت لليلى التي كانت تخلع ملابسها.

كان جسدها لا يبدو جميلًا كما هو في الواقع، ولم يغرني بأي شكلٍ من الأشكال.

استدارت ليلى داعيةً إياي لفعلها بينما تشير إلى فرجها. شعرت بحيوانيتنا ووحشيّتنا. ضاجعتها بسرعةٍ كبيرة. لقد كانت ليلى، في تلك المرّة أيضًا، المنقذة.

كل ذلك كان هراءً. لا شيء مختلفٌ أخبركم به. القصة ذاتها، وكأن البشر بحاجةٍ إلى ألف فرصةٍ حتّى يختلف تسلسل الأحداث أو شكلها، وحتّى يتعلموا من أخطاء أسلافهم. صحوت من كابوسي ذاك، عندما رفع ابننا يده ليقتل شقيقه.

* * *

نهضتُ وكنتُ قد نمتُ لست ساعات. نظرتُ مذعورًا من نافذة غرفتي لأجد كلب الجيران ينبح على أحد موزّعي الجرائد المساكين، بينما تقف الحافلة على المحطّة، والشارع يعج برائحة البهارات. ركضتُ إلى طاولتي ورحت أتنفّس عبق شال ليلى. جمعت رماد الرسالة، لم يكن قد تبقّى منها حرفٌ واحدٌ يُقرأ، لم يبقَ منها أي أثر، سوى بعض الرماد الأسود، والكثير من الندم!

14

أجلس اليوم هنا، في هذا المقهى الأوروبي الذي يذكّرني ضجيجه بجدّي عندما كان يصطحبني إلى مقهاه المفضل - رغم انعدام التشابه بين المقهيَين - حيث كان يلعب الطاولة يوميًا مع "أبو مصطفى" الذي كان دائمًا ما يفوز، فيسحبني جدي من يدي مغادرًا المقهى باستياء، يقسم أن "أبو مصطفى" يغشّ أثناء اللعب ويقول لي كل يوم ذات الجملة: "ما راح ألعب مع هذا الغشّاش، عمّك أبو مصطفى محتال كبير". لقد كان جدي أثناء جلوسه مع "أبو مصطفى" يناديه دائمًا "أبو صطيف"، ولا يناديه بـ "أبي مصطفى" إلّا في أثناء مغادرة المقهى عندما يغضب من فوزه المتكرّر، وكأنّه يعاقب صديقه ويعبّر عن سخطه عليه بمناداته بـ "أبي مصطفى". كان جدّي في اليوم التالي بعد الظهيرة لا يلبث أن يرسلني إلى منزل صاحبه لأسأله إن كان يود الذهاب للمقهى مجدّدًا للعب الطاولة مساءً، فيبتسم الأخير ابتسامته الصفراء التي يخفي تحتها شعوره بنشوة الانتصار ويقول لي بغرور: "قول لجدّك أبشر".. ويعود جدي للخسارة وإطلاق الوعود بعدم مجالسة "أبو مصطفى" أبدًا ويفشل مجددًا وهكذا حتى قبل وفاته بأيام. أذكر أن "أبو مصطفى" - الذي كان يتأبّط جريدةً أينما ذهب ولا أعتقد أنّه استعملها يومًا إلّا لهشِّ الذباب عن رأسه - قد زاره باستمرار أثناء مرضه وكنت دائمًا ألمحه باكيًا أثناء

خروجه. كان يجلس قرب ذلك العجوز المريض لساعاتٍ يشدّ من عزيمته فيبدو قويًّا جدًّا، يذكّره بأيام شبابهما الخالية، لكنّه لا يكاد يخرج حتى تهزمه الدموع. كان يجلس بقربه ويقول: "قم يا أبو هشام، ما بدّك تخسّرني؟". كانت تترقرق الدمعة في عينَيّ جدي لدى سماعه ذلك ويبتسم ابتسامةً خجولة لا تخلو من الألم، وكأنه يعلم أن يديه لن ترميا النرد بعد ذلك اليوم. لم يكن شخصًا متفائلًا أبدًا، حتّى عندما كان النرد يدور أمامه كان لا ينظر إليه كما كان يفعل أبو مصطفى. كان يعتقد أن حجر نرده ذو وجهٍ واحدٍ فقط، لكنّني لا أتذكّر أن "أبو هشام" قد شتم نحسه مرّةً واحدة، بل كان دائمًا يتّهم "أبو مصطفى" بالغش. وأنا؟ أعتقد أن نردي لم يكن يومًا ذا وجهين على الأقل هو الآخر، ولكنّه اليوم لم يتوقف عن الدوران بعد، بينما أرمقه بطرف عيني متظاهرًا باليأس بينما يريد قلبي أن يحافظ على شيءٍ من الأمل.

إلّا أن ضجيج هذا المقهى اليوم لا يُطاق أبدًا. إنه حيوي لدرجةٍ تفوق قدرتي على التحمّل، فأتناول حبة مسكّنٍ من حقيبة ظهري الرماديّة وأرميها في فمي على عجلٍ وأرتشف خلفها بعض القهوة. هذا المقهى لا تكاد تشغر فيه طاولة واحدة، الجميع يتحدثون بصوتٍ مرتفعٍ ليستطيعوا سماع بعضهم البعض، وهكذا تعلو الأصوات شيئًا فشيئًا.

أنظر حولي إلى كل الطاولات ببلاهة لألحظ أنّي الوحيد الذي يشغل طاولةً لشخصين بمفرده، بينما يسترق بعض الشبّان والشابّات المرحين في الخارج النظر عبر الزجاج النديّ إلى الطاولات منتظرين أن تفرغ واحدة لينقضّوا عليها بسرعة، وعندما وصلت أنظارهم إلى طاولتي

أطالوا النظر إلى وجهي، فسألت نفسي إن كانوا ينظرون إليّ بعين الشفقة لأنني لا أملك من يشاركني القهوة، أو يبادلني حديثًا ما، أم بعين الازدراء لوقاحتي لأنني أشغل الطاولة بمفردي؟ ها هم على أي حال يهمّون بالانصراف تحت وطأة اشتداد المطر، وبعد أن فقدوا كل أملٍ بأن يتحرك أحد هذه الأحجار المشتعلة بالحياة ليترك لهم الفرصة ليحلّوا محله.

رحتُ أمطُّ رأسي لأرى كم اشتدّ المطر في الخارج، فالتصقت بكرسيي أكثر فأكثر، فعدلت عن قراري في الخروج للتدخين. ها هي أنانيّتي الفطريّة تقودني أنا الآخر للتخلّي عن رغبةٍ أخرى.

المطر هو أكثر شيءٍ قد يعيدني إلى أيام طفولتي. إلى دمشق. حيث للمطر رائحة لا أستطيع تصور رائحة الجنّة مختلفةً عنها. "أليست الجنّة في السماء يا جدي؟" كنت أسأله دومًا عندما تمطر. "بلى يا عزيزي!". فأسارع بالاستنتاج: "إذًا المطر يسقط من هناك. ينساب من نهرٍ ما هناك". دائمًا ما كانت الجنّة بالنسبة إليّ مرتبطةً بوالدَيّ، فقد كان الجميع يخبرونني بأنهما يسكنان الجنّة. وما أدراني أنا ما الجنّة؟ فصرت أتصوّر أنّه طالما كانا هناك، فإنّ الجنّة خُلقت لهما فقط - كما خُلقت النار برأيي حينها للكذّابين فقط -، ولم يعرفا الحياة السفلى أبدًا، وأنا من سقطتُ من أحضانهما ذات ليلةٍ على الأرض محمولًا في حبة مطر، فتلقّفني رحم الحياة كنطفةٍ من السماء.

الملل بات قاتلًا. رحت أشتم البرود الذي وصلت إليه في حياتي. كانت راكدةً كمستنقعٍ وسط غابةٍ قد احترقت للتو. يبدو أن عليّ الانصراف، ولكن أين عساني أذهب؟

أليس الحب استعبادًا؟ أليست الأنانيّة الآن تلصقني بكرسيّ في هذا المقهى الممل؟ هو الخوف على نفسي من التبلّل بالماء. لا أريد لأيٍّ من هذا أن يتملّكني ويتحكّم بتصرفاتي بعد اليوم، لا الحب ولا الخوف ولا أي شيءٍ آخرٍ سيستطيع سلبي رغبتي في الحرية!

أغلقتُ دفتري الصغير وهممتُ بالنهوض لمغادرة المقهى. في تلك اللحظة كانت ليلى واقفة أمامي، تحمل بيدها مظلّتها المطريّة التي تقطر على الأرض، وتلوّح لي باليد الأخرى قائلةً: "مرحبا".

تمّت

1 أيّار 2020

دوسلدورف، ألمانيا

في يوم الأول من أيّار لعام 2020 أنهيت كتابة روايتي الأولى هذه التي أضعها بين أيدي القرّاء اليوم. لقد كانت روايتي هذه حلمًا قد خمّرته الأيام شيئًا فشيئًا، منذ سنوات. لطالما بدأتُ وتوقّفت، حتّى قرّرت قبل سنةٍ كاملةٍ أن أبدأ الكتابة أخيرًا، فوجدت نفسي أغرق الأوراق بالكلمات التي طالما قفزت وتراقصت في رأسي، وطرقت جدرانه تريد الخروج، كان الأمر أشبه بسقوطٍ حرّ. توقّفت عشرات المرّات، وفي كل مرّةٍ كنت أواصل العمل بدأبٍ وانكبابٍ أكبر حتّى بلغت ما أصبو إليه يوم عيد العمّال.

روايتي هذه ليست سوى نتاج عذاباتٍ وتفكيرٍ متواصلٍ استمرَّ عامًا كاملًا من الزمن. لم تمضِ ليلةٌ واحدةٌ دون أن يساورني شعورٌ بالمسؤولية تجاه قصّتي المفترضة هذه، فتراني أنهض مجدّدًا وأعيد القراءة وأعيد، حتّى الصباح. كنت كمن يعيد ترتيب حياته، وقد رافقتني كل شخصيّةٍ من شخصيّات روايتي خلال رحلة كتابتها، فصاروا رفاقي الذين حزنت لمصيرهم، ولكنّني لم أجد بدًّا منه. فهم لا يصوّرون إلّا جزءًا من واقعٍ نحياه منذ سنوات، لقد صاروا رفاقكم اليوم، أحكامكم جميعًا تسري عليهم، فلكم أن تروهم ملائكةً أو شياطين، أو بين هذا وذاك. هم أبناء حياةٍ متناقضةٍ على أيّة حال وأبناء عالمٍ غريب، ومن شابه والدَيه ما ظلم.

سامر النّجّار

هناك الكثير مما أجهله، لكنني أعرف بعض الأشياء عن هذا العالم، بالتحديد عن كيف ينتهي. رأيت الكثيرين يتحطمون كآنية واحداً تلو الآخر، كلما تحطم واحد، وقبل أن نتمكن من جمع أجزائه، تحطم التالي.

نحمل مضادات الاكتئاب في جيوبنا كما نحمل الهواتف، أكثرنا شجاعة هُزموا في البداية لأنهم حاولوا المواجهة. أكثرنا هشاشة تسلّحوا بسخرية عدمية زائفة بينما تتناثر أجزائهم على الأرض. تهكّمنا على محدودية طموحات آبائنا، ثم تمنينا حياتهم الرتيبة.

في العشرينيات من أعمارنا، ونحمل حكمة الشيوخ عن فضائل الصبر والصمت والمداراة. ملصوقة أجزائنا بصمغ من التواطؤ والتظاهر بالصلابة، تتمحور أحاديثنا دوماً عن آخرنا تحطماً. تعلمنا بالوقت، كيف نُغوى بالتوافه لنحتمل الضيف الثقيل، الوقت نفسه.

أجملنا، يحتقر ذاته. أجرؤنا ينهزم أمام نوبات الهلع. أوسعنا حيلة، تتساقط أحلامه، بينما يقفز بخفة من مكانٍ لثان، متظاهراً بأنه حطام شخص آخر. أكثرنا أملاً يقول أنه حين سيجمع حطامه سيصير شخصًا مختلفاً، شخصاً أفضل. أكثرنا يأساً يخشى لو جمّع نفسه ثانية، أن يصبح أحد أعدائه.

ويعزّينا أننا نعرف أمراً أو اثنين، عن الجمال، عن الصداقات الصلبة، عن فتوة الروح. ويعزّينا أننا نعرف تحديداً أن العوالم تنتهي، لتبدأ أخرى، كان قدرنا جميلاً في إحداها، بينما تحطمنا في آخر، وربما في ثالث سنجرب أحياءً نشوة البعث، وتعود للروح فتوتها. وكما في نهاية الملاحم، تُزيّن المدينة بزينة لم يُرَ مثلها، وتدق الطبول، وتزغرد النسوة، وتعم الأفراح، بينما يعيد كل منا آخر أجزائه إلى جسده.



ISBN: 978-614-01-3131-6

9 786140 131316

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers. Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com